

تأثير الإسلام في الأدباء الروس

الاسكندر بوشكين وميخائيل ليرمنتوف وليو تولستوي وإيفان بونين

بحث مقدّم إلى كلىة الدّراسات العليا بجامعة الخرطوم لنيل درجة الدّكتوراه

في الدّراسات الإسلاميّة

إعداد الطّالبة: نعمات عبد العزيز طه

ماجستير ترجمة (لغة عربيّة/ إنجليزيّة) 1985- آداب جامعة الخرطوم

بكالوريوس اللغة الروسيّة - مرتبة الشّرف 1976

إشراف: د. تاج السرّ الحسن الحسين

مشرف مساعد: د. أم سلمة محمّد صالح

قسم الدّراسات الإسلاميّة - كلىة الآداب - جامعة الخرطوم

يناير - 2010 م

الإهداء

أهدي هذا الجهد المتواضع لروح كل من والدي وزوجي وأخي الأكبر، عطر
الله ثراهم، الذين كان لهم أثر كبير في إثراء حصيلتي العلمية حتى حصولي
درجة الماجستير، وإلى أبنائي عزيز وعاطف وعلاء الدين وبناتي نهاد
ونرمين وإخوتي وأخواتي ووالدتي الغالية التي ما زالت تمدني بالدعم

والقوة

شكر وتقدير

أخصّ بالشكر والعرفان الدكتور تاج السرّ الحسن الحسين الأستاذ بالجامعة الأهلية بأدرمان والمشرف المباشر على رسالتي، الذي لم يتوان في تقديم العون والمساعدة والنصح والإرشاد المتواصل طوال فترة إعدادي للرسالة، مع بذله لأقصى مجهود ممكن من المتابعة والإشراف المقترن بالصبر والتفهم والإيجابي، مستقطعاً من وقته الثمين برحابة صدر وسماحة دون كلل أو ملل، مما أتاح لي إخراج الرسالة على هذا النحو الذي أرجو أن يكون مرضياً.

كما أخصّ بالشكر الدكتورة أم سلمة محمد صالح بقسم الدراسات الإسلامية بجامعة الخرطوم، المشرفة المساعدة لهذه الرسالة، التي لم تبخل بوقتها وجهدها في تقديم يد المساعدة والمساندة الفعالة بالنصح والإرشاد في كلّ ما استعصى عليّ وما لزمني من مشورة لإكمال رسالتي وإخراجها بشكل أرجو أن يكون مفيداً.

ولا يفوتني أن أزجي الشكر خالصاً للدكتور تجاني إسماعيل الجزولي وكلّ من ساهم في إخراج هذا الجهد المتواضع من أساتذة ومسؤولين في الجهات المعنية وأخوات وإخوان وزملاء وأصدقاء، وأستبيحهم عذراً على عدم ذكر أسمائهم، فلهم مّي جميعاً جزيل الشكر والعرفان والامتنان.

جزى الله عنيّ الجميع كلّ خير، والحمد لله رب العالمين.

الباحثة

نعمات عبد العزيز طه

مستخلص

تتحدّث هذه الرّسالة عن موضوع الأثر العربيّ الإسلاميّ في الأدب الرّوسيّ وإبراز دور بعض الأدباء الرّوس وإنتاجهم في التأثير على الأدب الرّوسيّ وعلى غيرهم من الأدباء الرّوس والمجتمع الرّوسيّ ككل. ومنهج الرّسالة منهج تحليليّ تطرّق لأربعة أدباء روس أخضع كتاباتهم النثرية والشعرية إلى التحليل والتوثيق، وهم: "الاسكندر بوشكين وميخائيل ليرمنتوف وليو تولستوي وإيفان بونين".

تتكوّن الرّسالة من خمسة فصول، يحتوي كل فصل منها على عدّة مباحث. الفصل الأوّل يتطرّق إلى البعد التاريخيّ للإسلام في روسيا وبداية الاستشراق مع ذكر نماذج للمستشرقين الرّوس والمؤثرات الثقافيّة العربيّة الإسلاميّة على روسيا، إلى جانب نشأة الترجمة من وإلى الرّوسية والعكس وترجمة القرآن الكريم، ثم ذكر بعض مكنتات الاستشراق والمخطوطات العربيّة وما وصل إليه الإسلام في روسيا اليوم. الفصل الثّاني يتناول الشاعر الرّوسيّ الاسكندر بوشكين، جذوره ونشأته وتطور أدبه وتأثير القرآن في إنتاجه الشعري، ومحاكاته للعديد من سور القرآن الكريم في ملحمة "محاكاة القرآن".

يتحدّث الفصل الثّالث عن الأديب الرّوسيّ "ليرمنتوف"، جذوره ونشأته وتأثير الشّرق العربيّ على مؤلفاته مع ذكر نماذج لأشعاره، التي يبدو فيها متأثراً بالقرآن وطابع إنتاج "ليرمنتوف" الأدبيّ عموماً. أما الفصل الرّابع فيتناول الأديب الرّوسيّ "ليو تولستوي"، جذوره ونشأته والطابع الشّرق في أعماله الأدبيّة، ثم بعض المختارات، التي توضّح تأثير الإسلام على إنتاجه والنزعة الإسلاميّة في مؤلفاته، مع توضيح المنحى الأخلاقي في إنتاجه. وفاة "تولستوي" ورثاؤه من قبل شعراء معروفين في الشّرق العربيّ تأتي في نهاية هذا الفصل.

آخر فصول هذا البحث يتناول الأديب الرّوسيّ "إيفان بونين"، جذوره ونشأته وتأثير الشّرق في أدبه، ثم مختارات من إنتاجه، الذي بدا فيه متأثراً بالإسلام. تأتي بعد ذلك خاتمة الرّسالة لتوضّح العوامل، التي ساعدت على تأثير الشّرق العربيّ على الأدب الرّوسيّ، ثم نتائج الدّراسة والتوصيات.

Abstract

This thesis tackles "The impact of Islam in Russia & the Russian authors Alexander Pushkin, Michael Lermontov, Leo Tolstoy, & Ivan Bonen" and the impact of their production in Russian writers and the whole Russian society.

There are five chapters in this thesis; each chapter contains a number of themes. The first chapter speaks about the history of Islam in Russia and the impact of Orientalism and Islam in Russian writers. It also tackles the origin of Russian translations and holy Qur'an interpretation in Russia, besides the mention of the Arabic manuscripts lie in Russian museums, then the mention of Islam in Russia today. The second chapter speaks about Alexander Pushkin, his roots, origins and the impact of Islam in his publications.

The third chapter speaks about Michael Lermontov, his roots, origins, growth and the impact of Orientalism and Islam in his publications and the general features of his writings. The Russian philosopher Leo Tolstoy comes in the fourth chapter tackling his roots, origins, impact of Islam in his publications, his confession in his last days, and finally his death and the poems of Arabic poets grieving his departure.

The fifth and last chapter tackles the roots, origins, impact of Orientalism and Islam in Ivan Bonen publications, with the mention of some parts of his writings. In the end comes the conclusion of the thesis explaining the factors of Arab East influence on Russian literature, the results and recommendations.

مقدمة

تأتي هذه الدراسة للبحث في مكونات الأدب الروسي وما احتواه من إنتاج يتضمّن الاستشراق الروسي والآثار الشرقية والإسلامية على أدب بعض الأدباء الروس لم يسلم عليها الضوء بصورة واسعة في العالم العربي، إلا بعض الدراسات من باحثين كتبوا في هذا المجال في دراسات موجزة، على الرغم مما يحتويه هذا الموضوع من مادة غنيّة.

والدراسة تتناول تأثير الإسلام والشرق في بعض الأدباء الروس، الذين تمّ اختيارهم في هذه الرسالة لما لهم من مكانة عالية في تاريخ الأدب الروسي، وتأثير هؤلاء الكتاب على غيرهم من الأدباء الروس وأدباء المجتمع العالميّ بسبب التفاعل الثقافي بين الكتاب الروس والبلاد الشرقية الإسلامية، بما فيها من علماء عرب تمازجوا واختلطوا بالمجتمع الروسي، وانعكاسات ذلك التفاعل على الأدب الروسي وعلى بعض الكتاب الروس، الذين كان لهم أثر بارز في هذا المجال. من هؤلاء العلماء يتناول البحث بالدراسة عدّة نماذج، منها بعض المؤلفات النثرية والشعرية للكاتب الروسي "الاسكندر سرجيفتش بوشكين" (Pushkin) (Alexander Sergevitch) ، التي ظهر فيها تأثيره بالإسلام وثقافات الشرق والحضارة العربية، مروراً بالكاتب "ميخائيل يوريفيتش ليرمنتوف" (Lermontov) (Michael Yurievich) والتطرق إلى بعض كتاباته النثرية والشعرية، التي تحدّثت عن بعض الجوانب الإنسانية إلى جانب ما أنتجه من أدب فيه تأثير بالإسلام نثراً وشعراً.

يتطرق البحث كذلك إلى الأديب الروسي الكونت "ليو نيكولايفيتش تولستوي" (Leo Nicolaevich Tolstoy) ، متناولاً بعض المواضيع الخاصة بمؤلفاته الأخلاقية وبعض المؤلفات التي أظهرت تأثره بالإسلام ونثره، الذي بيّن معرفته بالإسلام وإعجابه برسوله محمد (صلوات الله وسلامه عليه). وفي آخر المطاف تتناول الدراسة الأديب الروسي "إيفان أليكسييفتش بونين" (Ivan Alekseyevich Bunin) وتأثره بالشرق، ومؤلفاته من النثر والشعر، التي تدلّ على معرفته بالرسول والقرآن الكريم والدين الإسلامي.

يتناول البحث أيضاً بالدراسة الأسباب، التي ساعدت أولئك الكتاب على التمازج والتفاعل واهتمامهم بالشرق العربيّ وما نتج عنه من أدب وشعر، ثم التحليل النصّي لذلك النتاج الأدبيّ مع تحديد مصادره وأبعاده.

هناك أيضاً مسائل هامة تتعلق بتاريخ الإمبراطورية الروسية وعلاقات الروس القدامى بجيرانهم المسلمين، التي يجب التّقديم إليها وإبرازها، لما لها من أهمية لم تجد لها مجالاً في المؤلفات العربية ولم يتطرق لها إلا القليل من الكتاب العرب؛ بذلك سيعطي البحث نظرة تاريخية للعلاقات الروسية الإسلامية وتاريخ الاستشراق الروسيّ منذ نشأته حتى القرن العشرين، ثم تاريخ الاستشراق الروسيّ في مجال الدين الإسلاميّ وما لعبته الدراسات والمخطوطات العربية في التأثير على الفاريء والمثقف الروسيّ، وكلّ ذلك يكاد يكون غير محدّد وخاصة في ما يتعلّق بالإسلام داخل الإمبراطورية الروسية وعلاقة روسيا بالدول الإسلامية المجاورة لها.

والبحت في هذا المضمون ودراسته يثير موضوعاً يتناول معرفة الأدباء الروس بالشرق العربيّ واحتكاكهم ببلاد عربيّة تعلموا من خلال مخالطتهم لشعوبها وجولاتهم في شعابها مختلف المفاهيم الشّرقية والأساليب العربيّة، إلى جانب تعاليم الإسلام السّمحة وخلق النّبي محمّد (صلّى الله عليه وسلّم)، فتأثروا بها وتطرقوا إليها في كتاباتهم. ومنهم من تغيّرت بعض المفاهيم التي كان عليها فتأثر بتعاليم الإسلام وسنة النّبي (صلّى الله عليه وسلّم) وكتب من المؤلفات والأشعار ما يدلّ على ذلك، فتأثر في غيره من أبناء بلاده وانعكس ذلك بدوره علي المجتمع الروسيّ.

يركز البحث على الأربعة كتّاب الروس، الذين تمّ ذكرهم مع ذكر بعض مؤلفاتهم، التي يظهر فيها ذلك التأثير.

أهمية الدراسة

يرجع السبب الأساسي لهذه الدراسة إلى أهمية الموضوع في حد ذاته، إذ إن إثارة موضوع الشرق العربي ومعرفة الدين الإسلامي وتعاليمه والتأثر به من قبل مؤلفين أجانب وتأثيرهم في غيرهم قد يكون أمراً مثيراً للاهتمام ومحفزاً للباحثين للتقصي والتبحر في تلك المادة، لا سيما وقد خرج الكثير من الأدب الروسي، شعراً ونثراً، وهو يحمل بعض تلك التعاليم الإسلامية والطابع الشرقي في مؤلفات وأدب بعض كتابه وشعرائه، وبذلك قد يستطيع الباحث في هذا المجال أن يخرج بنتائج وحقائق تشجع من يقرأها على التطرق إليها والبحث والتنقيب فيها والزيادة منها.

وتنبع أهمية هذه الدراسة أيضاً من الرغبة في المساهمة ومواصلة ما بدأه باحثون آخرون في دراسات أخرى موجزة في هذا المجال وإمداد الدراسة بمعلومات إضافية تخرج إلى حيز الوجود بصورة منهجية علمية بحثية وذلك بالبحث في مصادر أخرى لم تبحث فيها الدراسات السابقة، رغم غزارة هذه المادة، عليها تبرز جوانب أخرى كانت خافية للآخرين، وتمد الراغبين في مواصلة البحث في هذا المجال بإضافة تغطي جزءاً لم تتم تغطيته بصورة أرجو أن تكون مفيدة.

أهداف الدراسة

الهدف الأساسي من هذه الدراسة هو تسليط الضوء على قضايا ذات أهمية في تاريخ الأدب الروسي تعرض فيها بعض الأمور، التي كان لها تأثير في المجتمع الروسي، منها التعرف على تاريخ العلاقات الشرقية الإسلامية في المجتمع الروسي، التي تكاد تكون مجهولة، خاصة في ما يتعلق بالإسلام في روسيا وعلاقتها بالدول الإسلامية

المجاورة. والتعرّف على تاريخ الاستشراق الرّوسيّ في مجال دراسة دين الإسلام، الذي بقى غير واضح رغم وجود عدد من الدّراسات المتفرّقة، ومعرفة العوامل التي أدّت إلى تفاعل بعض الأدباء الرّوس بالشّرق العربيّ الإسلاميّ ودورهم في نشر الأفكار الإسلاميّة في روسيا وتعريف المجتمع الرّوسيّ بالثقافة الإسلاميّة من خلال أشعارهم وإنتاجهم.

منهج الدّراسة

منهج الدّراسة منهج تحليليّ تطرّق لأربع أدباء روس وأخضع كتاباتهم التّثريّة والشّعريّة إلى التّحليل والتوثيق.

الدّراسات السّابقة

على الرّغم من تنوّع الدّراسات وتعدّدها في مجال الأدب الرّوسيّ، إلا أنّ الدّراسات التي تتطرّق "للأثر الإسلاميّ في الأدب الرّوسيّ" قليلة، بل نادرة.

تم الرّجوع إلى بعض الدّراسات السّابقة في هذا المجال، ومن أهمّها كتاب الأدبية الدّكتورة مكارم الغمري "مؤثرات عربيّة وإسلاميّة في الأدب الرّوسيّ"، وهي دراسة تتناول البحث في المؤثرات العربيّة والإسلاميّة في الأدب الرّوسيّ في القرن الماضي وبداية القرن الحالي، استعرضت فيها الباحثة جوانب ألفت فيها الضّوء على الكثير ممّا كان يكتنفه الغموض في هذا المجال، كاهتمام الأدباء الرّوس بالشّرق العربيّ ومنابع الموضوع العربيّ والإسلاميّ في إنتاجهم، فضلاً عن التّحليل المنطقيّ لنصوص المؤلّفات الأدبيّة التي انعكس فيها التأثير ودراسة المصادر المؤثرة. وهذا الكتاب يعتبر من المراجع الهامّة، التي يمكن للباحثين العرب الرّجوع إليها في هذا المجال لما به من مادة ثريّة تمدّد الباحث بالعديد من المعلومات في جوانب عدّة تتعلّق بموضوع الاستعراب الرّوسيّ.

ومن الدّراسات السّابقة، التي تطرّقت إلى هذا المجال أيضاً، كتاب الأديب مالك صقور "بوشكين والقرآن"، الذي تطرّق فيه إلى بعض الجوانب الهامّة فيما يختصّ بتأثير الإسلام على الأدباء الرّوس، وذكر فيه اهتمام روسيا بالشّرق العربيّ وكيفيّة وصول الثقافة الشّرقية عامّة والعربيّة خاصّة إلى روسيا، كما ركّز فيه على اهتمام "بوشكين" بالشّرق العربيّ والحضارة العربيّة وتأثره بالقرآن الكريم، متطرّقاً إلى كتابة "بوشكين" لملمحة طويلة بعنوان "محاكاة القرآن"، تم تناولها في الدّراسة. ويبدو في تحليل الأديب مالك صقور تقارباً منطقيّاً من تحليل الأديبة الذّكتورة مكارم الغمري.

واعتمدت الدّراسة كذلك على ترجمة الكاتب سليم قبعين، الذي نقل كتاب الفيلسوف الرّوسيّ "ليو تولستوي" "حكّم النّبي محمّد" من اللغة الرّوسيّة إلى العربيّة، مشيراً فيه إلى اختيار الفيلسوف "تولستوي" لبعض الأحاديث، التي ترجمها عبدالله السهروردي في الهند من كتاب "أحاديث النّبي محمّد"، موضّحاً ما أشار إليه الفيلسوف أنّ تعاليم النّبي محمّد (صلى الله عليه وسلّم) " لا تخالف في شيء تعاليم الدّيانات الأخرى، التي ترشد إلى الحقّ وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر"¹

كما اعتمدت الدّراسة على كتاب د. مازن مطبقاتي "الاستشراق"، الذي بيّن فيه ماهيّة الاستشراق ونشأته وأهدافه وآثاره المختلفة، إلى جانب طرحه لبعض أعلام المستشرقين في مختلف أنحاء العالم، بما في ذلك روسيا، الذين كان لهم أثر بارز في هذا المجال.

¹. ليو تولستوي، حكم النبي محمد، ترجمة سليم قبعين، مصرية للنشر والتوزيع، ط 2، 1987، ص 7

ومن المراجع، التي اعتمدت عليها الدراسة أيضاً كتاب د. عبد الرّحيم العطاوي "الاستشراق الرّوسيّ"، وهو عبارة عن دراسة تحليليّة ومدخل إلى تاريخ الدّراسات العربيّة والإسلاميّة في روسيا، قدّم فيه الكاتب صورة للعلاقات التي كانت تربط الرّوس القدامى بجيرانهم المسلمين ومعالجة عدد من القضايا المرتبطة بتاريخ الاستشراق في مجال الدّراسات الرّوسيّة حول الدّين الإسلاميّ واللغة والأدب العربيّين وحضارة العرب وتاريخهم؛ حيث تطرّق إلى العديد من الجوانب في مجال الاستعراب الرّوسيّ منذ نشأته إلى حدود منتصف القرن العشرين، داعماً الحقائق بتزويد الدّراسة بالمع أعلامه ومؤلفاتهم ومراجع عديدة في نهاية الكتاب باللغات العربيّة والإنجليزيّة والرّوسيّة والفرنسيّة تمكّن الباحث من الرّجوع إليها والإفادة منها ما أمكن ذلك.

ورغم ذلك، فإنّ موضوع الأثر العربيّ الإسلاميّ في الأدب الرّوسيّ لم يتطرّق إليه الباحثون كثيراً، لذا ستحاول هذه الدّراسة، بمشيئة الله، تناول هذه المادة وإبراز دور بعض الكتاب الرّوس وإنتاجهم في التأثير على الأدب الرّوسيّ ككل. وتجدر الإشارة إلى أنّ اختيار هذه النّخبة من الكتاب الرّوس لا يعني أنّ التأثير العربيّ الإسلاميّ يقتصر عليهم، ولكن تمّ اختيارهم لما لهم من مكانة في الأدب الرّوسيّ وما يتضمّنه إنتاجهم من كمّ كبير من المؤلّفات في هذا المجال.

مشكلة الدّراسة

تكمن مشكلة الدّراسة في قلّة الدّراسات العربيّة، التي تنطرق إلى مادة تأثير الإسلام في الأدب الرّوسيّ. ونظراً لأهميّة هذه المادة، وجب إبرازها ومحاولة توضيحها،

علّ ذلك يساعد الباحثين في هذا المجال من الاستفادة منها والتزوّد من النصوص التثريّة والشعريّة التي ترد فيها ومتابعة البحث في مضمونها.

ويمكن تلخيص مشكلة الدّراسة في السّؤال التّالي "ما هو أثر الإسلام في تاريخ الأدب الرّوسيّ؟".

هيكل الدّراسة

- المقدّمة.
- الفصل الأوّل: البعد التّاريخي للإسلام والاستشراق في روسيا.
المبحث الأوّل: البعد التّاريخي للإسلام في روسيا.
المبحث الثّاني: نماذج من المستشرقين.
المبحث الثّالث: الحوار العربيّ الرّوسيّ.
المبحث الرّابع: مؤثرات ثقافيّة عربيّة إسلاميّة على روسيا.
المبحث الخامس: نشأة التّرجمة الرّوسيّة.
المبحث السّادس: مكتبات الاستشراق والمخطوطات العربيّة.
المبحث السّابع: الإسلام في روسيا اليوم.
- الفصل الثّاني: الاسكندر سيرجيفتش بوشكين.
المبحث الأوّل: بوشكين والطّابع الشّرقي والإسلاميّ.
المبحث الثّاني: عظمة أدب بوشكين.

المبحث الثالث: أدب بوشكين الاجتماعيّ.

المبحث الرابع: بوشكين والقرآن.

● الفصل الثالث: ميخائيل ليرمنتوف.

المبحث الأول: جذوره ونشأته.

المبحث الثاني: إنتاج ليرمنتوف الأدبيّ.

المبحث الثالث: أثر الإسلام في أدب ليرمنتوف.

المبحث الرابع: الشاعر والشرق.

● الفصل الرابع: الأديب الروسيّ ليو تولستوي.

المبحث الأول: جذوره ونشأته.

المبحث الثاني: الطابع الشرقي في أعمال تولستوي.

المبحث الثالث: أعمال تولستوي الأدبيّة.

المبحث الرابع: تولستوي والإسلام.

المبحث الخامس: اعتراف تولستوي.

المبحث السادس: تولستوي والمنحى الأخلاقيّ.

المبحث السابع: وفاة تولستوي وراثؤه.

● الفصل الخامس: الأديب إيفان بونين.

المبحث الأول: جذوره ونشأته.

المبحث الثاني: تأثير الشرق في أدب بونين.

المبحث الثالث: بونين والإسلام.

● الخاتمة

• نتائج الدراسة

• التوصيات

الفصل الأوّل تاريخ الإسلام في روسيا

- المبحث الأوّل: تاريخ الإسلام في روسيا
- المبحث الثاني: نماذج من المستشرقين
- المبحث الثالث: الحوار العربيّ الروسيّ
- المبحث الرابع: مؤثرات ثقافيّة عربيّة إسلاميّة على روسيا
- المبحث الخامس: نشأة الترجمة الروسيّة
- المبحث السادس: مكنتبات الاستشراق والمخطوطات العربيّة
- المبحث السابع: الإسلام في روسيا اليوم

الفصل الأوّل

المبحث الأوّل

تاريخ الإسلام في روسيا

البعد التاريخي للإسلام في روسيا

يتناول هذا الفصل نبذة عن بداية دخول الإسلام في روسيا ثم تطوره وانتشاره الاستشراق في مختلف بقاع روسيا والمؤثرات التي ساعدت على ذلك.

تمتدّ روسيا على رقعة جغرافية شاسعة، تشمل أغلب الأراضي الجنوبية التي كانت تابعة للاتحاد السوفيتي وتبدأ، تقريباً، من حدود رومانيا وجنوب أوكرانيا وحتى الصين.

من الصعب تحديد الحقبة التي بدأ فيها الإسلام في روسيا، وذلك لأنّ المناطق التي امتدّ إليها الإسلام في ذلك الزمن لم تكن أجزاء من روسيا، إنّما تمّ دمجها في القيصرية الروسية في فترة لاحقة. ويبدو أنّ هناك مؤشرات تشير إلى وجود حضور كبير للثقافة الإسلامية في روسيا، وأنّ الاستشراق الروسي لعب دوراً مميزاً في تعميق التواصل بين الجزيرة العربية وروسيا.

أنّ الدّين الإسلاميّ ليس جديد العهد في البلاد الروسية، فقد عرف فيها وانتشر في عدد من جهاتها قبل انتشار المسيحية بها. ويرجع تاريخ دخول الإسلام إلى " عدد من المناطق الموجودة حالياً ضمن جمهورية روسيا الفدرالية إلى فترات زمنية متفرقة كانت أولها حين تمّ فتح بلاد الداغستان في "القوقاز" في القرن الثاني والعشرين الهجري من

قبل الجيش الإسلاميّ في عهد خلافة عمر بن الخطّاب، تلتها فترات أخرى امتدّت حتى القرن العشرين، وكان الإسلام ينتشر خلالها في مختلف الجهات- خاصّة في المناطق المعروفة حاليّاً باسم "الجمهوريّات والجهات الإسلاميّة ذات الاستقلال الدّاتي" وسيبيريا، بطريقة سليمة بفضل نشاط الدّعاة من علماء وتجارٍ ومريدي الطوائف الصوفيّة وخاصّة منها النقشبنديّة والقاديّة¹ ويبدو أنّ دخول الإسلام في روسيا ظهر بصورة تدريجيّة "بسبب معرفة الرّوس لقبائل كانت تقطن بالقرب من روسيا، أهمّها "البلغار"، وهم من أصل تركي اعتنقوا الإسلام في القرن التّاسع الميلادي، وكانوا يسكنون على طول ضفتي نهر الفولغا.²

كان الاستشراق قوياً في روسيا منذ عهد بعيد، فقد انتشر الإسلام في "أقاليم آسيا ووادي نهر الفولغا و"القوقاز" عقب الفتوحات الإسلاميّة في بعضها، وفي مناطق أخرى اعتنقت الأفكار والمناسك الإسلاميّة بمحض الإرادة الشخصيّة في أزمنة لاحقة³ كما أنّ صلات العرب التجاريّة مع الرّوس كان لها أثر كبير في تقوية العلاقات بينهم، فالصّلات الأولى بين العرب والرّوس "يرجع تاريخها إلى العصر العباسي الأوّل حين كان بعض التّجار من بغداد يقصدون البلاد السلافيّة للتّجار بها، ومن المعروف أنّ أوّل وصف عربيّ للبلغار والخزر والرّوس كتبه العالم العربيّ المسلم "أحمد بن فضلان"⁴ في

1. د. عبد الرحيم العطوي، الاستشراق الروسي، ط 1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2002، ص 19

2. المرجع نفسه، ص 20

3. الإسلام في الاتّحاد السّوفيتي، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، مصر، الزمالك، ص 33

4. هو أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد، مبعوث الخليفة المقتدر إلى ملك البلغار (921 – 922م).

رسالته المشهورة "الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة (309 هـ)"¹
الموافق (921م).

وسوف يتطرق البحث لرحلة أحمد بن فضلان في هذا الفصل بتفاصيل
أكبر لتوضيح ما توصل إليه خلال هذه الرحلة.

تعود الصلات بين روسيا والعالم الإسلامي إلى زمن الدولة العباسية؛ حيث
تبادلت الدولة الإسلامية السفارات مع روسيا، ولما ضمت روسيا إليها بعض المناطق
الإسلامية ازداد الاهتمام بالإسلام والعالم الإسلامي. وقد أفادت روسيا من الدراسات
العربية والإسلامية في أوروبا، وبخاصة في فرنسا، حيث أوفدت روسيا بعض الباحثين
لدراسة في مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس. وقد قوي الاهتمام بالاستشراق في
روسيا في بداية القرن التاسع عشر حينما خصصت بعض الجامعات الروسية دراسات
لغة العربية والإسلام، ومن هذه الجامعات جامعة قازان وجامعة موسكو وجامعة
بترسبورغ وكلية لازاريف وغيرها.

التتار

ظهرت شعوب التتار في أوائل القرن السابع الهجري - الموافق للعام الثالث عشر
الميلادي- "وهي شعوب ذات هجمات بربرية وهمجية بشعة لا تعرف الرحمة قامت
بإسقاط مملكة البلغار وأقامت بدلاً منها إمبراطورية القبيلة الذهبية على ضفاف الفولغا،
وعاصمتها "ساراي". ومن المعروف أن تلك الشعوب ألحقت دماراً كبيراً وقضت على

1. الاستشراق الروسي، مرجع سابق، ص 20.

جميع الإمبراطوريات القائمة آنذاك ، غير أنّ "اعتناق خان الأسرة الذهبية "بركة خان" للإسلام في عام 1256م واتباع جنده وشعبه له غير الموازين، فأصبح الدين الإسلامي هو الدين الرسمي للدولة في عام 1312م¹ ومن البديهي أن تزدهر العاصمة "ساراي" دينياً، فتكثر فيها المساجد والمدارس الدينية ويُعرف الدين الإسلامي آنذاك.

حاول قائد التتار "جنكيز خان" إسقاط الخلافة العباسية في العراق كخطوة لإسقاط الأمة الإسلامية؛ "وقد كانت قوات التتار تستهدف العراق، إلا أنّ المسافة بين الصين والعراق كانت كبيرة، ففضّلت تلك القوات التّمرّك في منطقة وسطى بينهما فاستقرت في منطقة "القوقاز" الغنيّة بثرواتها. وقد دخل بعض التتار في الإسلام، ثمّ أنهم دخلوا في الإسلام دخولاً عاماً وبقيت مملكتهم قائمة لأكثر من قرن حتى هاجمهم القائد المغوليّ "تيمورلنك" وأسقط دولتهم وأكثر فيهم القتل. وفي عام 1395م فكّر تيمورلنك في غزو موسكو لكنّه رجع عن ذلك وانسحب بجيشه إلى أواسط آسيا.

بقي للتتار بعد الغزو المغوليّ أربع ممالك متناثرة، وهي "قازان" و"استراخان" و"سيبيريا" و"القرم"، ممّا تولّد عنه ظهور روسيا كدولة قويّة، فقامت بمحاولات لغزو "قازان" والسيطرة عليها عام (1552م). و"قازان" مدينة تشاريّة خالصة بناها الملك "صرتق خان بن باتو خان" من ذرية "جنكيز خان" المغوليّ المشهور. وأثناء حكم التتار لتلك المنطقة، وبعد أن تغلب "تيمورلنك" على حكام روسيا ، التي كانت ممالك وإمارات متعدّدة، قام باستقبال حكام الروس بالخبز والملح علامة للطاعة والانقياد لأمره، فترك مقاتلتهم وقبل هداياهم، ثم نزل مع عساكره منزلاً، وأمرهم أن يختاروا موضعاً صالحاً

1. د. عبد الرحيم العطوي، الاستشراق الروسي، ط 1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، عام 2002، ص 26 (بتصرف).

لإقامة الملوك، يكون قريباً من بلاد روسيا ليسهل على المسلمين جمع الخراج من الرّوس ويكون الرّوس تحت أنظار ملوك المسلمين. فوق اختيارهم على موقع "قازان"، فبنوا فيه بلدة وأنشأوا فيه قصوراً وأسموه بالاسم المذكور "قازان"، فاجتمع فيها خلق عظيم من التتار والجرميش والجواش والوتاك والموردو والبلغار، وكلهم كانوا مسلمين¹ فخضع بذلك الكثير من الرّوس لملوك المسلمين، ممّا يدل على تأثير المسلمين بهذه الطريقة على مجموعات روسيّة أدّت بدورها إلى تأثير الدّين الإسلاميّ على تلك الفئات الكبيرة من الرّوس. ويبدو أنّه كانت هناك فئات أخرى من المسلمين قبل تلك الفترة "فليست هذه المدّة وحدها التي كان فيها الرّوس خاضعين لملوك المسلمين التتار، ومن قبلهم البلغار، وأنما كانوا كذلك قبل ذلك بسنين طويلة وقبل أن تنشأ "قازان" تلك"²

وحيث إن القائد المغوليّ "تيمورلنك" كان يرغب في إخضاع المسلمين وإسقاط بلادهم، فقد توالت هجماته بعد ذلك على الممالك الأخرى "فأخضعت "استراخان" عام (1556م) و"سيبيريا" عام (1598م). وجرى ذلك في عهد القيصر الرّوسيّ إيفان "قروزي"- وهي كلمة روسيّة معناها "الرّهيب"، الذي استعمل أبشع الأساليب في إجبار المسلمين على تغيير دينهم. وظلت "القرم" آخر مملكة خارج السّيطرة الرّوسيّة حتى عام (1783م)، وذلك عقب ظهور الضّعف في الدّولة العثمانية؛ إذ لم يكن بمقدور هذه المملكة مقاومة الرّوس منفردة"³. ومن الأساليب التي قام بها "القيصر إيفان الرهيب عندما احتلّ

1. محمد بن ناصر العبودي، الرّحلة الرّوسيّة، ط 1، مطابع الفرزدق التجاريّة، الرياض، 1993، ص 237 .
2. المرجع نفسه، ص 238.
3. حسين عبد العزيز، أخبار الأدب، العدد 563، القاهرة، سنة 2004.

بجيشه مدينة "قازان" أنه قام بقتل عشرة آلاف شخص ثم أغرق جنوده ومن جاء بعده

ممن لم يقبل المسيحية، فأغرقهم في نهر الفولغا، وبخاصة علماء المسلمين¹

ولذا، يتضح أنّ شعوب التتار كانت تحاول إسقاط الأمة الإسلامية، التي كانت

تنمو بشكل واضح آنذاك، ولكن يبدو أنّ تلك المحاولات لم تقم انتشار الإسلام تدريجياً

في روسيا، بسبب تحالف بعض الدول والشعوب الإسلامية معها ومؤازرة أقليّات

المسلمين في ذلك الوقت. وتجدر الإشارة إلى أنه "ابتداء من سنة (1450م) صارت مدينة

"قازان" التتيرية أهمّ القلاع الإسلامية، التي تقف في وجه أوروبا المسيحية. وهي كما

كان يعتبرها المسلمون "النجم الساطع، الذي يحارب ظلمات الغرب المسيحي"².

شعوب إسلامية تحالفت مع روسيا

عندما قرّر هولاكو التتري غزو العراق "وضع على الفرق الإسلامية التي معه

مراقبة شديدة خوفاً من غدرها. وقد انتشر في شماليّ بلاد "القوقاز" - في العهد السوفيتي-

عدد من الجمهوريات والولايات أشهرها "داغستان"، التي فتحت على يد عبد الرحمن بن

ربيعة وحبیب بن مسلمة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنهم)، وترجع

تسميتها إلى قبيلة "داغستان"، التي يسكنها أقوام من التتار أيضاً. أما الجمهوريات

الأخرى فقد دخلها الإسلام عن طريق التتار والأتراك إضافة إلى جمهورية "أذربيجان"،

التي لها حدود مع "أرمينية" و"جورجيا" و"إيران" وتقع إلى الجنوب من "داغستان"،

1 . محمد بن ناصر العبودي، الرحلة الروسية، ط 1، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 1993، ص 242.
2. المرجع نفسه.

وفتحت في صدر الإسلام في القرن الثالث والعشرين الهجري على يد حذيفة بن اليمان وأغلب سكانها من الترك والتتار.

عندما دخلت روسيا في إطار النظام السوفيتي، الذي أحدثته ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى، والتي كان من مبادئها العامة إزالة الرأسمالية وإقامة الاشتراكية، استطاعت هذه الثورة أن تجذب إليها قاعدة واسعة من شعوب الشرق الإسلامية، وعلى رأسها شعوب آسيا الوسطى الإسلامية، التي تعاطفت مع الشعب الروسي وأقامت معه النظام الجديد.

والجدير بالذكر أنّ شعوب تلك الجمهوريات كانت على صلة عريقة بالإسلام منذ بدايته، إذ تحوي أواسط آسيا عدداً من الجمهوريات، التي وصلها الإسلام منذ فترة متقدمة في صدر الإسلام، "وقد فتحت هذه البلاد في القرن الأوّل الهجري، وكان من قادة فتح تلك البلاد، الأحنف بن قيس، وقتيبة بن مسلم الباهلي، والأشعث بن قيس، وحذيفة بن اليمان، والمغيرة بن شعبة. وقد وصل المسلمون إلى نهر "جیحون" في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، إذ أنّ الأحنف بن قيس فتح في تلك الفترة مدينتي "هراة" و"مرو"، وتمّت للمسلمين السيطرة الكاملة على إقليم "خراسان" الذي يشمل اليوم "تركمانستان" و"أوزبكستان" و"طاجيكستان" و"كازاخستان" و"قرغيزيا"، بالإضافة إلى "تركستان الشرقية"، التي ضمّتها الصين إلى بلادها عندما انحلّ الاتحاد السوفيتي، وأطلقت عليها اسم "سنكيانغ" - أي المستعمرة الجديدة، ولكن روسيا التي ورثت الاتحاد السوفيتي أبقت

على الدّول الإسلاميّة المذكورة¹. وعليه فقد ساعد ذلك في انتشار الإسلام وزيادة هيمنته وانتشاره في روسيا، وزاد من التّضامن والتّعاون بين مسلمي كلّ تلك البلاد بما فيهم روسيا.

رحلة ابن فضلان

يمكن القول أنّ هناك عوامل عديدة أدّت إلى انتشار الإسلام والاستشراق الرّوسيّ؛ فقد كانت أغلب مراجع مؤرخي العلاقات الأولى بين العرب والرّوس من الكتب والمراجع العربيّة الإسلاميّة والمخطوطات العربيّة، التي تذخر بها المكتبات الاستشراقية تتناول مادة الاستشراق الرّوسيّ والإسلام، كما أنّ رسالة "ابن فضلان" العربيّ المسلم، اعتبرت بداية تزامنت واقعيّاً مع بداية الاستشراق الرّوسيّ، إضافة إلى الصّلات التجاريّة بين الرّوس والشّرق والغزوات الرّوسيّة نحو الجنوب، إلى جانب عامل التّرجمة، الذي يعد من العوامل الأساسيّة في تطوّر الاستشراق الرّوسيّ.

وقد انعكس التّأثير الشّرقى والإسلاميّ في مؤلّفات بعض الكتاب والأدباء الرّوس؛ حيث أصدر العديد منهم مؤلّفات تتناول هذه المادّة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، كتاب الكاتب الرّوسيّ "اليو تولستوي" "جكّم النّبي محمّد"، الذي عكس فيه الكثير من تصوّراته الإيجابيّة عن الحضارة الإسلاميّة من خلال التعليقات التي بثّها في هذا الكتاب، مركزاً على عامل التّرجمة التي قام بها عدد من عمالقة المستشرقين الرّوس

1. حسين عبد العزيز، أخبار الأدب، العدد 563، القاهرة، سنة 2004.

وخاصة أولئك الذين أغنوا تجربتهم بمعايشة الأجواء العربيّة والإسلاميّة "1 ، إلى جانب مؤلفات أخرى تتناول هذه المادة كتبها أدباء روس بارزون سيأتي ذكرها في هذا البحث لاحقاً.

بالعودة إلى الواقعة التي تزامنت واقعياً مع بداية الاستشراق الروسيّ وكانت تعتبر أوّل علاقة بين العرب والروس، وهي رحلة العالم العربيّ المسلم "أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حمّاد"، الذي قام برحلة إلى الشرق في عهد الخليفة المقتدر بالله، "الذي ولي الخلافة عام 295 هـ (908 م)، حيث طلب ملك البلغار من المقتدر بالله أن يرسل له من يفقه قومه بالإسلام، وكانت بلغاريا آنذاك دولة إسلاميّة، فأمر المقتدر بتأليف وفد من ثلاثة مسلمين – أحدهم روسيّ الأصل والثاني صقلبيّ والثالث تركي، ثم ضمّ إليهم "أحمد بن فضلان" العربيّ الأصل، الذي لا توجد له ترجمة في أي من كتب التراجم"²

خرج "أحمد بن فضلان" من بغداد ووصل إلى نهر "الفولغا"، على رأس بعثته إلى ملك البلغار "ألماز بن يلطوار"، الذي طالب بهذه البعثة "علّه يجد إجابة عن السؤال الذي كان يدور في خذه "كيف استطاع ذلك الدّين الآتي من قلب الصحراء تكوين تلك الإمبراطوريّة الضخمة، التي لم تضاهيها سوى إمبراطوريّة "الإسكندر المقدوني"؟"، كما طلب من الخليفة العباسيّ أن يرسل من يبني له مسجداً يطلّ من محرابه على شعبه، وقلعة حصينة لمجابهة الأعداء. وقد تنقل "ابن فضلان" ورفقاؤه في الرحلة عبر بلاد

1. د. أيمن خيرى، جريدة الرياض، ثقافة وفنون، العدد 12868، الأحد 17 رجب 1424.
2. الاستشراق الروسي، أ. د. سعدون محمود الساموك، دار المناهج للنشر والتوزيع، الطبعة 1، سنة 2003، ص 105

مختلفة تضمّنت إيران وأواسط آسيا وبلاد بلغار الفولغا أو أرض الصقالبة ثم الأراضي الروسيّة تلتها مملكة الخرز "1.

ويبدو أنّ رحلة "أحمد بن فضلان" ساعدت في تمازج وتداخل العادات والتقاليد الدنيّة بين تلك الشعوب ممّا جعلها أوّل أحدى العلاقات بين العرب والرّوس، التي ساعدت على ظهور الاستشراق في روسيا في ذلك الوقت.

وقد نقل الكاتب "ابن فضلان" عن "الشّعوب، التي تقطن قرب نهر الفولغا وما بعده من جهة الشمال من مواطن الرّوس والاسكندنافيين ما يعتبر مصدراً وحيداً للمعلومات عن أولئك الأقوام وبلادهم في تلك العصور، وما يحرص عليه الرّوس والاسكندنافيون أكثر ممّا نحرص عليه"2. وقد استحوذت مشاهدات "ابن فضلان" كذلك على أكبر اهتمام من قبل المستشرقين والباحثين في أوروبا؛ ثمّ إنّ "ملك الصقالبة سمّى نفسه باسم "جعفر" بعد اعتناقه للإسلام تيمناً باسم أمير المؤمنين الخليفة العباسي "جعفر المنصور"، وغيّر اسم أبيه إلى "عبد الله"؛ فصار يُنادى على المنبر "جعفر بن عبد الله، أمير البلغار"، بدلاً من ألاماز بن يلطور"3

بعد تحقيق "أحمد بن فضلان" ورجال البعثة الغاية من سفرهم وإثر عودتهم من القيصريّة البلغاريّة إلى بغداد، عكف "أحمد بن فضلان" على تأليف كتاب "رسالة ابن فضلان"، التي تصف رحلته إلى بلاد التّرك والخرز والرّوس والصقالبة؛ حيث تجد في سجل "ابن فضلان" أحداث الرّحلة ومشاهدها من بلاد وأماكن وأنهار ووصف البيوت

1. الموقع الإلكتروني إسلام أون لاين، ثقافة وفن، فبراير 2004. Islamonline.net.
2. محمد بن ناصر العبودي، الرّحلة الروسيّة، ط 1، مطابع الفرزدق التجاريّة، الرياض، 1993، ص 262.
3. الموقع الإلكتروني إسلام أون لاين، ثقافة وفن، فبراير 2004. Islamonline.net.

الخشبيّة وولع التجار الرّوس بالدنانير والدّراهم الفضيّة العربيّة، وقد " قال أحد مثقفي الرّوس إنّ الاطلاع على رسالة "ابن فضلان" أصبح واجباً مقرّراً على كلّ من يدرس التاريخ الرّوسيّ، أو من يدرس اللغات الشّرقية، وبخاصّة العربيّة. "1

ويبدو أنّ الإسلام كان معروفاً لدى البلغار عند زيارة "ابن فضلان" إلى أرض البلغار، إلى جانب معرفتهم بأصحاب النّبي (صلى الله عليه وسلّم)؛ فقد كانت ترد إليهم معلومات من مصادر فارسيّة وتركيّة. وقد أشار المؤرّخ الرّوسيّ "رافيل بخارييف" (Rafael Boukhareyev) في كتابه "الإسلام في روسيا.. الفصول الأربعة" أنّ هناك أموال كان يجب أن يجلبها "ابن فضلان" لملك البلغار، حسب طلب الخليفة المقتدر بالله، الذي أمره بجمعها من مدن خوارزم لتلبية طلب قيصر البلغار، فلم يتمكن "ابن فضلان" من جمع تلك الأموال، وعند وقوع الخلاف على تلك الأموال كان ملك البلغار ينادي "ابن فضلان" تهكماً بـ "أبو بكر الصّدّيق"؛ فهماً منه أنّ معنى الصّدّيق يعني "الصّدق"؛ وهو ما اعتبره "ابن فضلان" مداعبة ثقيلة، ولكن ذلك الموقف يشير إلى أنّ أحوال صحابة الرّسول (صلى الله عليه وسلّم) وسيرتهم كانت معروفة لدى البلغار قبل قدوم بعثة "ابن فضلان"2.

حيث إنّ تعاليم الإسلام كانت معروفة لديهم، فيبدو أنّ نقل الأفكار الإسلاميّة إلى النّخبة الحاكمة في بلاد البلغار قد ساعد كثيراً في تسهيل اعتناقهم للدّين الإسلاميّ وممارستهم للشّعائر الإسلاميّة، ولكن يبدو أيضاً أنّها كانت "مختلطة بالأعراف والتقاليد

1 . محمد بن ناصر العبودي، الرّحلة الرّوسيّة، مرجع سابق، ص 262.
2 . الموقع الإلكتروني إسلام أون لاين، ثقافة وفن، فبراير 2004. Islamonline.net

والعادات لعقود طويلة تالية، إلى أن دخلت أفكار مدرسة بخارى، التي تهتم بعلم الحديث، والتي جاءت لتصلح كثيراً من المفاهيم المغلوطة آنذاك"¹.

لقد كان من الطبيعي أن ينعكس الانفتاح على ثقافات الشعوب الإسلاميّة، العربيّة وغير العربيّة التي عبّرت عنها الحضارة الإسلاميّة، في التراث والتنتاج الأدبيّ والفكريّ للمتقنين والأدباء الروس عبر المراحل الزمنيّة المختلفة، وبدءاً من معرفة الروس للقرآن الكريم من خلال الترجمات الأوروبيّة. وشكل تأثير المتقنين الروس بالتراث الإسلاميّ الشّرقيّ ونظرتهم الموضوعيّة في التعامل مع شعوب الشّرق المسلم دوراً هاماً في رؤية الإنسان الروسيّ للشّرق الإسلاميّ وتعامله معه " وقد شكّل ذلك الانفتاح الأسس الراسخة للتقاليد الاستعرابيّة الروسيّة، التي يعتبر الاستعراب القائم حالياً في جامعات ومعاهد روسيا امتداداً لها، لاسيّما أنّ عدداً من المفكرين والأدباء الذين تأثروا بالحضارة الإسلاميّة كانوا أعلاماً ورموزاً قوميّة بالنسبة لروسيا، مثل الشّاعر بوشكين والمستعرب أغناطيوس كراتشكوفسكي"².

1 . الموقع الإلكتروني إسلام أون لاين، ثقافة وفن، فبراير 2004 Islamonline.net.
2. دفاطمة عبد الفتاح، إضاءات على الاستشراق الروسي، مصادر الاستعراب الروسي، دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2000

المبحث الثاني

نماذج من المستشرقين

ماهية الاستشراق

تعريف الاستشراق بعبارة موجزة، هو عبارة عن معرفة ذات جوانب متعدّدة وقناة من قنوات التّواصل بين الحضارات والأديان، ويهدف في المقام الأوّل إلى دراسة الآداب العربيّة الإسلاميّة ومجتمعاتها التي أنتجتها، ويعمل على المساهمة في حوار الحضارات وتفاعلها. ويعرّف د. إدوارد سعيد الاستشراق في كتابه بعنوان "الاستشراق" بأنه "تحديد دقيق وميدان من ميادين الدّراسة المتفقّهة، وأنّ أيّ سرد للاستشراق ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار لا المستشرق المحترف وعمله فحسب، بل كذلك المفهوم ذاته لوجود ميدان من ميادين الدّراسة قائم علي وحدة جغرافيّة وثقافيّة ولغويّة وعرقية اسمها الشرق. ولاشك أنّ ميادين الدّراسة، لا توجد بذاتها بل تخلق، ثم تكتسب انسجاماً داخلياً وتكاملاً مع مرور الزّمن"¹

هناك مجموعة من المستشرقين، الذين ساهموا في إلقاء الضّوء على الشرق العربيّ ومصادره من خلال مصادر عديدة تفاوتت في أهمّيّتها وزمنها. من ضمن هذه المصادر أساتذة وعلماء عرب استقى هؤلاء المستشرقون الرّوس معرفة اللّغة العربيّة من خلالهم، منهم على سبيل المثال لا الحصر، نموذجاً عربيّاً بارزاً لا بد لدراسة تتطرّق إلى موضوع الاستشراق الرّوسيّ أن تتضمّن سيرته الغنيّة في هذا المجال.

¹ إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة كامل أبو ديب، الطبعة العربيّة الأولى، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربيّة، 1981، ص 102.

محمد عياد الطنطاوي

أثر العالم المصري الشيخ محمد عياد بن سعد بن سليمان الطنطاوي (1810م - 1861)، الذي يعدّ أحد نماذج التفاعل الإيجابي بين الشرق والغرب في القرن التاسع عشر في مسيرة الاستشراق الروسيّ منذ العقد الرابع من القرن التاسع عشر، فقد كان "أول عربيّ مسلم يشغل كرسي اللغة العربيّة في جامعة بطرسبورغ بين الأعوام (1840 - 1855)".¹ عمل الطنطاوي على تدريس اللغة العربيّة وآدابها للأجانب بمصر، فتتلمذ على يديه مستشرقون من شباب الرّوس، منهم الرّوسيّان " نغولا موخن" (Nicola Mukhan) و"كريستيان فرين" (M. Christian Frehn)، وقد تخرّجا في مدرسة واحدة، وخلف أحدهما الآخر في القاهرة. "أمّا "موخن" فقد تخرّج في قسم التاريخ والآداب الشّرقيّة بجامعة بطرسبورغ، وكان يعمل مترجماً في القنصليّة العامّة الرّوسيّة في مصر، وهناك تلقى دروساً على يد الطنطاوي في العربيّة، ودرس الشّعْر العربيّ، واقتنى مجموعة من المخطوطات من الآثار المصريّة القديمة".² كان لهذين التلميذين أثرهما في قرار الطنطاوي بالرحيل إلى روسيا، "يقول الطنطاوي عن ذلك: "إنّ طلبهما كان أول دافع لسفري إلى روسيا"، وكان معلّم اللغة العربيّة بالقسم التّعليمي التابع لوزارة الخارجيّة الرّوسيّة قد ترك عمله، فكلف وزير الخارجيّة الرّوسيّ قنصله العام في الإسكندريّة

1. موقع إسلام أون لاين، د.مجددي سعيد، مجاهيل ومشاهير، 2001 (بتصرف)
2. المرجع نفسه.

بالبحث عن معلّم مناسب من علماء العرب، فوقع اختيار القنصل عليه، وقد حتّ محمّد علي باشا والي مصر الطنطاوي على تعلّم اللغة الروسيّة وإتقانها.

ونسبة لعلاقة الصداقة، التي عقدها الطنطاوي " مع فرين " (Frahn) و "يوليان سينكوفسكي" (O. I. Senkovski) و "سافيليف" (P. Saveliyev) وغيرهم، فقد لعب دور صلة الوصل الثقافيّة بين المستشرقين في بطرسبورغ وبين الكتاب والأدباء المصريّين كأحمد تيمور ومحبي الدّين الخطيب وغيرهما، وله الفضل في إرساء العلاقة بين المستشرقين الرّوس، حتّى قال عنه المستشرق الكبير "غريغوريف" (Grigoriev) "كانت محاضرات الطنطاوي غنيّة جداً بالمفردات واللفظ العربيّ الجميل والسليم. كما عُرف بأنّه كان إنساناً رائعاً، عصامياً في أخلاقه مفيداً وغيوراً على طلابه"¹. كما كتبت عنه مقالة عرّفت به في صحيفة "أخبار سانت بطرسبورغ" في 22 أغسطس عام (1840م)، ورَدَ فيها "تسألني عن هذا الرّجل الوسيم في حلّته الشّرقية وعمامته البيضاء ولحيته السّوداء كالقطران، وعيونه الحيّة المتقدة شرراً ووجهه المعبرّ الذكي المحترق لا بشمسنا الشماليّة الباهتة... الآن تستطيعون تماماً أن تتعلّموا التحدّث بالعربيّة دون أن تسافروا من بطرسبورغ"، ويبيّن كاتب المقال أنّ "هذا الرّجل هو الشّيخ محمّد عياد طنطاوي الذي رحل من "شاطئ النّيل" ليشغل الكرسي الخالي للغة العربيّة في معهد اللغات الشّريقيّة التابع لوزارة الخارجيّة"²

ذهب الشّيخ الطنطاوي إلى روسيا لتدريس اللغة العربيّة " بدعوة من الطالبين "كريستيان فريسن" و "نقولا موخن" الدّبلوماسيين، لما لهما من علاقة وطيدة

1. أ. د. سعدون الساموك، الاستشراق الروسي، دار المناهج للنشر والتوزيع، ط 1، 2003، ص 108.
2. كراتشكوفسكي، تاريخ الاستعراب الروسي، ترجمة فرالونا، ص 143

بالشيخ الطنطاوي، وقد عمل على إتمام تلك الدعوة القنصل الروسيّ "الدوق ميديم"، فذهب الطنطاوي لتدريس اللغة العربيّة في القسم التعليمي في وزارة الشؤون الخارجية وذلك في عام (1840م)، وكان ذلك حدث كبير بالنسبة للاستشراق¹، فقد كان لانتقال الطنطاوي إلى روسيا أكبر الأثر في حياته وفي الاستشراق الروسيّ، وقد أعارته الصحافة الروسيّة انتباهًا كبيرًا، حيث احتفل الإعلام الروسيّ بالطنطاوي عند قدومه إلى بطرسبورغ.

وجدير بالذكر أنّ الشيخ الطنطاوي قضى "عشرين عاماً في روسيا جمع خلالها مجموعة الوثائق الشّرقيّة التي أشرف على إعدادها، ثم انتقلت تلك الوثائق إلى مكتبة جامعة بطرسبرغ"² ويوجد العديد من مؤلفات الطنطاوي بالجامعة، بعضها كتبها "الغايات تعليميّة مثل "نظم تصريف الزّنجاني"، و"تقييدات على شرح الأزهرية"، و"حاشية الكافي في العروض والقوافي"، و"نبذة عن تاريخ العرب"، و"حال في الأعياد والمواسم في مصر" و"فهرس الخلفاء والسلاطين" و"القاموس التتري العربي"، وكان البعض الآخر من مؤلفاته تاريخاً لأحداث مختلفة عاشها خلال فترة وجوده في روسيا مثل "تاريخ خمس وعشرين سنة من تتويج أبهة قيصر الرّوسيا نيقولا الأوّل"، و"تاريخ جلوس أبهة القيصر اسكندر الثاني على تخت روسيا"، وغير ذلك. ولعلّه من الممكن القول أنّ أوّل دراسة في الاستعراب قام بها عالم عربيّ يمكن أن تعود إلى الطنطاوي، وذلك من خلال أهمّ مؤلفاته، وهو الكتاب الذي كتبه في وصف روسيا وأهداه إلى

1. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، عالم المعرفة، عدد 155، الكويت، نوفمبر 1991، ص 38.
2. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، عالم المعرفة، عدد 155، الكويت، نوفمبر 1991، ص 39.

السّلطان التركيّ عبد الحميد، وأسماه "تحفة الأذكيا في أخبار بلاد الرّوسيا"، وقد كتبه في عام (1850 م - 1266 هـ). ويتناول في الكتاب وصفاً تفصيلياً لرحلته من القاهرة إلى بطرسبورغ، ومتحدثاً عن انطباعاته خلال العشرة أعوام الأولى التي قضاها في روسيا¹. توجد من هذا الكتاب نسختان، الأولى وهي المهداة إلى السّلطان "محافظة في جامعة إستانبول ومسجلة تحت رقم 766 عربية، وقد تمكّن "كراتشكوفسكي" من الحصول على صورة منها بفضل مساعدة الأستاذ "فؤاد كوبريلو" (Fouad Koprilo)، فسارع إلى إعطاء معلومات أوليّة حول هذا المخطوط في مقالة نشرت عام (1927م) وعنوانها "مؤلّف مجهول للشيخ الطنطاوي"²، وهذا يدلّ أيضاً على مدى اهتمام "كراتشكوفسكي" بمؤلفات الشيخ الطنطاوي ممّا ساعد في الرّجوع إلى سيرته، بعد أن كاد أن يكون مغموراً لفترة من الزمان منذ وفاته عام (1861م) إلى العقد الثاني من القرن العشرين، حتّى كادت تنساه السّاحة العلميّة في البلاد العربيّة والرّوسيّة. ويظلّ كتاب "تحفة الأذكيا في أخبار بلاد الرّوسيا" أوّل كتاب عربيّ تناول موضوع تاريخ روسيا وثقافتها وأدبها مع إعطاء وصف جامع ودقيق للغة الرّوسيّة في مصنّف واحد يعدّ تحفة لا بد من الرّجوع إليها.

ومما يسترعى الانتباه أنّ الشيخ الطنطاوي تعلّم اللغة الرّوسيّة وأتقنها حتّى وصل إلى حدّ التّأليف بها، وأهم مؤلفاته باللغة الرّوسيّة كتاب "قواعد اللغة العربيّة الفصحى"، وهو محفوظ في مكتبة جامعة بطرسبورغ؛ يقول عنه "كراتشكوفسكي" "..... والقواعد فيه مشروحة بالتّفصيل على حسب الأسلوب العربيّ الموضوع في أساس

¹. كراتشكوفسكي، تاريخ الاستعراب الروسي، ترجمة فرالونا، ص 38
². د. عبد الرحيم العطوي، الاستشراق الروسي، مرجع سابق، ص 92

الكتاب..... وأن ما يسترعي النظر تصحيحاته الجديّة والمنظمة لعدد من الأخطاء

الواردة في كتاب "سلفيستر دو ساسي...."1

وقد انتفع بعلم الشّيخ الطّنطاوي عدد كبير من من الطلبة والأساتذة الرّوس والأجانب، و"كرّس له "كراتشكوفسكي" جزءاً مهماً من حياته واستمرّ اهتمامه به حتّى نهاية حياته، فعرفّ بالشّيخ الطّنطاوي ومؤلفاته ومختلف أطوار حياته في مصر وروسيا من خلال العديد من دراساته، أهمّها كتابه " الشّيخ محمّد عياد الطّنطاوي الأستاذ بجامعة سان بطرسبورغ."، الذي صدر عام (1929م) في ليننجراد، وقد قامت فيما بعد الأستاذة كلثوم عودة فاسيليفاKulthoum Oudah Vasilieva بترجمته إلى اللغة العربيّة" 2 ، كما وصف "كراتشكوفسكي" الطّنطاوي أيضاً بقوله: " فيا لها من زهرة نادرة تلك الشخصيّة، التي تألأت في روسيا القديمة"³

إنّ أهميّة الطّنطاوي تنبع من أنّه كان معلماً ومتعلماً، فاعلاً ومتأثراً، ولعلّه أهمّ شخصيّة علميّة عربيّة تواجدت في روسيا في القرن التّاسع عشر وأثرت تأثيراً فعّالاً في الاستعراب الرّوسيّ، وبنفس الوقت درست ووصفت الحياة في روسيا، وذلك من خلال مؤلفاته المختلفة، "وقد منحته الحكومة القيصريّة وسام القديسة "حنة" تقديراً لجهوده العلميّة في الاستعراب الرّوسيّ، فعلق الطّنطاوي الوسام على صدره بعد تقليدهم له،

1. د. عبد الرحيم العطوي، الاستشراق الروسي، مرجع سابق، ص 93
2. أ. د. سعدون الساموك، الاستشراق الروسي، دار المناهج للنشر والتوزيع، ط 1، 2003، ص 93.
3. كراتشكوفسكي، تاريخ الاستعراب الروسي، ترجمة فرالونا، ص 144

فكان يبدو في صورة رسمها له الفنان "مارتينوف" (Martinov) قائلاً: "إني رأيت
عجباً في بطرسبورغ وأنه شيخ من المسلمين يضمّ في الصّدر حنة" ¹

لذا، يستحقّ هذا العالم العربيّ الكبير أن يعتني الباحثون العرب بجمع مؤلفاته
والتّعريف بها وأن تُرصد له دراسات مستفيضة تتناول إنتاجه وترجماته، فهو بحر واسع
من العلم أتقن لغات عديدة إلى جانب اللغة الروسيّة، كالفرنسيّة والفارسيّة والتّبريّة.

هذا في ما يختصّ بعالم عربيّ له دورٌ كبيرٌ في تطوير وإثراء الاستشراق
الروسيّ، إلى جانب علماء عرب آخرين لا يتسع المجال لذكرهم في هذا البحث.

وفيما يختصّ بالنّخبة المختارة من المستشرقين الرّوس، الذين تأثّروا بشخصيات
عربيّة هامّة وأساتذة عرب تعاقبوا على روسيا فأثّروا في غيرهم، يتطرقّ البحث إلى
ثلاثة أقطاب، على سبيل المثال لا الحصر، لا بدّ للباحث في تاريخ الاستشراق الروسيّ
من التّطرقّ إليهم والتّعريف بهم، حيث أنّهم من أبرز وجوه الاستشراق الروسيّ خلال
العقود الأربعة الأولى من القرن العشرين، وأنّ أعمالهم ربّما تغطّي معظم جوانب
الموضوع الذي تنتاوله هذه الدّراسة. وهؤلاء العلماء هم: فاسيلي بارتولد وإغناطيوس
جوليانوفتش "كراتشكوفسكي" وأغافانجيل كريمسكي.

فاسيلي بارتولد

فاسيلي.ف. "بارتولد" (Vasili Vaslievitch Barthold) (1869-1930م)،
أحد أبرز وجوه الاستشراق الروسيّ في النّصف الأوّل من القرن العشرين، لاسيّما في

¹. كراتشكوفسكي، تاريخ الاستعراب الروسي، ترجمة فرالونا، ص 144.

مجالات تاريخ الحضارة الإسلاميّة. تتناول أبحاثه الدّراسات الشّاملة للتاريخ الثقافيّ والاجتماعيّ والدّراسات المتخصّصة في التاريخ، وتستند إلى إحاطة بعدّة لغات تتضمّن اللغة العربيّة والفارسيّة والتركيّة والتّبريّة.

يُعدّ "بارتولد" مؤسس المدرسة التاريخيّة للاستشراق الرّوسيّ وواحدًا من أكبر مؤرخي الحضارة في الشّرق. درس بارتولد (تاريخ الشّرق) في جامعة بطرسبورغ عام (1892م) " كما درس (التاريخ الإسلاميّ وتاريخ آسيا الوسطى) في نفس الجامعة عام (1901م)، وعمل فيها أستاذًا لتاريخ الشّرق الإسلاميّ. اهتم بمصادر التاريخ الإسلاميّ العربيّة كما اهتم بدراسة "ابن خلدون" ونظريّته في الحكم، وانتخب عضواً في مجمّع العلوم الرّوسيّ ورئيساً للجنة المستشرقين. له كتابات كثيرة في مجال التاريخ الإسلاميّ، وقد كتب عن "عمر بن الخطّاب" رضي الله عنه¹. كما حقق في المصادر العربيّة المتعلقة بالشّرق الإسلاميّ " وتخرّج على يديه عدد من المستشرقين². ومن أكثر المؤلفات العلميّة، التي تتعلّق بهذه الدّراسة "وتعتبر خلاصة أبحاث "بارتولد" في مجال الدّراسات الاستشراقيّة، مؤلفاته "تاريخ دراسة الشّرق في أوروبا وروسيا"، ويعدّ من أهم مؤلفاته، و "تركستان من الفتح العربيّ إلى الغزو المغولي" و"الحضارة الإسلاميّة" و "العالم الإسلاميّ" و "الإسلام"³، فقد تناول "بارتولد" بإسهاب في هذه المؤلفات علاقة روسيا بالشّرق وتاريخ الشّرق وعرفّ بعلم الاستشراق في روسيا.

الاستشراق الفارسيّ

1 . إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة كامل أبو ديب، الطبعة العربيّة الأولى، بيروت، مؤسسة البحوث العربيّة، 1981، ص 73
2 . ملحق مساء التابع لمجلة الأسرة التي تصدر عن مؤسسة الوقف الإسلاميّ، العدد 34، مارس 2006
3 . د. مازن مطبقاتي، الاستشراق الرّوسيّ، مصدر سابق، ص 130

نسبة لما أحدثته حركة الفتح الإسلامي للعراق وفارس والشام ومصر من تأثير كبير في حياة المجتمع الإسلامي العسكري والبشرية والفكرية، فقد اقبل سكان البلاد المفتوحة على تعلم العربية وآدابها ودراسة المصادر الإسلامية المختلفة، فبرز فيهم الكثير من العلماء الذين أصبح لهم أثر في الثقافة العربية ونشر الحركة الفكرية. ولم يكن إقبال الشعوب غير العربية على تعلم العربية وترك لغتها الأصلية بسبب الإكراه أو الإجبار، حيث قال المستشرق "بارتولد": "إنّ غلبة العربية كان بالإختيار لا بسطان الحكومة وإنّ تسامح العرب أدى إلى انتشار العربية، فدرس حنين بن إسحق الخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه حتى أصبح حجة في العربية"¹.

وقد اقبل كثير من الفرس على حذق اللغة العربية والتثقف بأدابها فقد "عجب الجاحظ من موسى بن سيار الأسواري، أحد القصاص، فقال: "ومن أعاجيب الدنيا كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية، وكان يجلس في مجلسه المشهور فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره، فيقرأ الآية في كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية"². بذلك يتضح أنّ هذه الفتوح وهذا الاختلاط ساعد على تمازج الحضارات ونقل العديد من الكتب والآداب من الفارسية إلى العربية. ذكر "ابن النديم في كتابه "الفهرست" فصلاً بأسماء النقلة من الفارسية إلى العربية، منهم عبدالله بن المقفع ومحمد بن الجهم البرمكي وزادويه بن شاهويه الأصفهاني والطبري والبلاذري أحمد بن يحيى بن جابر المؤرخ المشهور، إلى جانب

1 . بارتولد، الحضارة الإسلامية، ص30 + ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج1، ص185 – 189.
2 . الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص139.

ترجمة الشعر وتعريب كتب تاريخ الفرس والكتب الدينيّة ككتاب زرادشت المسمّى (الافستا) وما عليه من شروح.¹

أنتجت بلاد فارس ميراثاً أدبياً قيماً، شعراً و نثراً؛ بل إنّ إيران حملت مشعل الحضارة الإسلاميّة و ثقافتها لسنوات عديدة، وترجمت بعض الروائع الأدبيّة الإيرانيّة، مثل "كليلة ودمنة"، الذي ترجمه "برزويه" من اللغة السنسكريتيّة الهنديّة القديمة إلى اللغة الفارسيّة، و"الشاهنامه"، الذي يعدّ من أشهر المنظومات الفارسيّة، و "مجنون ليلى"، التي انتقلت إلى الأدب الفارسيّ و تُرجمت إلى لغات عديدة، و"اليتيمة" و "الأدب الكبير والصغير" وغيرها الكثير ممّا كان له أكبر الأثر في اطلاع العالم على الثقافة والأدب الفارسيّين.

وقد كانت روسيا من ضمن تلك البلاد، التي تأثرت بالثقافة والأدب الفارسيّين، فتأثّر بعض أدبائها بتلك الحضارة، من بينهم فاسيلي بارتولد، الذي امتد نشاطه بعيداً "فشمل الشترقين الأدنى والأوسط وتاريخ أواسط آسيا، وتاريخ الإسلام وتاريخ الخلافة العربيّة في عصورها المبكّرة وتاريخ النقوش والمسكوكات الإسلاميّة. بيد أنّ أهمّ أبحاثه كان كتابه "تاريخ آسيا الوسطى"، الذي يُعدّ المرجع الأهمّ لتاريخ هذه المنطقة من القرن السابع الميلادي إلى بداية القرن الثالث عشر الميلادي. والكتاب ظاهر الاهتمام بتحليل التطوّر التاريخيّ لهذه البلاد من بداية فتح العرب حتى الغزو المغوليّ، بقصد إيضاح الظواهر الاجتماعيّة والنّظم التي سادت في أثناء هذا الغزو. وقد عالج "بارتولد" أبحاثاً في تاريخ إيران وبلاد ما وراء القوقاز والأقطار العربيّة وتاريخ الشعوب التركيّة

1. أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج1، ص179.

والمغولية. وذاغت شهرته في العقد الثاني من القرن العشرين في روسيا وخارجها

بوصفه أكبر عالم يحيط بتاريخ الشرق في العصور الوسطى.¹

كانت للمؤرخ "بارتولد" أيضاً دراسات في الصّلا

وروسيا القديمة، وكان "عضواً في أكاديميّات مختلفة مثل "تركماني"

و "باك" و "أذربيجان" و "عشق أباد" و "قازان"، وله مؤلفات في تاريخ الإسلام والخلافة

العربيّة. وجمعت أكاديميّة العلوم في روسيا الأعمال الكاملة لبارتولد في عشر مجلّدات،

والحادي عشر منها للفهارس، ومنها كتاب "الإسلام"، الذي طُبِع عام 1918م، وكتاب

"الحضارة الإسلاميّة"، و"العالم الإسلامي"، وغيرها²، كما نُشر في مدة اثنتين

وأربعين عاماً من نشاطه العلميّ "ما يزيد على أربعمئة أثر علميّ بين بحث ومقالة ونقد

وتعليق، وأسهم بنصيب وافر في الطبعة الأولى من "دائرة المعارف الإسلاميّة"، التي

أمّدها بمئتين وأربع وسبعين مقالة جمّعت كلّها في مجموعة واحدة من تسعة مجلّدات

صدرت باللغة الروسيّة، وتُرجم بعضها إلى العربيّة³.

تميّز "بارتولد" بعمق فهمه للإسلام وتاريخ شعوب الشرق الأدنى، وكتب أعمالاً

فريدة لا تزال محافظة على أهميّتها حتى يومنا هذا معتمداً على الوثائق العربيّة

والفارسيّة، ومستعيناً بمصادر عديدة. ومن مؤلفاته كتاب بعنوان "(حول تاريخ الإسلام

والخلافة العربيّة)، يضم عدداً كبيراً من المقالات والدراسات تمّ توزيعها على خمسة

أبواب: الإسلام، الثقافة الإسلاميّة، العالم الإسلاميّ، مقالات ونقد ومقالات من الموسوعة

1. فاسيلي بارتولد، تركستان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1981م.

2. موسوعة المستشرقين، ترجمة فرالوفا، موسكو 1977، ص 63

3. الموسوعة العربيّة، يوسف الأمير علي، المجلد الرابع، الحضارة العربيّة،

الإسلامية. يضم الكتاب ثلاثة أعمال كانت قد صدرت كتباً منفردة في بداية القرن العشرين هي: "الخليفة والسلطان"، ("الإسلام" و "ثقافة الإسلام")، "العالم الإسلامي"، وفيه مقالتان: "الإسلام والملكيون" و "الإسلام على البحر الأسود" تنشران لأول مرة¹. يتحدث "بارتولد" عن "الإسلام"، فيصف الوضع التاريخي الذي ولد فيه الإسلام، ويصور السمات الأساسية لتطور الدعوة من خلال التفاعل مع العوامل الموضوعية السياسية والثقافية، وتشمل هذه الدراسة التاريخية ثلاثة عشر قرناً هي تاريخ الإسلام على كل مساحة انتشاره². ويتحدث "بارتولد" في العمل الثاني عن "الثقافة الإسلامية" فيبين "الطابع الجمعي للثقافة الإسلامية ويبرز مصادرها وعناصرها الأساسية وخصائصها، وينتهي إلى دراسة قضية "الإسلام والثقافة المعاصرة"، فيضع المسألة لأول مرة على أساس علمي متين جعل مستشرقاً فذاً آخر هو "إغناطيزس يوليانوفيتش كراتشكوفسكي" (Ignaj Julianovic Krachkovski)، يقول: "أوضح بارتولد التواصل التام في تطور هذه الثقافة واستمراريتها في كل المراحل"³. وفي العمل الثالث "العالم الإسلامي" يناقش "بارتولد" تاريخ العالم الإسلامي كجزء من التاريخ العالمي، وخلال الحديث عن التركيب الإثني لهذا العالم يقدم عرضاً نقدياً لأهم المصادر العربية والدراسات الاستشراقية في هذا المجال، ولعل "أهمية هذا الكتاب ككل ليست في المعطيات التاريخية التي يصعب العثور على جديد فيها بقدر ما هي في المراجع العربية والأجنبية، التي تم تصنيفها في كل فصل وفق موضوعاتها، وفي الدراسة النقدية للمراجع

1 . موقع منتدى عربيات، تاريخ الإسلام والخلافة العربية أكتوبر 2003
2 . المجلد السادس من المجموعة الكاملة لمؤلفات ف. بارتولد، دار ناووكا (العلم) للطباعة، هيئة التحرير الرئيسة للأدب الشرقية، موسكو 1966م، ص 81 - 142
3 . المجلد السادس من المجموعة الكاملة لمؤلفات ف. بارتولد، دار ناووكا (العلم) للطباعة، الحياة السياسية والدينية في الجزيرة العربية قبل محمد، 1966، ص 83

العربية خاصة مع إبراز عدولها عن الإنصاف وعدم تقدير الاستشراق الغربي للثقافة العربية حق قدرها"¹؛ حيث إنّ بعض مؤلفات "بارتولد" في مجال الدراسات الاستشراقية تردّ على عدد من الأفكار العنصرية والاستعمارية، التي كانت سائدة آنذاك في أوساط المستشرقين، ويرى عدم إنصاف الغرب للثقافة العربية وأنّ العقل الشرقي فيه نقص وعدم شمولية، يقول "بارتولد": " إنّ تجسيد الأفكار في الحياة وتطور العملية التاريخية لا يرتبطان فقط بتطور الأفكار، فعدم ربط هذه الروابط الفكرية بالعوامل الحياتية لجمهور الشعب يجعل هذه الدراسات ناقصة وغير شاملة"²

وقد أولى "بارتولد" أهمية بالغة بدور الدين الإسلامي في توحيد العديد من القبائل والشعوب، ويرى أنّ الشعور بالوحدة قد بقي حياً حتى بعد تفكك الدولة الإسلامية الموحدة، يقول في هذا الصدد في كتابه "الحضارة الإسلامية"، "إنّ بزوغ الحضارة العربية مرتبط بظهور دين عالمي جديد، وهو الإسلام، وقوة عالمية جديدة، وهي الخلافة العربية. ولقد ضمتّ دولة الخلافة مملكة الساسانيين بأكملها ومناطق آسيا الوسطى.... كما ضمتّ الجزيرة العربية وجلّ عمالات الإمبراطورية البيزنطية ومصر وشمال إفريقيا وإسبانيا.... وتكوّن بين مختلف شعوب هذه المناطق الشاسعة رابط داخلي وثيق مبني على أساس الدين المشترك، وبقي هذا الرّابط حياً حتى بعد تفكك الدولة"³

يتّضح من ذلك أنّ "بارتولد" قد استهوته قضية الإسلام فعني بتاريخه، فأثاحت موضوعيته إمكانية رؤية المسألة بمنظار مستشرق له رؤية خاصة في هذا الشأن. كتب

1 . موقع منتدى عربيات، تاريخ الإسلام والخلافة العربية أكتوبر 2003.
2. د. مازن مطبقاتي، الاستشراق الروسي، مرجع سابق، ص 131
3. د. مازن مطبقاتي، الاستشراق الروسي، مرجع سابق، ص 137

"بارتولد" عن (الإسلام) "صوّر العلماء الأوروبيون محمّد (صلى الله عليه وسلم) مريض مصاب بالهستيريا والصّرغ، حتّى أنّهم وضعوا تسمية طبيّة لمرضه (Hysteria) (Musculanis) ، ولكن من المعروف أنّ مرضى الهستيريا والصّرغ لا يستطيعون التحرر من التردد والشغف المرضيين، ولانرى أبداً شيئاً من هذا القبيل ينطبق عليه، لا في حياته ولا في دعوته الواضحة الجليّة"¹ .

" " " "

"² ، علماً بأنّ كافّة

الوقائع، التي يذكرها " " في مؤلفاته

" " " " " "

"³

¹ . موقع منتدى عربيات، تاريخ الإسلام والخلافة العربيّة أكتوبر 2003.
² . مجلة الفكر العربيّ- بارتولد والحضارة العربيّة الإسلاميّة عدد 31.
³ . د. مازن مطبقاتي، الاستشراق الروسي، مرجع سابق، ص 132

انتخب "بارتولد" عضواً في مجمع العلوم الروسيّ ورئيساً للجنة المستشرقين،

" " " الروسيّة (Mir Islama) صدرت في

بترسبورغ عام (1912م) لكنها لم تعمّر طويلاً!"

" "

إغناطيوس كراتشكوفسكي

الأكاديمي "إغناطيوس جوليانوفتش كراتشكوفسكي" (Ignaj Julianovic)

(Krachkovski) (1883-1951م) مستشرق مستعرب روسي معروف في الأوساط

والمحافل العلميّة العربيّة "وتنتمي كتاباته إلى مرحلتين زمنيّتين من تاريخ روسيا هما:

روسيا القيصريّة ماقبل الثورة، وروسيا السوفييتيّة بعد الثورة"². ويحتلّ

"كراتشكوفسكي" مكانة خاصّة في مجال الاستعراب في روسيا ويعتبر أب مدرسة

الاستعراب الروسيّة والسوفييتيّة الحديثة، ويعدّ "مؤسساً لمدرسة الاستشراق السوفييتيّة

وصاحب دراسات متميّزة في اللغة والأدب والتاريخ العربيّ والمخطوطات العربيّة"³.

وقد كانت تربطه صلات صداقة وثيقة بالكتاب والأدباء العرب، "وكانت تدور بينه وبينهم

1. إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربيّة، بيروت، 1981م.

2. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربيّة إسلامية في الأدب الروسي، عالم المعرفة، عدد 155، الكويت، نوفمبر 1991، ص

34

3. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربيّة إسلامية في الأدب الروسي، عالم المعرفة، عدد 155، الكويت، نوفمبر 1991، ص

34

مراسلات ومناقشات على جانب كبير من الأهمية العلميّة والتاريخيّة. من أصدقائه العرب أمين الرّيحاني وميخائيل نعيمة ومحمود تيمور وجورجي زيدان وإسعاف النّشاشيبي وأحمد تيمور "باشا" وسواهم¹. ترك "كراتشكوفسكي" أبحاثاً ودراسات علميّة رائدة في مجال الأدب العربيّ القديم والحديث إلى جانب تاريخ الجغرافيا عند العرب وتحقيق وترجمة المخطوطات العربيّة والإسلاميّة، إلى جانب تدريس علوم اللغة العربيّة وآدابها والقرآن الكريم وترجمة معانيه إلى اللغة الرّوسيّة. وأشرف "كراتشكوفسكي" على تنظيم وإدارة عشرات المؤتمرات والجمعيات والحلقات والدوريات العلميّة الرّوسيّة والدّولية.

أمضى "كراتشكوفسكي" طفولته في طشقند، حيث تعلّم اللغة الأوزبكيّة ودرس اللغات الكلاسيكيّة اليونانيّة واللاتينيّة. وقد بدأ يتأثر بالشرق منذ طفولته ورغب في تعلّم اللغة العربيّة بنفسه، يقول "كراتشكوفسكي": " في سنة (1893م) دخلت المدرسة الإعداديّة "الجيمناز" (Gymnasium) في ويلنا، وأكملت دروسها في (1901م)، وكانت مدرستنا من أشهر المدارس في ولايتها من حيث ترتيبها وتاريخها، أصبحت مكتبة الكليّة مكتبة عامّة، وبقي جزء منها في مكتبة المدرسة، ولذلك رأيت فيها بعض كتب المشرقيّات كمؤلفات العلامة دي ساسي (De Sacy). وقد حاولت في الصّف الأخير أن أتعلّم اللغة العربيّة من كتابه في الصّرف والنحو المشهور، ولم يتيسّر لي ذلك لضخامة الكتاب وعدم المرشد² ويقول أيضاً: "كانت تأثراتي الأولى في صغري بما وقعت عليه عيني من المساجد والأسواق الشّرقيّة وتنوّع الأمم والطوائف واختلاف الألبسة. وكان لهذه التّأثيرات وقع شديد في نفسي أيام طفولتي. وأكبر ظنّي أنّي غدوت

¹ . مجلة الموقف الأدبي، مع المخطوطات العربيّة، اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد 114، أكتوبر، 1980 .
² . كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربيّ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة، طبعة لجنة التّأليف والترجمة والنشر، 1963، ص 1.

ميّالاً إلى الشّرق، وإن كنت غير مدرك هذا الميل الغريزي"¹ ويبدو أنّ هذه التّأثيرات أصبحت راسخة لدى "كراتشكوفسكي" فأدّت إلى حصيلة لا يستهان بها من التّراث الأدبيّ الثّمين في مجال الشّرقيات بما فيها من أدب وتاريخ وجغرافيا؛ حيث يقول " إنّ الشّرق يكون ميدان أفكاره، ولا غرابة فقد زرت الشّرق في طفولتي وكان أبداً يتمثل نصب عيني"².

التحق "كراتشكوفسكي" بكلية اللغات الشّرقية في جامعة سان بطرسبورغ، ودرس عدداً من اللغات تتضمّن "اللغة العربيّة والفارسيّة والتركيّة والتّتاريّة وبعض اللغات الساميّة كالعبرانيّة، ولا سيّما الحبشيّة القديمة التي أراد أن يتعمّق فيها، لكنّه يقول "إنّ اللغة العربيّة غلبت ضرّتها وجذبتني إليها"³. ويذكر "كراتشكوفسكي" أيضاً أنّه كان يتعلّم اللغة العربيّة من بعض شباب العرب القاطنين في روسيا وبعض المصادر الأخرى، يقول "كنت أيضاً أختلف إلى بعض أولاد العرب السّاكنين في روسيا كفضل الله صرّوف الدّمشقي المتوفى عام (1903م) وأنطون خشّاب الطّرابلسي، اللذان أخذت منهما قليلاً من اللغة العربيّة الدّارجة. ولقد أنجزت دروسي في الكلية سنة (1905م) نائلاً ميدالية الذهب مكافأة لتألّيفي عن خلافة المهدي العباسي، آخذاً عن المصادر العربيّة كالتّبري وابن الأثير والعينيّ والمسعودي وغيرهم"⁴

1 . كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربيّ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة، طبعة لجنة التّأليف والترجمة والنشر، 1963، ص 1.
2. المرجع نفسه.
3. المرجع نفسه.
4 . المرجع نفسه، ص 3

زار "كراتشكوفسكي" بلاد الشرق وتعرّف إلى العديد من أعلام الفكر العربيّ الإسلاميّ، منهم "الشيخ محمّد عبده والشيخ محمّد كرد علي وغيرهما، واهتم بالشعر العربيّ وجمع بعض المواد في العصر الأمويّ والعصر العباسيّ" ، وكتب مقالات وانتقادات وأشعار منثورة في الجرائد والمجلات العربيّة والروسية. ومن البلاد التي زارها سورية وفلسطين ومصر ولبنان؛ يقول "كراتشكوفسكي": "تعرّفت خلال إقامتي في الشرق العربيّ إلى كثير من علماء العرب وأدبائهم وصحافيّهم، ولا أنسى لطفهم وعنايتهم مدى الدهر. وكان هذا اللطف العربيّ المشهور من الأسباب التي جذبتني إلى الشرق جذبة لا أتخلّص منها ما دمت حيّاً".²

ولما عاد "كراتشكوفسكي" إلى بلاده عُيّن مديراً لمكتبة فرع اللغات الشرقية في كلية لينينجراد ومُنح شرف عضويّة العديد من الجامعات العلميّة الأجنبيّة، منها "انتخاب المجمع العلميّ العربيّ بدمشق له عضواً مراسلاً سنة (1923م) . ومن آثاره "ترجمة الشاعر أبي دحبل الجمحيّ" و"التعاويذ عند عرب الجنوب" و "تاريخ الأدب الجغرافي عند العرب"³. أما مؤلفاته العلميّة، التي بدأ كتابتها من سنة (1904م)، فكان جلّها في آداب العرب في مجالات شتى كالبحث والترجمة والشرح والانتقاد والمقال والمحاضرات والملاحظات وغيرها. يقول "كراتشكوفسكي" "إنّ دوائر أبحاثه ثلاث: الأولى منها تاريخ الشعر العربيّ ونفده منذ قديم الزمان إلى أيّامنا هذه، والثانية آداب اللغة العربيّة بين نصارى العرب، والثالثة تاريخ آداب اللغة العربيّة منذ نهضتها الأخيرة

1. د. مازن مطبقاتي، الاستشراق، مرجع سابق، ص 74
2. كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربيّ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1963، ص 4.
3. د. مازن مطبقاتي، كتاب الاستشراق، مرجع سابق، ص 73-74.

في القرن التاسع عشر، وهذا الموضوع الأخير مما أفتخر به، فإنّي أول من كتب بالروسية فيه وقلّ من كتب عنها من المستشرقين في أوروبا، لذلك قرّظ مؤلفاتي تقريباً حسناً المرحوم "مارتين هارتمان" (Martin Hartman)، الذي كان مطلعاً على أحوال العرب الأدبية بمشاهداته الشخصية والإقامة بين أظهرهم¹ ولا شك أنّ "كرانتشكوفسكي" واصل أبحاثه في الدوائر الثلاث المذكورة ونشاطاته في مجال الحضارة العربية ودراسة الإسلام ممّا جعله يتمتّع بتقدير الدوائر العلمية في كافة أنحاء العالم. علماً بأنّ إسهامات "كرانتشكوفسكي" تنتمي في تاريخ الاستشراق² إلى القرن العشرين وقد درس التاريخ الإسلاميّ على يد المستشرق فاسيلي بارتولد V. Barthold.

هناك الكثير من المؤلفات التي قدّمها "كرانتشكوفسكي" في الأدب العربيّ القديم والحديث، ولا يتسع المجال لذكرها هنا، منها أبحاثه حول الشاعر "عبد الله ابن المعتز والمتنبيء وأبو العلاء المعريّ وأبو الفرج الوأواء الدمشقي وتاريخ الأدب الجغرافي العربيّ والأندلسيّ، وغيرها من الدراسات التي شملت جميع فروع اللغة العربية وآدابها"³ – علماً بأنّ رسالة "كرانتشكوفسكي" للماجستير كتبها عن الشاعر المذكور "الوأواء الدمشقيّ" عام (1906م). "كرانتشكوفسكي"

"

1956)

1 . كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربيّ، مصدر سابق، ص 5.
2 . انظر ترجمه له بقلم أنا دولينا، " اغناطيوس كراتشكوفسكي، من تاريخ الاستشراق في الاتحاد السوفيت. " في الاستشراق.(سلسلة كتب الثقافة المقارنة) العدد 2، فبراير 1987، ص56-59.
3 . د. عبد الرحيم العطوي، الاستشراق الروسي. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص 164.

"1. ومن مؤلفاته أيضاً كتاب "من تاريخ الاستعراب الروسيّ عام 1950م"، الذي كتبه قبل وفاته بعام فقط، كما ألّف كذلك كتابين نالا شهرة عالميّة واسعة، "هما كتاب "مع المخطوطات العربيّة"، الذي تجلّى فيه موقفه من الحضارة العربيّة الإسلاميّة، فقد قدّم من خلاله موقفاً شاملاً من الشّخصيّة العربيّة الإسلاميّة ومن الحضارة والتّراث العربيّ الإسلاميّ. وقد تُرجم كتاب "مع المخطوطات العربيّة" إلى العربيّة عام (1945م)، ويحتوي على أربعين صورة فوتوغرافيّة لمخطوطات ووثائق لم يسبق نشرها من قبل. كما يحتوي على لمحات من الكتب، التي ألّفها أو ترجمها في مختلف مراحل عمره. وكتب "كراتشكوفسكي" كذلك عن "ديوان بن قزمان بـ" كتاب إصابة الأعراض في ذكر الأعراض" وهي مخطوطة فريدة محفوظة في "المتحف الآسيوي" في بطرسبورغ، وكذلك مقالته حول مخطوطة مغربيّة مجهولة المؤلف محفوظة في خزانة جامعة بطرسبورغ وعنوانها "أنس العاشق ونزهة الشائق ورياض المحبّ الوامق"² ". يقول "كراتشكوفسكي" عن المخطوطات العربيّة: "فما إن تتذكّر هذه المخطوطات أو تهتمّ بالحديث عنها، حتى تهبّ على الفور سلسلة من الأشخاص من القرون البعيدة الماضية، ومن الأعوام القريية من حياتك الخاصّة" ويقول: "المخطوطات تهمس وأنا أدقّق النّظر فيها باهتمام"³ فإنّ "كراتشكوفسكي" يقوم بعملية استحضار للماضي لوضع كلّ حادثة في ظروفها التّاريخيّة، فالمخطوطات تجعله يتحكّم في عمله

1. المرجع نفسه.

2. د. عبد الرحيم العطوي، الاستشراق الروسي. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص 182.

3. كراتشكوفسكي، مع المخطوطات العربيّة، ص 27.

بحسب ما بها من أهميّة علميّة تاريخيّة يكون لها دور تاريخيّ فعّال في تكوين الفكرة عن الآخر – وهذا هو دور الاستعراب ونتاجه المثمر.

أمّا في ما يختص بتدريس علوم اللغة العربيّة وآدابها والقرآن الكريم وترجمة معانيه إلى اللغة الرّوسيّة يقول "كراتشكوفسكي" أيضاً: إنّ "القرآن الكريم" و"الف ليلة وليلة" كانا الأثرين الكبيرين الوحيدين اللذين أمكن لأجدادنا في القرن الثّامن عشر التّعريف عليهما بالكامل¹. وقد قام "كراتشكوفسكي" بإنجاز أعمال قيّمة في مجال ترجمة معاني القرآن الكريم، التي تعتبر " ترجمة دقيقة تختلف عن التّراجم الرّوسيّة الأخرى، بكونها تعتمد الأسلوب العلميّ في التّرجمة. وقد ترك "كراتشكوفسكي" تراثاً غنيّاً يتألف من 450 من الأعمال العلميّة المختلفة. وشملت مؤلفاته دراسات وافية حول التاريخ والأدب في بلدان العالم الإسلاميّ (من مطلع القرن السّابع وحتى القرن الثّاني عشر الميلادي)، وتراجم كثيرة لأدباء عرب، وعدّة أعمال عن آثار جنوب جزيرة العرب. ولعلّ أهمّ رصيد أسهم به "كراتشكوفسكي" في علم الاستعراب، هو أنّه كان أوّل مستشرق في أوروبا قدّم إلى العالم الأدب العربيّ الحديث، وقدّم دراسات وافية عن عصر النّهضة الثقافيّة في العالم العربيّ، في فترة القرن التّاسع عشر ومطلع القرن العشرين².

وكتاب "كراتشكوفسكي" " تاريخ الأدب الجغرافيّ العربيّ"، الذي استند هذا البحث على بعض معلوماته - يتناول أدب الرّحلة وتاريخ الرّحلة والرّحالة والجغرافيين وأعمالهم، وذكر فيه أنّ تطوّر علم الجغرافيا الإسلاميّة كان نتاج جمع من الباحثين في

¹ .د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 38.
² .يوري زينين، مجلة المعرفة الأرشيفية، الاستعراب في روسيا، العدد 63، موسكو.

أنحاء العالم الإسلاميّ من الشّرق حتى الغرب، ويقول فيه: "إنّ القرآن هو جماع تلك المعارف التي حصل عليها محمّد عن طريق السّماع، وهي تمثّل نموذجاً عامّاً لمستوى الثقافة العام في هذا المجال" ¹

ترجم "كراتشكوفسكي" كتاب "الإدريسي" إلى الرّوسيّة، "وقد كان نشاطه الأساسي في الأدب العربيّ القديم، حيث كان يعرف بالأدب الجاهلي، ثم انتقل نشاطه بعد ذلك إلى التعريف بالأدب الحديث لينتقل بعد ذلك إلى التعريف بالجغرافيا العربيّة" ² ومن ضمن أبحاثه "باكورة أعماله الأدبيّة في عام (1908م) عن الشّاعر أبي العتاهية، وأعقب ذلك بنشر دراسات حول الشعراء النّعمان وبشّار بن برد وأبي نوّاس ومجموعة من الأديباء والشّعراء العرب المحدثين، مثل أمين الرّيحاني وطه حسين وجرجي زيدان ومحمود تيمور وغيرهم" ³ علماً بأنّ "كراتشكوفسكي" توفي قبل أن يشهد فترة إقامة العلاقات الواسعة مع العالم العربيّ في النّصف الثّاني من القرن العشرين؛ حيث كثرت الأبحاث في مجال الاستعراب. وتقديراً لمجهوده العلميّ وخدمته الكبرى للعلم السّوفيتي فقد "قرّر مجلس وزراء الاتحاد السّوفيتي بتاريخ 5 أبريل (1951م) وبرزديوم أكاديميّة العلوم السوفيتيّة بتاريخ 13 أبريل من نفس العام طبع "منتخبات آثار الأكاديمي أ. ي. كراتشكوفسكي"، تضمّنت هذه المنتخبات كتاب "تاريخ الأدب الجغرافي عند العرب"، فظهرت في ستّة أجزاء في الفترة بين عامي (1955 و 1960م)، وأشرف على نشرها نخبة من كبار علماء الاستشراق السّوفيتي من تلامذة العلامة الكبير وزملائه" ⁴.

1 . كراتشكوفسكي، "تاريخ الأدب الجغرافي عند العرب"، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، ص216.
2. المختارات لكراتشكوفسكي، ج 1 و ج 3.
3 . يوري زينين، مجلة المعرفة الأرشييفية، الاستعراب في روسيا، العدد 63، موسكو.
4. يوري زينين، مجلة المعرفة الأرشييفية، الاستعراب في روسيا، العدد 63، موسكو.

توفي "كراتشكوفسكي" عام 1951 تاركاً خلفه آثاراً ثمينة في مجال الاستشراق الروسيّ، وقد أكد د. عبد الرحيم العطاوي¹ قيام أكاديمية العلوم السوفيتية بطبع جلّ مؤلفاته ونشرها في ستّة أجزاء وُزعت على عدّة محاور جاءت على الشكل التالي:

المجلّد الأوّل: مع المخطوطات العربيّة، الدّراسات العربيّة والمسألة الثقافيّة عند شعوب الاتّحاد السّوفيتي.

المجلّد الثاني: الأدب العربيّ في القرون الوسطى (النثر والشعر).

المجلّد الثالث: (الأدب العربيّ الحديث)، دراسات عامّة، مميّزات الأدب العربيّ الحديث، العلاقات الأدبيّة الروسيّة العربيّة، مقالات بيبليوغرافيّة.

المجلّد الرّابع: الأدب الجغرافيّ العربيّ.

المجلّد الخامس: (تاريخ الاستشراق) دراسات حول الاستعراب الروسيّ، المستشرقون الروسيّون والأجانب (مقالات).

المجلّد السّادس: ابن المعتز، وصف المخطوطات، الكتابة العربيّة في شمال "القوقاز".

إنّ مؤلّفات "كراتشكوفسكي" ذات أهميّة قصوى يجدر بالباحثين العرب الاهتمام بها وإجراء بحوث مستفيضة ودراسات مفصّلة عنها للتعريف بهذا المستشرق الروسيّ وهذه الشخصية الفدّة وتقديمها إلى كافة المثقّفين العرب لنشرها على صعيد أوسع.

1. د. عبد الرحيم العطاوي، الاستشراق الروسي، مرجع سابق، ص 124

كريمسكي

ومن المستشرقين الروس أيضاً العلامة الأوكرانيّ "أغافانجيل كريمسكي" (A.E.Krymsky) (1871-1942م)، أحد أبرز وجوه الاستعراب الروسيّ الجديد خلال الرّبع الأخير من القرن التّاسع عشر والنّصف الأوّل من القرن العشرين، والأسّاذ في جامعة كييف، صاحب المعارف الموسوعيّة في التّاريخ والإثنوجرافيا والأديان واللغات، وقد انتعشت مسيرة الاستشراق الروسيّ في نهاية القرن التّاسع عشر على يديه، ويعود إليه الفضل في تعريف روسيا والغرب بالأدب العربيّ الحديث.

وُلد "كريمسكي" بأوكرانيا ونشأ في جوّ ثقافيّ رفيع المستوى وتلمذ على أيدي كبار الأساتذة إلى أن التحق بمعهد "لازاريف"، حيث أكمل دراسته. درس "كريمسكي" اللغات السلافيّة والعربيّة والفارسيّة في جامعة موسكو لمُدّة عامين في الفترة من (1892م إلى 1894م) وحصل بعد ذلك على منحة دراسيّة مكنته من السّفر إلى الشّرق العربيّ، فكانت تلك الفترة ذات أهميّة قصوى في مسيرته العلميّة وتعمّقه للواقع الشّرقى العربيّ في كافّة الأصعدة، فاستطاع أن يصبح، "وهو مازال شاباً، أوّل مستشرق روسيّ في اللغة العربيّة الفصحى ولهجاتها الشّرقية وفولكلور شعوبها، فألّف كتابه "القصص الشّرقية" و "عروش النّحل" في هذه الفترة"¹. مكث "كريمسكي" في كلّ من "سوريا" و"البنان" مدّة عامين في الفترة من (1896م إلى 1898م) "بقصد تعميق معلوماته في اللغة العربيّة، لكنّه لمّا وصل بيروت جعل من تعلم اللهجات العربيّة الشّرقية هدفه الأوّل، وذلك كمرحلة ضروريّة، حسب رأيه، لولوج بحر علوم اللغة العربيّة"² ويظهر

¹. د. عبد الرحيم عطاوي، الاستشراق الروسي، مرجع سابق، ص 124

². المرجع نفسه، ص 121

ذلك جلياً في مؤلفه عن تلك الفترة، التي قضاها في بيروت وهو كتاب بعنوان "رسائل من لبنان"، ترجمه إلى العربية د. محمود ضاهر باسم "بيروت وجبل لبنان على مشارف القرن العشرين"، حيث إنّ رسائله المنشورة في هذا الكتاب تعرض الكثير من أفكاره ونتائج أبحاثه العلميّة في هذه الفترة. وقد قدّم فيه عدداً من الاستنتاجات القيّمة، التي تناولت الوقائع التاريخيّة التي عايشها ورصد نتائجها في أبحاثه اللاحقة، كما حلل أشكالاً متنوّعة من مظاهر الحياة اليوميّة في سوريا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. كما استطاع "كريمسكي" في الفترة التي قضاها في البلاد الشّرقية كتابة مؤلّفين عن الشّرق، وهما كتاب "الإسلام" وكتاب "الدّيانة الإسلاميّة ومستقبلها"، ويبدو أنّ كتابته لهذين مؤلّفين نبعت من استنتاجاته حول الدّور الأساسيّ، الذي يلعبه الدّين الإسلاميّ في جميع مرافق الحياة اليوميّة في الشّرق العربيّ. وجليد بالذكر أنّ "كريمسكي" ذكر أنّ للإسلام دور كبير في توحيد العرب؛ حيث "يقول في كتابه "الدّيانة الإسلاميّة ومستقبلها": "إنّ العالم الإسلاميّ يستطيع التحرك إلى الأمام... والدّين الإسلاميّ يتوافق تمام التوافق مع العلم، شأنه في ذلك شأن الدّين المسيحيّ، وإذا قيل العكس، فإنّ هذا سوف ينطبق على المسيحيّة كذلك. ولا يجب أن ننسى أنّ الإسلام لعب دوراً أساسياً في توحيد العرب"¹

أما الجانب الآخر من تأثير تلك الفترة في نشاط "كريمسكي"، فيتعلّق باهتماماته الكبيرة، التي أولاها لجمع المخطوطات العربيّة، "فقد استطاع أن يكون مجموعة كبيرة بقيت تعرف فيما بعد باسم "مجموعة كريمسكي"، وهي التي ساعدت "كريمسكي" في السنوات الأخيرة من حياته على كتابة مؤلّفه الضّخم "تاريخ الأدب العربيّ الحديث"،

¹ .د. عبد الرحيم عطاوي، الاستشراق الروسي، مرجع سابق، ص 122.

ويشهد جميع الاختصاصيين بأهمية هذه المجموعة ودورها الكبير في تطوير المدرسة

الاستعرابية الروسية بموسكو وخارجها"¹

وكرّس "كريمسكي" حياته للعمل في مجال التدريس والبحث العلمي منذ بداية القرن العشرين، فعمل "أستاذاً للغة للعربية وآدابها في كلية لازاريف، كما عمل في نفس المجال في "قازنا" من (1898م إلى 1918م) وتولّى منصب سكرتير مجمع العلوم الأوكراني، وترأس قسم الدراسات العليا في خاركوف بعد الثورة البلشفية عام (1917م.)، واصل "كريمسكي" عمله بنجاح في العصر السوفيتي في جامعة كييف، وساهم بشكل كبير في تطوير علم الاستعراب الروسيّ والسوفيتيّ مُخلفاً بحوثاً قيّمة في تأريخ العرب والإسلام والأدب العربيّ القديم والحديث، ومنها "تاريخ العرب والأدب العربيّ (1911 - 1912)"². تابع "كريمسكي" نشاطاته في مجال الاستشراق متطرقاً أيضاً إلى الجانب الإسلاميّ، فألقى محاضرات في موسكو عام (1905م) حول القرآن وتفسير بعض السور. وفي نفس السنة طُبعت تلك المحاضرات في موسكو، ممّا يُعدّ من أهمّ الوقائع في تاريخ الاستشراق الروسيّ قبل الثورة الاشتراكية"³. كما له ترجمات لكثير من المؤلفين العرب.

من آثار "كريمسكي" كتب مدرسية عديدة وكتاب "الأدب العربيّ الحديث في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر" في موسكو عام (1906م)، وكتب في مجال السنّة والسيرة "العالم الإسلاميّ ومستقبله، (1889م)، " من عروة إلى ابن إسحاق مع ابن هشام"، و"تاريخ الإسلام" - في جزأين (1904م) - وتحتوي الفصول الأربعة الأولى من

¹ .د. عبد الرحيم عطاوي، الاستشراق الروسي، مرجع سابق، ص 124.
² .كريمسكي، من إصدارات معهد لازاريف للغات الشرقية، الإصدار 13، موسكو، مطبعة فارواري، غاتسوك، 1902م.
³ .د. المير رفائيل كوليف، جريدة الرؤية، رئيس التحرير سعود مطلق السبيعي، 9 سبتمبر، 2008.

كتاب " تاريخ الإسلام " على دراسات ومقالات لـ "كريمسكي" إلى جانب ملحق بقلمه حول المراجع والكتب المساعدة لدراسة سيرة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، وكتب عن "القرآن والسنة والأحاديث" في الفصل الخامس، إلى جانب ملحق حول "مراجع الفقه الإسلامي"¹. وتحت عنوان السنة (الأحاديث)، ورد موضوعان أحدهما عن "تاريخ السنة"² والآخر عن "تاريخ العرب والأدب العربي"³، ومن محتويات الكتاب العناوين "محمد" ويتضمن "سيرة محمد" و "تاريخ محمد"، و"الإسلام" ويتضمن أيضاً "نبذة حول دين محمد (الإسلام)" و"كتب حول العلوم الإسلامية" و "دين الإسلام وعبادة الله"⁴. وقام "كريمسكي" بترجمة "ألف ليلة وليلة" بمقدمة إضافية في موسكو عام (1904م) (وكتب عن ديوان الحماسة لأبي تمام في عام (1912م) وأبو فراس الحمداني والمتنبي عام (1914م)⁵.

تاريخ الأدب العربي الحديث

"

"

"⁶

1. جهود الاستشراق الروسي في مجال السنة والسيرة، د. سليمان بن محمد الجار الله، دراسة بليوغرافية، الإصدار 12، 1903، ص 15.
2. المرجع نفسه، ص 145-158.
3. المرجع نفسه، الإصدار 15، الجزء الثاني، 1912م.
4. موقع مركز المدينة المنورة لدراسات وبحوث الاستشراق، د. سليمان بن محمد الجار الله، جهود الاستشراق الروسي في مجال السنة والسيرة. الصفحات 71 – 196.
5. أ. د. سعدون محمود الساموك، الاستشراق الروسي، مرجع سابق، ص 120 .
6. أ. د. محمد البخاري، آفاق دراسات الأدب الشعبي العربي (الفلكلور) في أوزبكستان، طشقند، 2008.

)

.(

الحضاري للشعوب العربيّة الإسلاميّة من خلال تعاون العلماء الرّوس مع العلماء العرب ومساهمة العرب أنفسهم في التعريف بالتّقافة العربيّة الإسلاميّة. والاسْتشراق الرّوسيّ ساهم في معرفة التّقافة العربيّة وحضارتها وفهمها ونشرها من خلال دراسة المصادر الأساسيّة، التي شكّلت التّاريخ العربيّ الإسلاميّ وثقافته بتجليّاتها المتعدّدة، مما أدّى إلى معرفة وتقريب شخصيّة العربيّ المسلم إلى المجتمعات الأخرى، إلى جانب تقديم العديد من المواد عن الشّرق العربيّ والترجمات لمؤلفات عربيّة أثّرت على عديد من الكتاب، من بينهم تلك النّخبة التي تمّ اختيارها في هذا البحث، والتي تستحقّ أن ترصد لها دراسات مستقلّة ومفصّلة؛ فهذه إشارات سريعة لا تعطي فكرة واضحة عنهم، فهم جديرون بالبحث والدراسة للتعريف بهم وبنشاطاتهم المختلفة.

المبحث الثالث

الحوار العربيّ الروسيّ

تقيم المنظمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم، بالتعاون مع معهد الاستشراق بموسكو، التابع للأكاديمية الروسيّة للعلوم، حواراً عربيّاً روسيّاً يستند إلى علاقات راسخة في عمق التاريخ بين الحضارتين العربيّة والروسيّة. وقد كانت تلك العلاقات إيجابية ومتميّزة على مر العصور ، منذ اكتشاف الرحالة العرب لشعوب المنطقة، والاطلاع على أحوالها، ونقل صورة عنها من القرن الثامن للميلاد، وحتى المرحلة المعاصرة.

ونظراً إلى أنّ الثقافات هي الجسور الصلبة، التي تستند إليها السياسات، وهي التي تحافظ على الروابط والمكاسب وتنمّيها وتعزّزها ، "فقد رأت المنظمة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم أنّ قيام حوار ثقافيّ حضاريّ بين الثقافتين العربيّة والروسيّة سوف يسهم بقوة في دفع هذه العلاقات وضمان استمرارها ونموها. وانطلقت بوادر هذا الحوار عند توقيع مذكرة تفاهم، يوم 9 مايو (2001م) بتونس، بين المنظمة ومعهد الاستشراق التابع للأكاديمية الروسيّة للعلوم بموسكو، نصت على تعاون الطرفين من أجل إقامة معارض وندوات للتعريف بالحضارتين وتعميق الحوار بينهما، فضلاً عن عقد دورات تدريبيّة وتبادل للمعلومات والزيارات والمطبوعات والبحوث والخبرات وعقد مؤتمرات دولية دوريّة في روسيا والدول العربيّة تحت عنوان "الحوار العربيّ الروسيّ

في القرن الواحد والعشرين" ، بين "منظمة الألكسو"¹ ومعهد الاستشراق بموسكو بمشاركة كبار العلماء ورجال الثقافة العرب والروس².

تنفيذا لهذا البند، عقدت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم حلقات من "الحوار الثقافي العربي الروسي في القرن الحادي والعشرين" احتضنتها مدينة الحمامات التونسية لأول مرة في الفترة من 23 إلى 25 يونيو (2003م)، وكان شعارها "تفاعل حضارتين وتاريخ من العلاقات المتبادلة". عملت هذه الندوة، من خلال محاورها العلمية، على "تحديد الخلفيات التاريخية للعلاقات العربية الروسية، ودور الاستشراق الروسي في التقريب بين الثقافتين، والتأثيرات المتبادلة بينهما، كما عملت على تحديد مقومات الحوار الثقافي العربي الروسي واستشراف آفاقه المستقبلية، وكان كل ذلك من خلال حوالي ثلاثين مداخلة قدمتها نخبة من الجامعيين والمتقنين والمبدعين العرب والروس. شارك في الندوة من الجانب الروسي عدد من الباحثين في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية بفرعيه موسكو وسان بطرسبورغ. أما من الجانب العربي فقد شارك في الندوة مفكرون وجامعيون ومبدعون من الأردن وتونس والجزائر والسودان وسوريا وفلسطين والكويت ولبنان ومصر والمغرب، إلى جانب اتحاد الكتاب والأدباء العرب"³

تناولت الندوة عدّة محاور كان من بينها "الخلفيات التاريخية للعلاقات

العربية الروسية، التي تناول فيها الجانبين الروسي والعربي طبيعة العلاقة التاريخية التي

1. منظمة الألكسو هي المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والمدير العام لهذه المنظمة هو الدكتور المنجي بو سنيينة.
2. موقع منظمة الألكسو <http://www.alecso.org.tn/index.php?o...id=395&lang=ar>.
3. المرجع نفسه.

جمعت بين الثقافتين العربيّة والرّوسيّة والدّور الذي لعبه الدّين الإسلاميّ في روسيا. وقد تطرّقت النّدوة إلى بدايات الاستشراق والعوامل التي ساعدت على ذلك، ومن ضمنها رحلة "أحمد بن فضلان" وما لها من أثر في انتشار الإسلام والاستشراق الرّوسيّ. وقد أولى المستشرقون الرّوس اهتماماً بالغاً إلى خصوصيّة الحضارة الرّوسيّة واتّصالها بالشّرق"¹.

ويبدو ممّا سلف أنّ رحلة "ابن فضلان" كانت من العوامل المساعدة التي أدّت إلى انتشار الإسلام والاستشراق الرّوسيّ إلى جانب العوامل العديدة الأخرى، التي لا يتّسع المجال لذكرها في هذا البحث.

1. موقع منظمة الألسكو <http://www.alecso.org.tn/index.php?o...id=395&lang=ar>

المبحث الرابع

مؤثرات ثقافية عربية إسلامية على روسيا

هناك مؤثرات حضارية أخرى ساهمت في معرفة الروس بالشرق ودين الإسلام، فقد ازدهر التبادل التجاري والحضاري بين بلاد الشرق وروسيا مما ساعد على نشر الثقافة العربية والإسلامية. ورغم أن التأثير الإسلامي العربي في الفترات السابقة للقرن التاسع عشر، الذي ظهر فيه تأثير القرآن الكريم والأدب الشرقي على الأدب الروسي، كانت غير محددة ولم تظهر للعيان بشكل واضح، إلا أن ذلك التأثير كان واضحاً في القرن التاسع عشر. تشير إلى ذلك الدكتورة المتحدثة باسم الباحثين المصريين عميدة كلية الألسن بمصر وأستاذة الأدب الروسي مكارم الغمري، تقول: "وإذا كان القرن التاسع عشر بالنسبة للأدب الروسي هو ذلك العصر الذي انعكس فيه هذا التأثير بشكل جلي، فإن هذه المرحلة سبقتها مرحلة أخرى من التلقي والاستيعاب تبدأ في القرن التاسع الميلادي وتمتد حتى القرن التاسع عشر، وعلى امتداد هذه القرون تمت عملية اكتناز للعناصر العربية "حضارية وإسلامية" وهي العملية التي مهدت لحدوث أهم حلقة في حلقات التفاعل الحضاري "التأثير والتأثر" والتي اتضحت بشكل خاص في إنتاج الحركة الرومانتيكية الروسية"¹

وتواصل الدكتورة مكارم الغمري حديثها عن المراحل التي مرت بها عملية

التفاعل الحضاري بين العناصر العربية والأدب الروسي وتقسّمها إلى ثلاث مراحل:

1. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 31.

* المرحلة الأولى: الاستقبال والتلقي من خلال الوسائط التالية:

العلاقات التجارية.

الرحلات: زوار الأماكن المقدسة المسيحية في فلسطين، الرحالة، البعثات

الدبلوماسية.

الاستشراق العلمي.

الترجمات.

الصحافة.

* المرحلة الثانية: الاستيعاب:

تفاعل بين العناصر العربية وظروف القرن التاسع عشر واحتياجات تطوّر

الأدباء الروس.

* المرحلة الثالثة الانعكاس والتأثير:

تأثير واضح في أدب القرن التاسع عشر وبخاصة في إنتاج أدباء الحركة

الرومانتيكية¹.

1. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 32.

وقد "قسم العالم الروسيّ" "كرانتشوفسكي" هذه الفترة في كتابه "دراسات في تاريخ الاستعراب الروسيّ" إلى عدّة محاور وهي: محور لغويّ ومحور تاريخيّ ثقافيّ أو محور دينيّ إسلاميّ ومحور أدبيّ صرف¹. ويتضمّن المحور الأوّل ما نقله الرّوس من ألفاظ عربيّة من خلال العلاقات التجاريّة بين روسيا ودولة الخلافة العربيّة، التي بدأت منذ القرن التّاسع الميلاديّ. فلا توجد سوى بعض الأخبار المتفرّقة حول بعض العرب الذين أقاموا في روسيا مدة طويلة، كأخبار حول خياط بغداديّ ماهر في القرن العاشر الميلاديّ، أو أخبار طبيب عربيّ يدعى "بطرس سيريانين" أو (بطرس السوري)، الذي اشتهر خلال القرن الثّاني عشر عندما كان يسكن مدينة "كليف" الروسيّة، التي كانت تُعرف عند العرب آنذاك باسم "كويب"، فاستعار الرّوس كلمات كانت تدخل اللغة الروسيّة عن طريق لغات أخرى كالتّترية ولغات شعوب آسيا الوسطى والقرم، التي كانت تدين بالإسلام، وبالتالي كانت لها علاقات دينيّة وثقافيّة وتجاريّة متينة مع العالم العربيّ، ف لعبت دور الوسيط بين الرّوس والعرب في المجالين الثقافيّ والتّجاريّ².

التّجارة إذن كان لها باع كبير كأقدم أشكال الوسائط، التي ساعدت في انتقال مفردات اللغة العربيّة إلى الرّوس، والتي ترجع بدايتها إلى القرن التّاسع الميلاديّ. ويلاحظ المؤرّخ الكبير "بارتولد" (Barthold) في هذا الصّدّد أنّ "وجود العملات العربيّة الفضيّة في روسيا كان يعني التّفوق الحضاريّ العربيّ آنذاك على دولة روسيا القديمة؛ فقد كان من عادة الشّعوب ذات الحضارة الأرقى مقايضة بضائع الشّعوب الأدنى

1. د. مازن مطبقاتي، الاستشراق الروسي، مرجع سابق، ص 48 (بتصرف).
2. د. عبد الرحيم العطوي، الاستشراق الروسي، مرجع سابق، ص 49 (بتصرف).

حضارة بالتقود، ذلك لأنّ منتجات الصناعة لدى الشّعوب الأكثر حضارة لم تكن تفي باحتياجات هذه الشّعوب ولا تتناسب مع درجة رخائها الاقتصادي¹

أمّا المحور الثاني، الذي يتعلق بالتاريخ، والذي ذكره العالم الروسيّ "كرانتشوفسكي"، فهو المصدر الخاص باللاهوت، الذي كان الروس يأخذون منه المعلومات حول الدّين الإسلاميّ. وقد بدأ تداول كتب اللاهوت والمراجع التاريخيّة اليونانيّة في روسيا في القرن الحادي عشر، غير أنّها لم تكن تعطي صورة حقيقيّة عن العرب والمسلمين، فكتاباتهم – حسب "كرانتشوفسكي" – كانت عبارة عن تشويه وتحريف للحقيقة الدّينيّة والتاريخيّة والحضاريّة. وكذلك، نسبة لما يكنه الروس من كراهيّة للشعّب التتري ومن خلاله للإسلام وجبرأتهم المسلمين، أصبح مصير دراسة الدّين الإسلاميّ مشوّهاً على يد الروس².

والمحور الثالث، الذي تعرّف من خلاله الروس على العرب، حسب ما يرى "كرانتشوفسكي" في كتابه، يتمثّل في المؤلّفات الأدبيّة العربيّة كالشعر والرواية وحتّى العلوم، التي كانت تصل إلى الروس عن طريق لغات أخرى كاليونانيّة، فتعرّف على الفارابي وعلى الغزالي وغيرهما ونشر المستشرق "كانتيمر" بحثاً أسماه "ظروف النشأة التاريخيّة لمحمّد" وكان القصد منها تعريف القيصر الروسيّ بالإسلام³.

رغم أنّ معظم المصادر التاريخيّة تشير إلى أنّ "الخطوات الأولى للاستشراق في روسيا قد بدأت في الرّبع الأوّل من القرن الثامن عشر، حيث أخذ يظهر بصورة

1. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربيّة إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص. 33.

2. المرجع نفسه، ص 53 (بتصرف).

3. د. سهيل فرح، الاستشراق الروسي، نشأته ومراحله التاريخيّة، مجلة الفكر العربيّ، 232.

واضحة عن طريق تأسيس أكاديمية العلوم في بطرسبورغ عام (1724م)¹ إلا أن القرن التاسع عشر حظي بالتصيب الأكبر في فرصة الاستشراق وإرساء اللغات الشرقية في روسيا وبخاصة اللغة العربية، " فمع بداية القرن التاسع عشر وفي عام (1804م) صدر "ميثاق الجامعات" الذي افتتح عهداً جديداً في حركة الاستشراق في روسيا. فقد أدرج لأول مرة وبشكل منهجيّ تدريس اللغات الشرقية في برنامج المدرسة العليا وحُصص لها قسم خاص. وإثر صدور الميثاق بدأت تتأسس تبعاً أقساماً للغات الشرقية وعلى رأسها العربية في مدن روسيا المختلفة، وفي مقدمتها بطرسبورغ (ليننجراد) التي صارت مركزاً للاستشراق الروسي²

ميثاق الجامعات

نشأت مدرسة الاستعراب الروسية في مطلع القرن التاسع عشر حين ظهرت أولى الدراسات في لغة وآداب تاريخ العرب. ثم ظهر "ميثاق الجامعات" في عام 1804م ، " وهو ينصّ على افتتاح أقسام لدراسة لغة وآداب تاريخ العرب وتدريس اللغات الشرقية، ومنها اللغة العربية، وإدخالها في مقرر التعليم العالي. وظهرت أولى هذه الأقسام في جامعات خاركوف وقازان وموسكو. ولم يبدأ تدريس اللغة العربية في جامعة بطرسبورغ عاصمة الامبراطورية الروسية آنذاك إلا في عام 1819م³.

1. د. مجيد حمد عارف، الاستشراق الروسي والأثنوغرافيا، مجلة الاستشراق، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، العدد الثالث، 1989، ص 130.

2. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، ص 36.

3. يوري زينين، الاستعراب في روسيا، مجلة المعرفة الأرشفية، العدد 63، موسكو.

بظهور "ميثاق الجامعات" أدرجت السلطات الروسية اللغة العربية في مناهج المعاهد العليا، بدأت جامعة خاركوف تدريس العربية، "وعينت بيريندت" (Berdent) أول أستاذ لها. ومنذ ذلك الحين والدراسات العربية تلقى العناية إلى جانب الفارسية والتركية وغيرها. وكان من الطبيعي أن تُعنى هذه الجامعات بإنشاء مكاتب لإعانة الأساتذة والطلبة معاً. ومن بين أهم هذه المكاتب مكتبة جامعة بطرسبورج، التي أنشئت إثر إنشاء جامعة بطرسبورج سنة 1819م، وكان "ديمانج" (Demanj) أول أستاذ للعربية فيها، وقد كان تعلم اللغة العربية فيها يستغرق أربع سنوات، يتلقى الطالب خلالها معلومات كثيرة ويحفظ سوراً من القرآن الكريم وقواعد العربية وأمثلة لقمان ومختارات من "كليلة ودمنة" ومعلقة لبيد العامري ومقامات الحريري وغيرها¹

وبما أن ثلثاً أراضي روسيا يمتدّ في آسيا، فقد كان من المفهوم أنّ ظهور "ميثاق الجامعات" يرجع إلى حاجات روسيا العلميّة، وبما أنّ بعض مناطق الإمبراطوريّة الروسيّة، مثل القوقاز وآسيا الوسطى، كانت ترتبط على مدى القرون بالعالم العربيّ والإسلاميّ، وغالباً ما كانت لغة القرآن الكريم هي لغة التّخاطب بين شعوبها، فقد زاد ظهور ذلك الميثاق من توطيد الثقافات الشّرقيّة العربيّة في روسيا.

1. د. جليل العطية، نوادر المخطوطات العربية في مكتبة "بطرسبرج" الروسية، موقع الوراق، مايو 2008

المبحث الخامس

نشأة الترجمة الروسية

(أ) الترجمة داخل روسيا من وإلى الروسية

لقد اهتمت روسيا بالشرق العربي اهتماماً كبيراً منذ القرن العاشر، وازداد الاهتمام في ذلك الشأن في شتى المجالات. ومن ضمن ذلك كان للترجمة بالشرق العربي نصيب، فقد "نشطت في القرن الحادي عشر حركة الترجمة في روسيا، وخاصة من اللغتين الإغريقيّة واللاتينيّة إلى الروسية. وقد ترجمت الكثير من الأعمال العربيّة إلى اللغة الروسيّة من هاتين اللغتين، ودخلت إلى اللغة الروسيّة كثير من الكلمات العربيّة، التي ما زالت تستخدم حتى الآن. ويذكر مؤرخو الاستشراق أنه كتب عن العرب والإسلام الكثير من المؤلفين الروس، من بينهم كلٌّ من جرين وكروبسكي وبيرسنيف".¹ ذكرت الدكتورة مكارم الغمري عن ذلك أنه "تمّ في روسيا إنجاز ترجمة تتناول وصف مدينتي مكة المكرمة والمدينة المنورة تتخللها مقتبسات من السيرة النبوية، وقد ازداد عدد المؤلفات التي كانت تبحث في الفكر الإسلاميّ في القرون الخامس عشر إلى السابع عشر، وكانت هذه المؤلفات تتضمّن شرحاً للإسلام ووصفاً للأقطار الإسلاميّة وبخاصّة الواقعة على حدود روسيا الشّرقية والجنوبيّة"²

1. مالك صفور، بوشكين والقرآن، دمشق، دار الحارث، 2000 (بتصرف).
2. المرجع نفسه، ص35.

ومن المؤلفات التي تمّت ترجمتها أيضاً المؤلفات اليونانية الأولى المنقولة إلى اللغة الروسية، بحسب "كراتشوفسكي"، ومنها "مدونة" جريجوري أمارطول" (Grigori Amartol) ، التي ألفت في القرن التاسع الميلادي وُترجمت إلى اللغة السلافية القديمة في القرن الحادي عشر، وهي تشتمل على كثير من المعلومات حول القبائل العربية إبان ظهور الإسلام وقبله. ويذكر مؤلفها النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ويسميه "بوخميت" (أو موخميت). وأهم ما يسترعى البال هو أنّ هذا الاسم يختلف في الترجمة الروسية ويقترب كثيراً من حيث نطقه إلى الاسم العربي الأصلي. فهو في هذه الترجمة "مخمد" وليس "بوخميت"، ولولا عدم وجود حرف الحاء في اللغة الروسية لكان هذا الاسم ينطق تماماً كما هو في الأصل العربي¹ وكلّ هذه المعلومات تثبت وجود علاقات قديمة مباشرة بين الروس والعرب قبل القرن الحادي عشر. كما أنّ رحلة "ابن فضلان" ورسالته، تعتبر من أوّل العلاقات التي كان لها الأثر المباشر بين العرب والروس.

أصبحت "مدونة أمارطول" بعد ترجمتها المصدر الأساسي لعدد كبير من الكتابات الروسية، التي تناولت بالدرس موضوع الإسلام والمسلمين. ومن الحكايات العربية، التي ترجمها البيزنطيون من العربية إلى اليونانية خلال القرن الحادي عشر كتاب "كليلة ودمنة" تحت عنوان "ستيفان وإخنلات"، ثم انتقلت إلى اللغة السلافية القديمة في القرن الثالث عشر. ولما بدأت حركة ترجمة الكتب الأوربية الغربية في القرن الثامن عشر، نقل الروس هذا الكتاب من اللغة الفرنسية، ولم يعد أحد في هذه الفترة

1. د. عبد الرحيم العطوي، الاستشراق الروسي، مرجع سابق، ص 52.

المتأخرة يعلم بأنّ هذه الحكايات ليست سوى قصص "كليلة ودمنة" التي كانت شهرتها
ذائعة قديماً في روسيا الموسكوفية¹

لا يتّسع المجال للحديث بالتفصيل عن كلّ التّرجمات الهامة التي سجّلها الأدب
كمراجع للأجيال، مثل كتاب "وصف مملكة الجزائر وتونس"، وهو ترجمة لكتاب طبع
أصلاً باللغة اللاتينية في ليدن عام (1634م)، وكتاب "بلاط السلطان التّركي" لمؤلفه
"ستاروفولسكي" (Starovolskiy) ، الذي يُعتبر أوّل مفكّر كتب عن سيرة العالم
"كوبيرنيك" (Copernic) ولقد طُبِع هذا الكتاب في مدينة "كراكوفيا" سنة (1646م)
وتُرجم فيما بعد إلى اللغة الرّوسية. وكتاب "وصف فلسطين" لمؤلفه "أنسليم
كراكوفسكي" (Krakovsky). طُبِع هذا الكتاب باللاتينية عام (1512م) وتُرجم سنة
(1595م) إلى البولونية، ثم إلى الرّوسية خلال القرن السّابع عشر². والجدير بالذكر أنّ
ترجمة القصص العربيّة إلى الرّوسية واقتباسها كانت منتشرة في تلك الفترة البعيدة "
وشكّلت أرضيةً لعدد كبير من الحكايات الشعبيّة. أمّا الكتب الأدبيّة الكلاسيكيّة، فإنّها
كانت شبه مجهولة في تلك الفترة ولم يصل منها لروسيا سوى القليل، ككتاب "أمثال لقمان
الحكيم"³

ومن التّرجمات الرّوسية الدّائعة الصّيّة، التي لا بدّ من التّطرّق إليها في هذا
المجال، ترجمة "ألف ليلة وليلة"، التي أنجزها "غالان" عن التّرجمة الفرنسيّة ثم إلى
الرّوسية، والتي جذبت عدداً كبيراً من أنظار القراء وجمهور المثقّفين الرّوس، وظهرت

1. د. عبد الرحيم العطاوي، الاستشراق الروسي، مرجع سابق، ص 55 .
2. المرجع نفسه، ص 54.
3. كراتشوفسكي، "دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي"، ص 32-33.

أول طبعة لها في موسكو في إثني عشر جزءاً (1763- 1771م)، وقد لقيت هذه الترجمة- بحسب "كراتشوفسكي" - نجاحاً يشهد عليه إعادة طباعتها أربع مرات متوالية على امتداد أربعين عاماً. وقد أكد "كراتشوفسكي" "أنّ قصص "ألف ليلة وليلة" و "القصص الشّرقيّة" كانت أكثر الضروب الأدبيّة المحبّبة في أدبنا في نهاية القرن الثّامن عشر وبداية القرن التّاسع عشر" 1

إلى جانب ترجمة "ألف ليلة وليلة" توجد ترجمات أخرى حازت إقبال الطّبقات الرّوسيّة المتقفّة والقراء، من بين تلك التّرجمات تذكر الدّكتورة مكارم الغمري أنّه ترجمت إلى الرّوسيّة "روائع الأدب الغربي التي تستلهم الشّرق، مثل كتاب "شاتوبريان" (Chateaubriant) "رحلة من باريس عبر مصر والمغرب وإسبانيا"، وهو الكتاب الذي تُرجم إلى الرّوسيّة عام (1815م) وحاز شهرة كبيرة في الأوساط الثقافيّة في روسيا في النّصف الأوّل من القرن الماضي. كذلك حازت التّرجمة الرّوسيّة للديوان "الغربي- الشّرقي" للأديب الألماني جوتة انتشاراً كبيراً لدرجة أنّ اسم بطلته "زُليخة" العربيّة أصبح شائعاً في المؤلّفات الأدبيّة الرّوسيّة التي تستلهم الشّرق، وبخاصّة فترة النّصف الأوّل من القرن التّاسع عشر. كذلك حازت أسماء "فاطمة" و "إيلي" إعجاب الأدباء الرّوس، فنجد "اليرمنتوف"، مثلاً ، يقتبس الاسم العربيّ "إيلي" في مؤلّفه "الحاج بريك"2، وبالتالي يكون ذلك من ضمن التّأثيرات والمؤثرات التي نحن بصدها في هذا البحث، والتي أدّت إلى ظهور الطّابع الشّرقي في مؤلّفات الأدباء الرّوس، ومن بينهم "اليرمنتوف".

1. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربيّة إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 49 (بتصرف).
2. المرجع نفسه ، ص 50.

كما أنّ إسهام الصحافة الروسيّة في الترويج للشرق وثقافته وظهور بعض الدوريات الشرقيّة كان له دور فاعل في نشر التعريف بالشرق. من هذه الدوريات مجلة "تلغراف موسكو"، التي تناولت الدراسات الشرقيّة وأسهمت في تطوير حركة الترجمة - أيضاً من خلال تقديمها لنماذج من تراجم الشعر العربيّ، التي كانت تترجم في بداية القرن الماضي في شكل نثر، ثم مع بداية الثلاثينيات بدأت تظهر محاولات لترجمات للشعر العربيّ في قالبه الشعريّ.¹ إنّ اهتمام مجلة "تلغراف موسكو" بالتعريف بالشرق يرجع إلى اهتمام رئيس تحرير هذه المجلة "بوليفوي" بالشرق العربيّ ووضعه للموضوعات العربيّة المتنوّعة ومختارات من أدب الرّحالة وتحليلات لأعمال المستشرقين ومختارات من الأدب العربيّ، وبخاصّة "ألف ليلة وليلة"، إضافة إلى ترجمات للأقوال العربيّة المأثورة وقصائد "امرؤ القيس" و "زهير" و "عنتره"، التي كان يتمّ إنجازها من خلال لغات وسيطة. وقد استمرّ صدور المجلة لمدّة عشر سنوات كان لها أكبر الأثر في ترويج الأدب العربيّ في روسيا في مطلع القرن التاسع عشر²

(ب) الترجمة من الروسيّة إلى العربيّة

ترجم العرب الأدب الروسيّ في العشرينات الأولى من القرن العشرين من اللغات الأوربيّة الحيّة، وأساساً من الفرنسيّة والإنجليزيّة إلى اللغة العربيّة. ومنذ الثلاثينات والأربعينات ترجم العرب الأدب الروسيّ من اللغة الروسيّة، والسبب في ذلك

1. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربيّة إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 51.
2. المرجع نفسه، ص 50.

هو أنّ الكنيسة الأرثوذكسية الروسيّة، التي لها أملاك وأوقاف كثيرة وكنائس في القدس، أقامت شبكة من المدارس لتدريس اللغة الروسيّة التابعة للكنيسة الروسيّة في القدس ولبنان وسوريا وغيرها. تخرّج من هذه المدارس أدباء كبار نذكر منهم على سبيل المثال "ميخائيل نعيمة"، الذي درس الأدب باللغة الروسيّة في بولتافا بأوكرانيا، إلى جانب أدباء آخرين، حيث بدأت بعد ذلك الترجمة من الروسيّة إلى العربيّة.

وعندما جاء عهد الاتحاد السوفيتي وتخرّج عدد كبير من الطلبة العرب في الجامعات الروسيّة في مختلف البلدان، دخلت الترجمة من اللغة الروسيّة إلى العربيّة مرحلة جديدة وبصورة واسعة وكبيرة.

ترجمة القرآن الكريم

يتضح من المصادر التي تتطرق لتاريخ الاستشراق في روسيا أنّ المستشرقين لم يكتفوا فقط بترجمة المؤلفات الأدبية؛ بل إنّ ترجمة القرآن الكريم كانت تحتلّ مكان الصدارة بين التّجمات الروسيّة عن العربيّة. وبحسب ما ذكرته الدكتورّة مكارم الغمري، فإنّ التّجمات تشغل مكانة هامّة بين أنواع الوسائط، التي تمّ من خلالها استقبال مفردات التراث الرّوحي والحضارة العربيّة في روسيا. ويؤكد المستشرق "كرانتشوفسكي" "على أنّ "القرآن الكريم" و"ألف ليلة وليلة" كانا الأثرين الكبيرين الوحيدين اللذين أمكن لأجدادنا في القرن الثامن عشر التّعرف عليهما بالكامل"¹

1. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 46.

تُرجم القرآن إلى اللغة الروسية مرّات عديدة من قِبَل مترجمين مختلفين "وكانت التّرجمات المبكّرة للقرآن الكريم تتمّ من خلال لغات أوروبية وسيطة، ثمّ أمكن بعد ذلك ترجمته إلى الروسية عن الأصل العربيّ بعد تكوين كوادر المترجمين الروس الدّارسين للعربية"¹

ويبدو أنّ اهتمام روسيا بالإسلام كان اهتماماً سياسياً قبل كلّ شيء ويدخل في إطار صراعها مع الدّولة العثمانية، فقام "المستشرق" "كانتيمير" (Kantmir) بإدخال حروف الطّباعة العربية إلى البلاد في بداية القرن الثّامن عشر. وفي نفس الوقت تقريباً ظهرت أوّل ترجمة روسية كاملة للقرآن الكريم في عهد القيصر بطرس الأكبر "بيتر العظيم" ، قام بها المستشرق "بيوتر بوسنيكوف" (Bosnikov) في سنة (1716م) عن التّرجمة الفرنسيّة التي قام بها "دي يوري" (De Yuri) في عام (1647م)، وصدرت ترجمة "بوسنيكوف" (Bosnikov) تحت عنوان "القرآن ومحمّد أو قانون تركيا" ، ومرةً أخرى يطلّ الدّافع السّياسي وراء هذه التّرجمة. وكانت التّرجمة الثانية عام (1790م) وهي "الفيروفكين" (Verovkin) ، الذي نقلها عن نفس التّرجمة الفرنسيّة المذكورة، أما الثالثة فقد كانت عام (1792م)، وهي "لكولماكوف" (Kolmakov) ، الذي أنجزها إنطلاقاً من ترجمة "سالي" (J. Sale) الإنجليزيّة². وهناك ترجمات أخرى تلت تلك التّرجمات، "حيث تعدّ ترجمة "بوكوسلافسكي" (D. N. Boguslavsky) في عام (1871م) للقرآن إلى اللغة اللاتينية، التي أتمّها خلال مكوثه في الشّرق، من المحاولات المبكّرة والتي كانت تمتاز بالدقّة العالية والمزايا الأدبيّة

1. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 46.
2. د. عبد الرحيم العطوي، الاستشراق الروسي، مرجع سابق، ص 277.

الفريدة، ممّا جعلها وقتذاك تحظى بتثمين نقاد مرهفي الحسّ والقلم أمثال "روزين" (Rosen) و"كرانتشوفسكي"، على الرّغم من أنّ هذه التّرجمة لم تنشر وما زالت مخطوطة¹. ويقول بعض الباحثين أنّ "المستشرق القازاني" سابلكوف" (Sabloukov) قد قدّم ترجمة كاملة للقرآن عن العربيّة، وجاءت الطّبعة باللغتين: كل صفحة من الأصل العربيّ تقابلها صفحة بترجمة معانيها إلى الرّوسيّة. وفي نهاية القرن الثّامن عشر، أمرت القيصرية "كاترينا" (Katerina) في إطار برنامجها الدعائي بطباعة القرآن الكريم باللّغة العربيّة في نسخ كثيرة وتوزيعه على السّكان المسلمين في روسيا، وكانت تأمل في الاعتماد على القرآن الكريم في أهدافها السّياسيّة وحروبها مع تركيا².

ومن التّرجمة اللاتينيّة التي تمّت على يد بطرس المبجّل "توالت عدّة ترجمات لها مع عصر النّهضة الأوربيّة؛ حدث ذلك حينما ظهرت الحاجة لترجمة القرآن للّغات الأوربيّة، التي أصبحت لغات قوميّة مستعملة بدلاً من اللاتينيّة في العديد من البلاد الأوربيّة. وتوالت التّرجمات إلى اللّغات الإيطاليّة والفرنسيّة والألمانيّة والهولنديّة والإنجليزيّة وغيرها. كما كانت هناك جهود أخرى في ترجمة القرآن اعتمدت على المستشرقين الدّارسين للغة العربيّة"³، و يبدو أنّهم استرشدوا فقط بالتّرجمة اللاتينيّة ولكنّهم بذلوا جهدهم الخاص ومعرفتهم باللّغة العربيّة في إخراج ترجماتهم.

ازدادت طباعة المؤلّفات الدّينيّة ووسع انتشارها عندما "صدر أمر في 5 ديسمبر(1800م) برفع القيود المفروضة في روسيا آنذاك على طبع الأدبيّات الدّينيّة

1. د. عبد الرحيم العطاوي، الاستشراق الروسي، مرجع سابق، ص 279.

2. المرجع نفسه، ص 279

3. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربيّة إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 46.

الإسلامية، وذلك عندما ازداد الاهتمام بالشرق العربي في القرن الثامن عشر، وافتتحت في "قازان" أول مطبعة إسلامية في عام (1802م)، وظهرت ترجمتان جديدتان للقرآن الكريم بالروسية، وهما الترجمتان اللتان حازتا إعجاب "كراتشوفسكي"، ورأى فيهما "مستوى أعلى من الترجمة، التي أنجزت في عهد بطرس الأول" وكان ظهورهما بمثابة "حدث تاريخي بالغ الأهمية في تاريخ الثقافة الروسية. وتكفي الإشارة إلى أن ترجمة "فيريوفكين" (Veryovkin) بالذات في عام (1790م)، وهو المترجم البارز والأديب الكبير في وقته، كانت في متناول يدي أمير الشعر الروسي "الإسكندر سيرجيفتش بوشكين" (A. S. Pushkin)، وكانت مادة أساسية في عمله في مؤلفه "قبسات من القرآن" 1، الذي سوف يتطرق له هذا البحث لاحقاً ليرز ما احتوته مادة ملحمة "قبسات من القرآن" أو "محاكاة القرآن" من أثر إسلامي واضح على الشاعر الروسي الكبير "بوشكين".

إنّ ملحمة "بوشكين" المشهورة "قبسات من القرآن" عالج فيها "شعرياً" نصوصاً من ثلاث وثلاثين سورة قرآنية، ويعترف الشاعر أنّ القرآن كان الكتاب الديني الأول الذي أذهل مخيلته، وأفلح في إعطاء صورة دقيقة المعالم لمضمون القرآن الفلسفي والديني، كما أعطت هذه القصائد لأول مرة في الأدب الروسي مفتاح الفهم الصحيح للقرآن الكريم وساعدت إلى درجة كبيرة على استمرار نموّ الاهتمام به عند أوسع أوساط القراء الروس 2

1. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 48.
2. د. عبد الرحيم العطوي، الاستشراق الروسي، ص 66.

وبحسب "كراتشوفسكي"، فإنّ نهاية القرن التّاسع عشر في روسيا تعدّ من أكثر الفترات ثراء في الأبحاث المخصّصة للإسلام والقرآن، وأنّ "المطبوعات الإسلاميّة خلال الفترة المذكورة قد اكتسبت أبعاداً كبيرة، ففي ثماني مدن في روسيا كانت هناك مطابع تستعمل الحروف العربيّة"¹

نتج عن كلّ ذلك معرفة القرآن الكريم بلغته العربيّة أو من خلال التّرجمات من اللغة اللاتينية والفرنسيّة ممّا ساهم في التّأثير على الكتاب الرّوس والمؤلّفات الأدبيّة لنخبة من اولئك الكتاب.

¹. إ. كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربيّ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة، طبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنشر، 1963، ص 141.

المبحث السادس

مكتبات الاستشراق والمخطوطات العربية

كما اهتمت روسيا بالترجمات إلى اللغة العربية وترجمة القرآن الكريم، فهي تهتم أيضاً بمكتبات الاستشراق المتخصصة في خزن المطبوعات والمخطوطات الشرقية، والمتاحف التي تضم النقود والمخطوطات العربية، التي كانت المنطلق للأبحاث الاستشراقية في جميع أنحاء العالم، والتي ركز أستاذ المدرسة الاستعرايية "كراتشكوفسكي" (Kratchkovski) على أهميتها حين كتب: "إنني كنت دائماً أعتبر المخطوطات بمثابة الحجر في البناء، فهي في عملنا تركّز في ذات الوقت على المادة والمصدر الأساسيين"¹

إنّ المدونات والأسفار التاريخية والملاحم الشعرية الروسية والحكايات الشعبية، التي تعكس أموراً عدّة، تسببت في وجود هذه المخطوطات، منها "إقامة عدد كبير من الرّحالة الروس في البلاد العربية والإسلامية ممّا تسبّب في نقل كمّ كبير من المخطوطات العربية والإسلامية إلى روسيا"². وتقول د.مكارم الغمري عن تلك المخطوطات: "ثمّة مخطوطة يرجع تاريخها إلى بداية القرن الثاني عشر الميلادي (حوالي 1113)، وتعدّ من أقدم الأدبيّات الروسية المكتوبة، وهي "قصة السنوات الغابرة" وفيها نتعرّف على قصة الأمير الروسيّ "فلاديمير" الذي اعتلى الحكم في روسيا عام (980م) واعتنق الإسلام ثم ارتدّ عنه إلى المسيحية، التي صارت فيما بعد

1. كراتشكوفسكي، مع المخطوطات العربية، ص 216 (في الأصل الروسي) ص 355 في الترجمة العربية.
2. أ.د. سعدون محمود الساموك، الاستشراق الروسي، ط 1، دار النشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2003، ص. 52.

ديانة رسمية لروسيا"¹ . ويبدو أنّ المسيحية ظلّت ديانة لروسيا فترة من الزّمان ممّا ترتّب عنه انعزالها لتصبح العدوّ الأوّل لآسيا المسلمة.

أمّا المكتبات الاستشراقية، فقد كان في روسيا، طوال تاريخ مدرستها الاستشراقية، عدد من المكتبات المتخصصة في خزن المطبوعات والمخطوطات الشرقية والمؤلفات حول الاستشراق، وتتضمّن "مكتبات علمية تابعة لمعاهد الاستشراق، وأهمّها على الإطلاق مكتبة "ملحقة معهد الاستشراق" (المتحف الآسيويّ السابق) بسان بيترسبورغ (بترسبورغ أو ليننجراد حالياً). والمكتبات العامة في كبريات المدن الروسية، وأهمّها مكتبة "صالتيكوف شدرين" العامة بسان بيترسبورغ ومكتبة "لينين" بموسكو. والمكتبات الجامعية، وأهمّها مكتبة "جوركي" التابعة لجامعة "لومونوسوف" بموسكو، ومكتبة جامعة موسكو وهي من أقدم المكتبات الروسية، ومكتبة جامعة "قازان"، التي تحتوي على الكثير من نفائس المخطوطات العربية إلى جانب مؤلفات في علوم اللغة العربية والدين الإسلامي، ومكتبة "جوركي" التابعة لجامعة سان بيترسبورغ، ويوجد أيضاً عدد من المخطوطات العربية في مجموعة من المكتبات الروسية، وتتمثّل في وثائق ومستندات يوجد أغلبها في موسكو.² ومنها أيضاً مكتبة جامعة سان بيترسبورغ، التي تعزّز الجناح الشرقي منها " بأعداد كثيرة من المؤلفات وخاصة المخطوطة منها، التي كانت تقدّم كهدايا من قبل العلماء والأساتذة، الذين كانوا يعملون في الجامعة، وخاصة في شعبة اللغات الشرقية. وتوجد أيضاً نسخة من القرآن الكريم في

¹ . د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 31.
² . عبد الرحيم العطاوي، الاستشراق الروسي، مرجع سابق، ص 311 (بتصرف).

حجم علبة ثقاب نُسخت عام (1601- 1602م) بمدينة شيراز خصيصاً للشاه عباس الأول¹

لقد اقترن تاريخ المكتبات الروسية الخاصة بخزن الكتب والمخطوطات الشرقية بتأسيس "المتحف الآسيوي" بسان بيترسبورغ سنة (1818م) وهي المؤسسة التي كُلفت بجمع وتصنيف المخطوطات ودراستها. وقد كان القيصر "بطرس الأول" قد "أمر في عام (1721م) بإنشاء متحف خاص بالحضارات الشرقية واقتنى ذلك المتحف، الذي ظلّ يعرف "بمكتب النوادر"، بعض المخطوطات العربية والتركية والفارسية وكذلك عدداً من المسكوكات الإسلامية، التي كانت ترسلها البعثات العلمية إلى روسيا من مختلف المناطق المسلمة المجاورة. وقد شكّل "مكتب النوادر" النواة الأولى "للمتحف الآسيوي"، الذي كان يذخر بعدد كبير من الكتب والمخطوطات والنقود العربية، والذي كان له شأن عظيم في تقدّم الدراسات الاستثنائية وازدهارها خلال القرنين التاسع عشر والعشرين في روسيا. وقد لقي اهتماماً فائقاً بفضل عناية العالمين الألمانين "فرين" و"دورن" اللذين تعاقبا على إدارة هذه المؤسسة². قال "أوفاروف" (Ovarov)، رئيس الأكاديمية: " من الشرق نبعث كلّ الديانات، وكلّ العلوم وكلّ الفلسفات، فالشرق وحده أعطى هذه الهبة الرائعة للعالم بأسره، هناك نجد المصدر الأصيل لتنوير العالم. ومن لا تحرقه الرغبة في الاقتراب من هذه الثروة التي لا تنضب في إذكاء العقل البشري؟"³

1. عبد الرحيم العطاوي، الاستشراق الروسي، مرجع سابق، ص 314 (بتصرف).

2. المرجع نفسه 33 ص0 (بتصرف).

3. من كلمة رئيس الأكاديمية الروسية، كراس المعهد التربوي الأول في بطرسبورغ 22 آذار 1818، ص 3 (بتصرف).

وبتولّي "بطرس الأوّل" الحكم بدأت لأوّل مرة في تاريخ روسيا محاولات منظّمة لتدريس اللغات الشّرقيّة تدريجاً رسمياً، " ففي عام (1716م) صدر مرسوم يقضي بإرسال خمسة شبّان من موسكو إلى بلاد فارس لتعلّم اللغات العربيّة والتركيّة والفارسيّة. وفي عام (1823م)، فُتِح قسم خاص لتعليم اللغة العربيّة في وزارة الخارجيّة الروسيّة وبدأت المخطوطات العربيّة تتسرّب إلى المتحف الآسيويّ بموسكو، فأصبحت في المتحف الآسيويّ مجموعة ضخمة من تلك المخطوطات، التي أصبحت مركزاً علمياً للتحقيق والإصدارات.¹

بهذا يتضح أنّ المخطوطات الشّرقيّة والمكتبات المتخصّصة والمؤلفات حول الاستشراق ومؤلفات علوم اللغة العربيّة والدين الإسلاميّ أسهمت إسهاماً كبيراً في نشر الثقافات الشّرقيّة والإسلاميّة في المجتمع الروسيّ وأثرت في أدبائه وشعرائه على مدى العصور.

1. أ.د. سعدون محمود الساموك، الاستشراق الروسي، مرجع سابق، ص 67 (بتصرف).

المبحث السابع

الإسلام في روسيا اليوم

إنّ الإسلام في روسيا الآن- حسب ما ذكرته وكالة أنباء نوفوستي الروسيّة (Novosti)- يعتبر الثاني في البلاد من ناحية عدد معتنقيه بعد الدّين المسيحيّ الأرثوذكسيّ. "ويعيش في روسيا في الوقت الحاضر- وفقاً لتقييمات الخبراء - من (15 إلى 24 مليون) مسلم، وأنّ عدد أبناء الشّعوب التي تتمسّك بالتعاليم الإسلاميّة في روسيا- وفقاً للإحصاء السّكاني الأخير، الذي أجري في البلاد عام (2002م) - يصل إلى ما يقارب (14.5) مليون نسمة. كما ذكر المصدر أنّه "يعيش في البلد حسب تقديرات مجلس المفتين في روسيا" (23 مليون) مسلم يمثلون (38 شعباً). وتتمثّل الأقاليم التي ينتشر فيها الإسلام تقليدياً في وسط وجنوب حوض الفولغا ومنطقة الأورال وشمال "القوقاز" وسيبيريا. ويوجد مسلمون بالإضافة إلى ذلك في موسكو وبطرسبورغ ومدن كبرى أخرى. وتُعتبر الإدارات الدّينيّة للمسلمين، التي استُحدثت في عهد الإمبراطورة كاترينا الثانية في القرن الثّامن عشر، الهيئات القياديّة للأمة الإسلاميّة في روسيا. وجرى تأسيس الأولى منها بمرسوم خاص من الإمبراطورة "كاترينا" مؤرّخ في 22 سبتمبر - عام (1788) بعنوان "مجلس أوفافا¹ (Ova) الدّيني وفق القانون المحمّدي". وجرى الاحتفال ببداة أعماله في 4 ديسمبر عام (1789م)"²

1. أوفافا عاصمة جمهورية بشكيريا في روسيا، عقد بها المؤتمر الدّيني آنذاك
2. د محمد النعماني، الإسلام الدين الثاني في روسيا، مجلة العرب، 4 ديسمبر 2006 .

ظلّ تاريخ الحضارة الإنسانيّة على مدى القرون ، شاهداً على إسهامات الثقافة الروسيّة، التي أرفدت المكتبات العالميّة بمؤلفات كثيرة، فعرف الأدب العالميّ مؤلفات قربايدوف وراسبوتن وتولستوي وتشخوف وبوشكين ومكسيم جوركي وديستوفسكي وجوجل وبونين وغيرهم من مئات الأدباء الرّوس. وليس غريباً القول أنّ مجتمع الثقافة والأدب الرّوسيّ تشربّ ثقافته من أفريقيا، التي استطاعت أن تنتشر ثقافتها في روسيا من خلال كتابات "الاسكندر بوشكين" شاعر روسيا الأوّل، الذي ربّما ترجع جذوره إلى القارة الأفريقيّة، وتحديداً إلى أثيوبيا.

لا يخفى أنّ العديد من العلماء والمفكرين والأدباء الأجانب الذين اطلّعوا على التّراث الإسلاميّ وقرأوا الكثير عنه، خصوصاً أولئك الذين تعمّقوا أكثر فأكثر في عقيدة وأدبيات الإسلام، ومن بينهم الكتاب الرّوس الذين تنطرق إليهم هذه الدّراسة، قد عرفوا مبادئ الإسلام فأنصفوا هذه الشّريعة الإلهيّة. وقد أسهم بعضهم إسهاماً ملحوظاً في إثراء المكتبة الثقافيّة العالميّة ببعض ما عرفوه عن الشّخصيات الإسلاميّة البارزة، فألقوا الضّوء على جوانب كثيرة في دين الإسلام.

إنّ التعرّف على إسهامات أولئك الكتاب الرّوس في إثراء الثقافة الشّرقية والإسلاميّة في إنتاجهم لا يمكن معرفتها إلا من خلال التطرّق للمؤلّفات، التي يظهر فيها ذلك التأثير الشّريقي والإسلاميّ، وهو ما ستحاول هذه الدّراسة توضيحه في الفصول الأربعة التّالية من خلال تحليل المؤلّفات والعناصر الشّرقية والإسلاميّة، التي ظهرت في إنتاج الكتاب الرّوس بوشكين وليرمنتوف وتولستوي وبونين.

الفصل الثاني الاسكندر سيرجيفتش بوشكين

- المبحث الأول: الاسكندر سيرجيفتش بوشكين
- المبحث الثاني: عظمة أدب بوشكين
- المبحث الثالث: أدب بوشكين الاجتماعي
- المبحث الرابع: بوشكين والطابع الإسلامي
- المبحث الخامس: بوشكين والقرآن

الفصل الثاني

المبحث الأوّل

الاسكندر سيرجيفتش بوشكين

كثير من القيم الأخلاقية موجزة في القرآن في قوة وشاعرية.

(بوشكين)

يقدم هذا الفصل ملامح عن سيرة الشّاعر الرّوسيّ "الاسكندر سيرجيفتش بوشكين" (Alexander Sergevitch Pushkin) ودراسة الطابع الشّرقي والإسلاميّ في مؤلفاته الشّعريّة والنثريّة من خلال تحليل إنتاجه، الذي يظهر فيه تأثره بالشّرق والإسلام وشخصيّة النّبي العربيّ محمّد (صلى الله عليه وسلّم) من خلال إبداعاته، التي استلهم موضوعاتها وأفكارها من الثقافة العربيّة والقرآن والسيرة النّبويّة، وتحليل تلك المؤلّفات مع محاولة إيضاح النتائج؛ حيث لم يحظ الموضوع العربيّ في أدب الاسكندر بوشكين بالدراسات الوافية الشاملة، رغم الكمّ الهائل من الأعمال الإبداعية لذلك الشّاعر الرّوسيّ العظيم، ورغم انعكاس الشّرق في أدبه عموماً، والمشرق العربيّ خصوصاً. وربّما تكون هذه الدراسة حافزاً للباحثين من الشّرق العربيّ للبحث والتّقيب في مؤلّفات ذلك الكاتب والشّاعر الرّوسيّ ذي الجذور الأفريقيّة، كما سيّتضح لاحقاً.

الأديب المشهور "الاسكندر بوشكين" (A. S. Pushkin) (1799- 1837)، هو أحد أعظم الأدباء الرّوس في القرن التّاسع عشر، الذي يعدّ مفخرة الأدب العالميّ كلّه لا الرّوسيّ فحسب. وهو الشّاعر والأديب الذي أبدع في شعره ونثره ولقّب بعدّة ألقاب، منها (مؤسّس الأدب الرّوسيّ المعاصر)، و (شاعر روسيا الأكبر)، و (شاعر روسيا العظيم). وقد حصل على لقب (موسوعة الحياة الرّوسية) إثر روايته "يفجينى أونيجين"

المشهورة. كما سُمِّي (بشمس الشعْر الرّوسِيّ)، و(أمير شعراء روسيا)، و (شاعر الحرّيّة) و (بداية البدايات في الأدب)، وأسماه "ميخائيل ليرمنتوف" "أسير الشرف" في قصيدة رثائه لبوشكين "موت شاعر". وظلّ "بوشكين" إلى يومنا هذا العميد ورأس الحكمة لكلّ تلامذته والمواصلين في دربه والأكثر حبّاً للشرق العربيّ وتأثراً به. يقول عن "بوشكين" الناقد الرّوسِيّ الشهير "ف. غ. بيلينسكي" (Belinski): " ينتمي "بوشكين" إلى تلك الظواهر الحيّة والمتحرّكة أبداً، التي لا تبقى في النقطة التي فارقت فيها الحياة، بل تستمر على التّطوّر في وعي المجتمع"¹. وتشهد بذلك الشهرة العالميّة للشاعر "الاسكندر بوشكين".

جذور الاسكندر بوشكين

يرجع البعض أصول "بوشكين" إلى جذوره الشرقيّة، التي لعبت دوراً هاماً في توجيه اهتمامه نحو الشرق، فيُجمع الباحثون على أنّ أصول "بوشكين" ترجع إلى الحبشة وأنّ " أمّه "ناديشدا أوسيبافنا" (Nadejda Osebvna) كانت حفيدة "إبراهيم هانيبال" (Ibrahim Hannibal) الجدّ الأكبر "لبوشكين" الأفريقيّ الدّماء. تقول الأدبية الدّكتورة مكارم الغمري أنّ "النّاظر إلى هيئة الشّاعر "بوشكين" يسترعى انتباهه للتوّ ملامح تبدو أفريقيّة، وهذه الملامح تبدو غريبة في إطار نسب الشّاعر إلى عائلة روسيّة أرستقراطيّة نبيلة الأصل" وتواصل الدّكتورة مكارم الغمري أنّ لهذه الملامح قصّة تعود إلى طفولته المبكّرة؛ حيث ترجع جذور الشّاعر إلى جده "إبراهيم هانيبال" ، والتي اتخذت في مخيلة الشّاعر أبعاداً رومانسية" فقد أوحوا إليه أنّ دمائه المختلطة كان لها

1. الاسكندر بوشكين، أعلام الأدب الروسي، مختارات نثرية، دار رادوغا، موسكو، ص 5.

شأن في موهبته المبكرة، فما أن شبَّ "بوشكين" حتى أخذ يفتش عن حقيقة هذا النسب،

فقد اجتذبه بشدة رواية قرابته من إنسان أفريقيّ الدماء كما كان يقول عن نفسه¹

وفي دراسة للعالم الأنثروبولوجيّ "د.أنوشتين" قام بها في التسعينات من القرن الماضي تمكّن فيها من إثبات الانتماء العرقيّ والقوميّ "لإبراهيم هانيبال"، أكّد أنّه كان "حبشيّ الجنسية وله بشرة سمراء داكنة"²، وقد اختطفه الأتراك وهو في الثامنة من عمره، وأرسل إلى مدينة القسطنطينية، حيث اشتراه السفير الروسيّ الذي قام بإهدائه بعد ذلك إلى القيصر بطرس الأكبر "بيتر العظيم"، الذي اقتناه في قصره، على عادة الحكام والعائلات النبيلة آنذاك. وقد تميّز إبراهيم بحدة الذكاء والجادبية، ومن ثمّ حاز للتوّ رضا القيصر بطرس، وكان من الضباط المقربين لدى القيصر بطرس الأوّل، الذي اصطفاه وجعله من أقرب المقربين، ثم أرسله إلى فرنسا لتعلّم العلوم العسكريّة.³ تدرّج إبراهيم هانيبال- بحسب الأدبية مكارم الغمري- في الوظائف العسكريّة حتى بلغ رتبة الجنرال وأصبح قائداً لسلاح الهندسة العسكريّة في بطرسبورغ ونال الأوسمة العسكريّة الرفيعة، وحصلت أسرته على لقب النبالة. تزوّج "إبراهيم" مرتين، أنجب من الزوجة الثانية سبعة أبناء منهم الابن "يوسف"، الذي أنجب أم "بوشكين". ونتيجة لتأثر "بوشكين" بتاريخ جدّه "إبراهيم هانيبال" كتب رواية تاريخيّة عن "بطرس الأكبر" تدور حوادثها حول ذلك الرّجل الحبشيّ جدّه لأّمّه⁴ وكانت تلك أولى محاولاته التثريّة.

1. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 88.
2. ن. تيلوفاف، "آل هانيبال أجداد بوشكين"، في كتاب "الليالي البيضاء" مجموعة دراسات، تحرير سلوبوجان، ليننجراد 1987، ص 276.
3. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 89.
4. د. إبراهيم إستنبولي، جريدة جهة الشرق، سحر الشرق في الأدب الروسي، أيغور يركموف، -سوريا، فبراير 2007.

نشأة بوشكين

وُلد "الاسكندر بوشكين" في موسكو في شهر مايو (1799م) ونشأ في أسرة من النبلاء كانت تعيش حياة الترف واللهو تاركة أمر الاعتناء بالطفل "بوشكين إلى الخدم والمربّين، وكان أبوه شاعراً بارزاً في ذلك الوقت؛ فساعد ذلك على ظهور موهبته الشعريّة مبكراً، بالإضافة إلى ذكائه وذاكرته الخارقة. "وفي مكتبة والده الرائعة كان يوجد أفضل الكتاب الفرنسيين والروس. وفيما يخصّ الآخرين، فالكثير منهم كان يوجد عادة في دار "آل بوشكين". لذا لم تكن كلمة شاعر بالنسبة لبوشكين الطفل مفهوماً مجرداً، فهو لم يكن يقرأ فقط للشعراء الآخرين؛ بل كان أيضاً يسمعهم وهم يقرأون بأنفسهم، وقد كان لكل ذلك تأثير كبير عليه.¹

تلقى "بوشكين" تعليماً فرنسيّاً في مدرسة الليسييه، التي كانت تنتقي الصفوة من أبناء الطبقة النبيلة، "التي كانت في ذلك الوقت- التلث الأول من القرن التاسع عشر- مركزاً للنشاط الأدبيّ وملقى لكبار الأدباء ورواد الحركة الاجتماعيّة، وكان من بين الأخيرين الأديب والفيلسوف وعضو انتفاضة الديسمبريين* "تشادايف" (Chadaev)، الذي لعب دوراً كبيراً في تكوين مشاعر "بوشكين" الوطنيّة، فقد كان "بوشكين" معجباً بـ "تشادايف" إعجاباً كبيراً "وكان يسمعه عادة بكل كيانه".² واصل "الاسكندر بوشكين"

1 . د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 75 .
* الديسمبريون حركة إصلاح اجتماعية هائلة، قامت بها مجموعة من الضباط ضد الحكم القيصري لتحرير الفلاحين ومحو جميع الفروق الطبقيّة وقيام حكومة مزودة بجميع وسائل السلطة لمنع الثورة المضادة .
2 . د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 75.

تعليمه في مدرسة الليسيه وخرجت باكورة أشعاره "في سنوات النهضة القوميّة الوطنية التي بعثتها حرب عام (1812م) فأيقظت المشاعر الوطنيّة في الشّاعر الشاب"1.

تخرّج "بوشكين" من الكليّة الثّانويّة عام(1817م) "ونشر أول مقال له في مجلة "أخبار أوروبا" تحت عنوان "إلى الصّديق الشّاعر" في عام (1819م). شارك في جلسات "المصباح الأخضر" الأدبيّة، التي كانت على اتّصال بجماعة الثّوريّين النّبلاء الديسمبريّين، الذين كانوا يستهدفون القضاء على الأوتوقراطيّة القيصريّة ونظام القنّانة في الزّراعة وإقامة حكم ديمقراطيّ في روسيا فأعلنوا عصياناً في عام (1825م) في شهر ديسمبر، فعُرفوا بالديسمبريّين، لكنّ القيصّر نقولا الثّاني قضى عليهم"2، وقد كان لذلك أثر عظيم على الشّاعر "بوشكين"، الذي كان يؤيّد حركة الديسمبريّين ويدعمها.

بعد انتهاء "بوشكين" من دراسته في الليسيه كانت بطرسبورغ - ليننجراد حالياً - تعجّ بالنّشاط الثّقافيّ والاجتماعيّ والسّياسيّ، وقد "التحق شاعرنا بالعمل فيها في لجنة الشّؤون الخارجيّة، فانغمس في ذلك الجوّ الحافل بالنّشاط فشارك في الصّالونات الأدبيّة وأصبح عضواً نشطاً في الجماعات الأدبيّة فتميّزت أشعاره بالمذاق الوطني وروح الاحتجاج ضدّ الظلم الاجتماعيّ. وفي غضون ذلك ظهرت فكرة الحرّيّة كموضوع رائد في تلك الأشعار، فوجدت تلك الأشعار مناخاً طيّباً وانتشرت انتشاراً صاروخياً بين فئات

1. س. بيتروف. تاريخ الأدب الروسي، ج 1، موسكو 1970، ط 3، ص 179.
2. موريس حنا شريل، موسوعة الشعراء والأدباء الأجانب، بروس بيس، طرابلس، لبنان 1996، ص 125.

الشَّعب المختلفة ممَّا أكسبه شعبيَّة متزايدة أثارت ضيق القيصر الذي قرَّر التَّخلص منه

بنفيه إلى الجنوب (منطقة القوقاز)¹

ثمَّ إنَّ طبيعة الجنوب الخلابة كان لها دور إيجابي في توجيه اهتمامات "بوشكين" نحو الشَّرْق، "فكتب العديد من القصص الشعريَّة من أهمها "أسير القوقاز" و"نافورة باختشي سراي"، فضلاً عن أشعاره الحرَّة، التي جابت روسيا وجلبت له شهرة لا مثيل لها، فكان جزاؤه النَّفي مرَّة ثانية، وفي هذه المرَّة كان النَّفي في ضيعة "ميخائيلوفسكي" النَّائية، حيث تعرَّف عن كُتب على حياة الفلاحين، وتطوَّر اهتمامه بالإبداع الشعبيّ، فأخذ يدوِّن الأغاني الشعبيَّة. ويكتب الشَّاعر حكاياته الشعريَّة الرائعة، التي استطاع فيها أن يقترب من روح الشَّعر الشعبي وطبيعته، والتي صورها في شمول الرواية التَّاريخيَّة "يفجيني أونيجن" (Evgenie Onegin). وأتاح له جوّ العزلة الريفيَّة هناك فرصة القراءة المتعمَّقة في التَّراث الأدبيِّ العالميِّ للشَّرْق والغرب² كما نراه يبعث في تراجميَّته المنظومة بالشَّعر المرسل "بوريس جودونوف" أحفل الأعمال الدَّرامية في التَّاريخ الرُّوسيّ؛ وهي نموذج للتراجيديا الاجتماعيَّة التَّاريخيَّة العالميَّة يتصارع فيها الأفراد ويتقرَّر فيها مصير الشَّعب، وقد عرضت مشكلة العلاقة بين القيصر والشَّعب بكثير من الحدَّة والتشبع بالرَّفَض لطغيان الحكم المطلق. أمَّا رواية "الاسكندر بوشكين" الشعريَّة "يفجيني أونيجن" في عام (1830م) فقد اكتسبت مكانة مرموقة بين مؤلِّفات "بوشكين" الواقعيَّة لما تحويه من حسٍّ أدبيِّ يصور الحياة الطبقيَّة الرُّوسية وما بها من تناقضات.

1. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربيَّة إسلامية في الأدب الرُّوسي، مرجع سابق، ص 76 (بتصرف).
2. المرجع نفسه (بتصرف).

المبحث الثاني

عظمة أدب بوشكين

يفجيني أونيجين

تضمّن أدب "بوشكين" العديد من المؤلفات العظيمة، التي تصف المجتمع، ومن أبرز تلك المؤلفات روايته الشعريّة المشهورة "يفجيني أونيجين" (Evgeny Onegin). وتعدّ رواية "بوشكين" "يفجيني أونيجين" من أعظم أعماله الأدبيّة، حيث تظهر فيها أمام القارئ جميع طبقات المجتمع الروسيّ في ذلك الوقت. وقد عمل الشّاعر في إخراجها أكثر من ثمانية أعوام. وسَمّى الناقد الدّيمقراطيّ الروسيّ العظيم "بيلينسكي" هذه الرّواية "موسوعة الحياة الرّوسيّة"، ويشير فيها الكاتب "فلاديمير نابوكوف"¹ إلى "مدى شعور البطل "أونيجين" بالغربة وبشكل غريب قبل مبارزته "لينسكي". كان سلوكه ينطوي على صفة غريبة تشبه الحلم، كما لو كانت عدوى كابوس "تاتيانا" الحديث قد انتقلت إليه ... وحينما يسقط "لينسكي"، يكاد المرء يتوقّع أن يهبّ أو ينجو من أن تفعل "تاتيانا"، ويتحقّق من أنّ كلّ ما حدث لم يكن إلّا حلمًا"²؛ فنابوكوف يرى في وقائع الرّواية أمراً واقعاً وكأنّ أحداث الرّواية تقع أمامه، حيث إنّ كاتبنا الفنّ يرسم كلّ الأحداث بدقّة أدبيّة مشوّقة وملموسة. ويبدو أنّ هذا ما يلمسه كافّة القراء في أدب الشّاعر الفنّ "بوشكين".

1. فلاديمير نابوكوف كاتب روسي عظيم يعيش في أمريكا، وهو مؤلف رواية لوليتا.
2. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 20.

نشرت أول طبعة كاملة لهذه الرواية في عام (1833م)؛ وبما أنّ "بوشكين" دأب على كتابة هذه الرواية سنوات كثيرة، فإنّ "فصولها الثمانية تعكس تطوره طوال هذه المدّة. وبطل الرواية "أونيجين" يمثل طراز عصره، وفي الوقت نفسه يمثل المهديين الظرفاء من أبناء المدن".¹ ويبدو أنّ "بوشكين" في هذه الرواية الشعريّة قد جسّد صورة لطبقة بأسرها: الصّفوة النّبيلة في تناقضها وتخبّطها بين متطلبات الذات والمجتمع العلوي من جهة، والواقع من جهة أخرى"²، وهذا ما كان يعيشه الشّاعر ويحسّ به فعبر عنه بهذه الرواية.

بوشكين والشّرق

تنبوّاً ثقافة الشّرق مكانة مرموقة في مصادر ثقافة "الاسكندر بوشكين"، حيث تعرّف على الشّرق الحيّ من خلال إقامته في الجنوب، عندما تعرّف على حياة أهل "القوقاز" والقرم، وقد "أشار" بوشكين" بنفسه إلى ثراء تجربته الإنسانيّة في تلك الفترة، التي كانت بالنّسبة له فترة "الخليط الأزياء والوجوه والقبائل واللهجات المحليّة والأوضاع"³، وقد ذكر "كراتشوفسكي" أيضاً في كتابه "تاريخ الاستعراب في روسيا" أنّ "بوشكين" أثناء إقامته في الجنوب حاول أن يتعلّم اللغة العربيّة"⁴

عاصر "بوشكين" ازدهار حركة الاستشراق في روسيا فتعرّف إلى نماذج من ترجمات وإنجازات الأدب العربيّ واهتمّ بالتعرّف على "تاريخ مصر القديمة، ويشهد على

¹.. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربيّة إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 41.

². المرجع نفسه، ص 77.

³. بوشكين، المؤلفات الكاملة، ج 4، ص 145.

⁴. كراتشوفسكي، نبذات من تاريخ الاستعراب في روسيا، ليننغراد، 1950، ص 107

ذلك صداقته لعالم الأثريّات المصريّة " أ. جوليانوف"، وهي الصداقة التي أشار إليها الباحثون بصفقتها "منبعاً حياً زاخراً نهل منه "بوشكين" الكثير من المعلومات عن تاريخ مصر القديمة"¹

وهناك الكثير من المؤثرات الشرقيّة والإسلاميّة، التي ظهرت في إنتاج "بوشكين"، والتي تدلّ على شغفه بمتابعة الثقافة العربيّة في مختلف منابعها، إلى جانب رغبته بالتعرّف على تاريخ الخلافة الإسلاميّة ؛ فكما تذكر د. مكارم الغمري أنّ "لوبيكوفا" تشير إلى قراءة "بوشكين" لكتاب "أكايدانوف" "أسس التاريخ السياسي العام"، ج 1، التاريخ القديم، وهو الكتاب الذي خصص جزءاً كبيراً للحديث عن البلاد العربيّة وعن الإسلام ورسوله"².

تأثر إنتاج "بوشكين" كذلك بشكل واضح بإنتاج الأدباء الآخرين المتأثرين بالشرق وحضارته، فقد "قرأ أعمال "فولتير" (Voltaire) الدراميّة المتأثرة بالشرق، و"خطابات فارسيّة" للأديب "مونتيسكو" (Montesquieu)، ومؤلفات "شاتوبريان" (Chatobrian) وجوته (Goethe) الشرقيّة، وقرأ القرآن الكريم والإنجيل، وتعرّف على رائعة الأدب العربيّ "ألف ليلة وليلة" من خلال التّرجمات، التي ظهرت في نهاية القرن الثّامن عشر وبداية القرن التّاسع عشر"³ ، فشدّت انتباه "بوشكين" وأثارت خياله فانعكس تأثيره بها في أكثر من مؤلّف؛ فهناك العديد من المؤلّفات التي يتأثر فيها

1. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربيّة إسلامية في الأدب الروسي، ص 87.
2. ن. لوبيكوفا، "بوشكين والشرق"، موسكو، 1974، ص 31.
3. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربيّة إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 86.

"بوشكين" بثقافات الشرق والثقافات الأخرى لتخرج في بوتقة فريدة وعبقريّة فدّة، منها على سبيل المثال "روسلان ولودميلا".

روسلان ولودميلا

لقد عاصر "بوشكين" في حياته القصيرة أحداثاً تاريخية هائلة فانطبع في ذاكرة الشاعر المدّ الوطنيّ الذي أثارته الحرب الوطنيّة لعام (1812م)، واندحار قوات "نابليون"، وعودة المنتصرين الظّافرة إلى أرض الوطن. وفي عام (1820م) يفرغ الشاعر من أول عمل إبداعيّ كبير له، وهو روايته الشعريّة "روسلان ولودميلا" (Roslan and Lodmila)، التي كان متأثراً فيها - إلى جانب بعض مؤلفاته الأخرى- برائعة الأدب العربيّ "ألف ليلة وليلة". ومن المعروف سلفاً أنّ "ألف ليلة وليلة" هي أحد الآثار الثقافيّة العربيّة الكبيرة، التي ظلّت شاهداً على حركة الحضارة والحياة العربيّة. وربما تعرّف "بوشكين" أيضاً علي "ألف ليلة وليلة" من خلال ترجمة "غالان" الفرنسيّة، وتعد بمثابة أصل للترجمات الأوربيّة التي ظهرت بعدها¹؛ حيث إنّه يقدم وصفاً لقصر الجنيّ يماثل ذلك الذي ورد في قصص "ألف ليلة وليلة"، بجانب اختطاف الجنيّ للعروسة "لودميلا" ابنة الأمير "فلاديمير" في ليلة زفافها، لتدخل القصة في أجواء من المغامرة يدخل فيها العريس في رحلة طويلة شاقّة للبحث عن عروسه. وقد ألمحت "لوبيكوف" إلى "الأصول الشرقيّة لوصف ظهور الجنيّ في "روسلان ولودميلا"، فهذا الظهور المفاجيء يصحبه دويّ الرعد ودخان أسود وصرخات شريرة. وفي الأسطورة

1 . د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 94.

الشَّرْقِيَّة يخرج الجنّي من البحر في شكل عمود ضخم كثيف تسبقه صرخة مرعبة

صاعقة"1

وفي هذا الوصف، استندت الباحثة على قصة "المارد والصبية"؛ حيث يختطف الجنّي الفتاة في ليلة زفافها فتقابل الملك "شهريار" وأخاه "شاه زمان" وتراودهما عن نفسيهما. وهنا تشابه "روسلان ولودميلا" قصة "المارد والصبية" من حيث ظهور الجنّي واختطافه للفتاة.

وفي قصة "روسلان ولودميلا" يعلن الأمير "فلاديمير" - والد العروس - أن من يعثر على "لودميلا" سوف تكون من نصيبه ويتزوجها، فيتنافس معه "فرسان ثلاثة، وهم "رودجاي" (ذو السيف القاطع)، و "فارولوف" (الذي لا يبارى في الصيد)، و "راتمير" (المتأمل ذو الفكر الثاقب). ويلاحظ هنا أن عدد منافسي "روسلان" في حبّ "لودميلا" ثلاثة، وهذا العدد يعد تقليدياً في عرف صنع حكايات الجنّ، التي يسود بها العدد اثنين أو ثلاثة"2.

كذلك تظهر بعض المظاهر الأخرى في قصة "روسلان ولودميلا"، تشير إلى التأثر بقصص الليالي. وكما ورد عن د. مكارم الغمري، من تلك المظاهر ظهور ساحرة شريرة في طريق غريم "روسلان" الثاني لتثنيه عن مواصلة طريق البحث عن "لودميلا"، والساحرة تدلّ على القوى الغيبية، التي تتضمنها الليالي. وكذلك وصف "بوشكين" لحياة الجانّ يسير على هدي تقاليد قصص الجانّ في "ألف ليلة وليلة"، "فحياة

1 . ن. لوبيكوف، "بوشكين والشرق"، موسكو، 1974، ص 21.
2. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، ص 96.

الجنّ تبدو مشابهة لحياة الإنس، وتفصيل معيشتها تبدو مطابقة لحياة الإنسان، كما أنّ القصر الذي يقطنه الجنيّ- خاطف "لودميلا"- يبدو شبيهاً بقصور عظماء الإنس وملوكهم، فهو قصر فسيح الأرجاء رائع الجمال، محاط بحديقة عناء:

أروع من حدائق أرميدا

وتلك، التي كان يملكها

الملك سليمان والأمير تافريدي

ومن أمامها تتمايل، وتحفّ

أشجار البلوط الرائعة،

وممرات النّخيل، والغابة المسحورة¹

في هذا المقطع من القصيدة، أشارت الدكتورة مكارم الغمري إلى أنّ الشّاعر "بوشكين" ربّما يكون متأثراً بالتراث الإسلاميّ، حيث يشير إلى سيّدنا سليمان- عليه السّلام؛ ففي سورة الأنبياء تشير الآية (82) إلى تسخير الشّياطين للنّبيّ سليمان (وَمِنْ الشّٰبِطِينَ مَنْ يٰعٰوٰصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ (82))². وهذا ما يبدو معناه في هذه الآية، بالإضافة إلى تأثير الإسلام على عدد من مؤلفات "بوشكين"، حيث يستلهم فكرة بعث الروح، التي تحدّث عنها القرآن في كثير من الآيات، مثل قوله في

1. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، ص 98 (ترجمة د. مكارم الغمري عن مؤلفات بوشكين الكاملة عن اللغة الروسية، ج 4، ليننجراد).
2. سورة الأنبياء، الآية 82.

الآيات (6 - 7) من سورة الحجّ: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (7))¹. يستلهم "بوشكين" هذا المعنى في ملحمة "قبسات من القرآن" كما استلهمها في عودة الروح إلى جسد "روسلان"، وسوف يتطرق البحث لهذا الموضوع لاحقاً.

ويظهر تأثر "بوشكين" بألف ليلة وليلة في "روسلان ولودميلا"؛ حيث نجده يشير مباشرة إلى العالم السحري لشهرزاد، الذي يحضر في "روسلان ولودميلا" في وصف مملكة الجان²:

وترقد الفتاة التعيسة

بين الوسائد الوبريّة،

أسفل الظلّ الشامخ لمظلة،

الستائر والفراش الوثير

في أهداب، وزخارف ثمينة،

في كلّ مكان حرير مذهب

ويتألأ الياقوت، مثل لهب،

في كلّ مكان مباخر مذهّبة

1 . سورة الحج، الآيات 6 - 7.
2 . د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، ص 104 (ترجمة د. مكارم الغمري).

ويرتفع البخار والشتدى،

كفى فما عاد يلزمني،

وصف البيت السحري:

فمنذ وقت بعيد وشهرزاد أخبرتني به¹

إنّ تأثر "بوشكين" بقصص "ألف ليلة وليلة" أشهر المؤلفات العربيّة يبدو واضحاً ، وقد تأثر بها معظم الأدباء الرّوس وشدّت انتباههم، لما تحمله من قضايا ومذهب الرومانتيكيين، ولما فيها من عناصر المغامرة والخيال وترجيح العاطفة على العقل واللجوء إلى عالم ما وراء الطّبيعة في وقوع الأحداث؛ وعادة ما تكون تلك المادّة مجالاً خصباً في الأدب، إضافة إلى العنصر الشّرقي الذي يضيف إلى المادّة تقدراً وفخامة قلّما توجد في غيرها من المؤلّفات.

وكما تأثر "بوشكين" بقصص "ألف ليلة وليلة"، فقد تأثر أيضاً بالقصائد الشّرقية، التي كتبها "اللورد بايرون" تأثيراً عظيماً، فأصبح رائد الرومانتيكيّة في الشعر الرّوسيّ².

وقد يجد الشّاعر في الرومانتيكيّة ملاذه عند الرّغبة في الهروب من عالمه، ونجد أنّ الرّغبات العارمة تصطرع في روح أبطال "بوشكين" الرومانتيكيين وتظهر مشاعر الحب والخير ونشر العدل وغيرها من الصفات الطّيبة، التي تذخر بها مؤلّفات

1. أ. بوشكين، ج 4، ص 27.
2. منير البعلبكي، موسوعة المورد العربيّة، المجلد الأول، دار العلم للملايين، بيروت 1990، ص 261.

"بوشكين" الرومانتيكيّة. وتذكر د. مكارم الغمري أنّ فكرة الحرّيّة تخترق رومانتيكيّة "بوشكين"، ليس فقط في الشّكل؛ بل وفي الدّاخل أيضاً. تقول أنّ: "هذه الفكرة يبحث عنها أسير القوقاز، والأخوة قطّاع الطّرق، وماريا وأليكو في "العجر" والسّجين في قصيدة "السّجين". ويمثّل عالم الشّرق أمام بطل "بوشكين" الرومانتيكي موطناً خصباً لتحقيق الدّات الرومانتيكيّة"¹.

وقد ظهر الشّرق وإنسان الشّرق بصورة واضحة في معظم كتابات "بوشكين" في مجال الرومانتيكيّة، فقد كان يرى أنّ الشّرق هو ملهم الحبّ العذب، الذي يكمن في دخيلة الشّاعر. وينعكس تأثير أسلوب الشّرق في قصّته الشعريّة "نافورة باختشي سراي".

نافورة باختشي سراي

كتب "بوشكين" القصّة الشعريّة الرومانتيكيّة "نافورة باختشي سراي" (Pakhchi Sarai Fountain) في عام (1824م)، التي تعتبر أحد أكبر إنجازات الرومانتيكيّة الرّوسيّة؛ فهي "تجسّد ملمحاً هاماً من ملامح رومانتيكيّة "بوشكين": رومانتيكيّة الرّغبات المتأجّجة، التي قد تدفع بصاحبها إلى الحدّ الأقصى من السلوك الإنسانيّ المدمر"² فهي ترتبط بأسطورة عن أحد الأمراء الثّثار "غيري"، الذي أسر الأميرة البولنديّة "ماريا" عند غزوه لبولندا فهام حبّاً بها، وأهمل زوجته الجورجيّة "زاريمّا"، التي غضبت من موقفه وحزنت لخيانته لها وحاولت بشّى الطّرق أنّ تحول دون ذلك الحبّ، ولكن دون جدوى. فتتملك الزّوجة "زاريمّا" غيرة محمومة تتسبّب في

1. د. مكارم الغمري، د. مكارم الغمري، مؤثرات عربيّة إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 82.
2. المرجع نفسه، ص 116.

قتلها لغريمته الأميرة البولندية، فيغضب الخان ويقوم بقتل زوجته ويشيد "نافورة باختشي سراي" تخليداً لذكرى محبوبته البولندية.

لقد أعاد "بوشكين" في هذه القصة الشعرية الأسطورية التاريخية التي تتحدث عن "الأمير جريي"، الذي اعتلى عرش "القرم" في القرن الثامن عشر، والذي عرف عنه القسوة والبطش وحبّ الفنون والعلوم، كما عرف عنه أيضاً حبّ الحرب والغزوات العسكرية والولع بمظاهر الأبهة والفخامة المعمارية، حيث أسس في قصره العديد من القصور، التي من أهمها قصر "باختشي سراي"¹

لقد جمع "بوشكين" في تصوير الطابع الشرقي في هذه الملحمة ووصف المشاعر الجياشة، التي تتميز بها المؤلفات الأدبية الشرقية و"الأسلوب الشرقي"، الذي يتوازي في بعض الكتابات النقدية مع ما أطلق عليه "الفخامة" الشرقية، والتي كان يعيها الناقد "جوكوفسكي" حين أشار إلى أنّ "الأسلوب الشرقي" للرومانتيكيين الروس كان "يكتنز الكلمات الفخمة"².

فالطابع الشرقي في القصة الشعرية "نافورة باختشي سراي" يظهر في شعور زوجة الأمير التتري بالغيرة المدمرة، غير أنها تصمد وتخفي عذابها، فيصفها "بوشكين" "بالنخلة، التي اكتسحتها عاصفة؛ والنخلة في مخيلة الأوروبي هي عروس المنظر الطبيعي العربي، ورمز الصمود أمام الزمن والشموخ أمام العواصف، ولذا فزاربما:

1. د. مكارم الغمري، د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق ص 116 (ترجمة د. مكارم الغمري عن مؤلفات بوشكين الكاملة عن اللغة الروسية، ج 4، لينجراد، ص 132).
2. المرجع نفسه، ص 118.

نجمة الحبّ، زينة الحريم

وا أسفاه، حزينة وشاحبة،

لا تسمع المديح

باتت كنخلة اكتسحتها عاصفة¹

وقد تابع "بوشكين" مختلف إنجازات العالم العربيّ، فظهرت قطوفها بارزة في مؤلفاته الشّرقيّة والأسلوب الشّرقيّ، الذي اقترن في الأوساط الأدبيّة الرّوسيّة بأسلوب الرومانتيكيّة العربيّة الغنيّة بالانفعالات والاستعارات والأساليب اللغوية الشّرقيّة. ولا يكتفي الشّاعر بالاستعارات والأساليب الشّرقيّة فقط؛ بل ولا ينسى كذلك الجانب الدّيني الرّوحي في حياة الشّرق، "فزاريمًا" حين تتوسّل إلى الأميرة البولنديّة لكي تترك لها زوجها تستحلفها "بالقرآن"، الذي يكتب في المؤلّف بلفظه العربيّ، أمّا "غيري" فهو لا يتوقف عن حبّه للأميرة البولنديّة، ممّا يجعل "زاريمًا" تغرق في حزن وكدر، وهنا يتذكّر "بوشكين" مآثر الحجّ، التي تشدّ من أزر الإنسان وتملأ نفسه بقوى روحيّة:

تهبّ السّماء الإنسان

عوضاً عن الدّموع والبلاء الدّائم؛

فالتّاسك التّاظر إلى مكّة سعيد

1. د. مكارم الغمري، د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 119.

في سنوات الشّيوخوة الحزينة¹

يدلّ هذا المقطع إلى معرفة "بوشكين" بالقرآن والحجّ وما تحسّسه نفس المؤمن من طمأنينة وراحة نفسيّة عند النّظر إلى "مكة"، التي ذكرها "بوشكين" بهذا اللفظ ويقصد بها الكعبة المشرّفة بالأراضي المقدّسة، التي يقصدها الحجّاج المسلمون ويراهم الحاجّ عند أدائه لمناسك الحجّ، فيستلهم "بوشكين" من تلك المعاني أبياته الشعريّة، التي ربّما استقى معانيها ممّا يعرفه عن الطّابع الإسلاميّ الشرقيّ محتفظاً بتقييمه الشّخصيّ واستيعابه لذلك المضمون.

1 . د. مكارم الغمري، د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 120.

المبحث الثالث

أدب بوشكين الاجتماعيّ

كان "بوشكين" دائم النشاط ضدّ الإقطاعيّة مناصراً لطبقة الفلاحين، وكانت الحكومة تلاحقه وتطارده، حيث أمرت بنفيه إلى الجنوب في عام (1824م) في قرية نائية في ولاية تُسمّى "ياسنايا بوليانا". وكانت سنوات النفي إلى الجنوب فترة تجلت فيها أعمال إبداعية عظيمة وتأمّلات عميقة تفتّحت فيها العبقرية الشعريّة للأديب العظيم "بوشكين"، فكتب العديد من المؤلفات التي تناهض الحكم القيصري، التي نفي بسببها مرّة أخرى إلى ضيعة "ميخائيلوفسكي" النائبة، ممّا أتاح له فرصة أخرى للتعرف على حياة الفلاحين التي صوّرها بدقة في روايته الشعريّة "يفجيني أونيجين". وعند قيام انتفاضة الديسمبريين في ديسمبر (1825م) في بطرسبورغ؛ حيث تعرضت روسيا للفجعة في أحسن أبنائها وأكثرهم تقيّة؛ كان الشاعر يتعاطف مع الديسمبريين المنكسرين بكلّ روحه وأفكاره.

يعود "بوشكين" إلى موسكو في خريف (1826م)، فيواصل العمل في مواضيع مستمدة من التاريخ الروسي؛ فيكتب في عام (1828م) قصيدته الوطنيّة الملحميّة "بولتافا"، وفيها يتغنّى الشاعر بعبقرية بطرس الأوّل كقائد عسكريّ ورجل دولة. وهو الرّجل العظيم الذي أعاد تكوين روسيا. ويظهر كيفية دفاع الشعب الروسيّ عن استقلال وطنه في المعارك الضّارية ضد قوات ملك السويد كارل الثاني عشر.

ملحمة الفارس النحاسي

وترتبط ملحمة "بوشكين" الأخيرة "الفارس النحاسي" (The Bronze Knight)، التي استوحاها من تمثال بطرس الأكبر (1833م)، ارتباطاً وثيقاً من الناحية الفكرية والفنية في عدة نقاط بالمشكلة التي تعالجها "بولتافا". وهي أبيات شعرية موجزة ذات ثمانية مقاطع تظهر فيها المعاناة الإنسانية وإرادة الطاغية. "وتحكي قصة شاب يعمل في خدمة الحكومة المدنية، تلقى خطيبته حنقها في فيضان "نهر النيفا"، ويجن جنونه ويطوف في أنحاء بطرسبورغ. وعندما ينعم النظر عبر النهر، ليرى الكوخ الذي كانت تسكنه الفتاة، لم ير غير التمثال البرونزي الضخم لبطرس العظيم يعلو على الأمواج. وعندما يجد نفسه أمام التمثال مرة ثانية أثناء جولاته، يُلوح بقبضته إلى فوق نحو "حاكم نصف العالم"، ثم يولي الأدبار في دعر؛ إذ يتراءى له أنه يرى التمثال يحول رأسه ببطء نحوه، ثم يتراءى له أثناء ركضه أنه يسمع وقع حوافر فرس "الفارس البرونزي" في أثره. وبعد تلك الليلة كان الرجل المخبول كلّمًا مر بالتمثال خلع قلنسوته وسار في طريقه مسبل العينين مكتئبًا. وتنتهي القصيدة بإلقاء الفيضان لحطام الكوخ، وعلى عتبة الكوخ توجد جثة ذلك المخبول، الذي وورى بالتراب بدافع الخير والإحسان"¹

تتضح هنا المعاناة، التي تعتمل في صدر بطل الرواية والشعور بهيبة "الفارس النحاسي"، الذي يمثل بطرس الأكبر، وسطوته رغم وجوده في شكل تمثال أخرس لا

1 . جون بيلي، تولستوي والرواية، ترجمة سليم الأسبوطي، ص 28 (بتصرف)، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986.

يمكنه فعل أي شيء، ولكن تصرف ذلك المسكين جاء نتيجة للإحساس الداخلي، الذي كان يحسّه من هيبة "بطرس الأكبر" وإرادة الطاغية، والإحساس، الذي تعيشه الطبقات الدنيا من الشعب البسيط إزاء ذلك الطاغية كما يصفه "بوشكين".

يتميز أسلوب "بوشكين" بالوضوح المتناهي وإيجاز العبارة ودقتها وخلوها من الاستعارة والتشبيه والالتزام بسرعة الحبكة، فيصوّر تلك الأحداث بريشة فنان تتيح للقارئ التفاعل التام مع الأحداث. وقد كتب "بوشكين": "الدقة والإيجاز هما فضيلتا النثر الأولان، فهو يتطلّب المزيد والمزيد من الأفكار، التي لا تغني عنها أي تعابير زاهية"¹

كانت شهرة "بوشكين" بين معاصريه قد تعدّت الحدود وقويت شعبيّته لما كان لشخصيّته من جاذبيّة ونبوغ كلي، ولا سيّما ما انعكس في شعره الغنائي بكمال وبهاء. وقد انعكس في شعر "بوشكين" الغنائي شغفه بالحريّة، ومشاعره الوطنيّة، وإيمانه بمستقبل وطنه، وآراؤه في الفن، والشعر، وتصوره للصدّاقة والحبّ ومختلف المشاعر الثّيلة، التي تظهر في شعره.

في عام (1831م) تزوّج "بوشكين" بالشّابة "ناتاليا غونتشاروفا"، من أجمل حسناوات موسكو. وقد رحل "بوشكين" قبيل الزّواج إلى بولدينو، ضيعة أبيه الصّغيرة، ليدير شؤونه. وهناك كتب الشّاعر في عام (1830م) نفائس أدبه الدراميّ "التراجيديّات الصّغيرة" والدّراما الأسطوريّة "عروسة الماء"، وقصيدته "بيت في كولومنا"، وأوّل عمل نثريّ كبير له "قصص بيليكين"، التي كتبها ونشرها في عام (1831م) باسم

1. الاسكندر بوشكين، أعلام الأدب الروسي، ترجمة غائب طعمة فرمان، دار رادوغا موسكو، 1894، ص 397.

"بيليكين"، ولكتّها صدرت في عام (1834م) تحت اسمها الكامل¹، وظهرت في "قصص بيليكين" النّزعات الدّيموقراطية لإبداع "بوشكين" ظهوراً لامعاً. وقد ثمن النّقاد والقراء سحر البساطة وإيجاز النثر والفنّ البيانيّ في كتابة "بوشكين". كما أنّ قصّة "ملكة البستوني"، التي كتبها "بوشكين" في عام (1833م) تعتبر نموذجاً للقصّة القصيرة من حيث دقّة بنائها، وجاذبيّة حبكةها، ومهارة كتابتها. وقد صورّ في شخصيّة "هيرمان"، الرّجل الذي له مظهر "نابليون" وروح "مفيستوفيليس"، نموذجاً لبطل جديد مفترس نفعيّ.

في التّلاثينيّات يعمل "بوشكين" في روايته الاجتماعيّة الكبيرة "دوبروفسكي" (Dobrovsky)، التي تعدّ من أعظم ما كتّب في تاريخ الأدب الرّوسيّ، وقد بدأ العمل فيها عام (1832م) ونيل آخر فقرة منها عام (1833م)، ولكتّها لم تنشر إلا في عام (1841م)، أي بعد مصرع الكاتب التراجيدي. ويتّضح في الرّواية أنّ بطلها النّبيل الشّاب "فلاديمير دوبروفسكي" يرفض العنف، ويسعى دائماً في مغامرات مذهلة ويقع في شباك ابنة الرّجل، الذي أساء إليه واسمها "ماشّا ترويكوروفّا". الرّواية تعرض خلفيّة حياة الملاك وأخلاقيّات ذلك العهد. وقد حظيت رواية "دوبروفسكي" (Dobrovsky) بتقدير عال في النّقد الرّوسيّ " وقد كتّب النّاقّد الرّوسيّ العظيم ومعاصر "بوشكين" "فيساريون بيلينسكي" "إنّها من أعظم إبداعات عبقرية "بوشكين" "2

ابنة القبطان

1. الاسكندر بوشكين، أعلام الأدب الرّوسيّ، ترجمة غائب طعمة فرمان، دار رادوغا موسكو، 1894، ص 397.
2. الاسكندر بوشكين، أعلام الأدب الرّوسيّ، ترجمة غائب طعمة فرمان، دار رادوغا موسكو، 1894، ص 298.
* الرويل عملة روسية.

إلا أن نثر "بوشكين" يصل إلى ذروته في آخر عمل كبير من أعماله الثَّريَّة، وهو قصَّة "ابنة القبطان" (The Captin's Daughter) عام (1836م)، التي تعتبر نموذجاً للعمل الأدبيِّ التاريخيِّ الواقعيِّ حقاً. وبطل القصَّة شابُّ يُدعى "بيتر بيتروفيتش"، أرسله والده إلى الحدود ليعمل في الجيش ويعيش حياة منضبطة هناك. وفي طريقه إلى هناك ضلَّ الطَّريق أثناء عاصفة ثلجيَّة، فساعده رجل ظهر في الطَّريق فجأة وكانت هيئته مزرية وذا أسمال بالية ومظهر يدلُّ على التَّشردِّ. دلَّه ذلك الرَّجُل إلى نزل ناء يأوي إليه. وعند مغادرة النزل أهدى "بيتر" للرَّجل معطفه ونصف روبل* تعبيراً منه على شكره.

عند وصول "بيتر" إلى قلعة "بيلو غورسك" على الحدود، وجدها في قرية صغيرة تعاني طويلاً من هجمات المتمردين. ووجد هناك رئيس القرية، ويدعى "إيفان كوزميتش" وزوجته وابنته "ماريا" وبعض أفراد الخدمة، منهم ضابط يدعى "شفابرين"، الذي نقل للحدود تأديبا له على قتل أحد الضَّباط في مباراة¹، والذي لم يحبّه "بيتر" لما يظهر عليه من سمات الصَّعلكة وكثرة ثرثرته ووشايته بالآخرين.

دعا "بيتر" المخادع "شفابرين"، إلى مباراة تأديبيَّة بسبب تعرُّضه لسمعة ابنة القبطان "ماريا"، التي أغرم بها "بيتر"، وادَّعائه بما يشين إليها لعدم موافقتها الزَّواج منه، وانتصر "شفابرين" في تلك المباراة. أراد "بيتر" الزَّواج من "ماريا" فرفض والده ذلك، فعلم "بيتر" أن وراء ذلك الرِّفض هو "شفابرين"، الذي وشى به وأخبر والده بأمر المباراة.

1. المباراة عادة متبعة في روسيا.

كان رئيس القلعة "القبطان"، يتعرّض لهجمات ضارية حتّى جاء الوقت، الذي استلم فيه رسالة من "إيميليان بوغاتشوف" زعيم القوزاقيين المتمرّدين، الذي يدّعي أنّه القيصر، يخبرهم بالدمار الذي أحدثه في القرى المجاورة ويحثّهم فيها على التسليم. ولكنّ "القبطان" لم يستسلم ورأى أن يبعد زوجته وابنته من تلك المنطقة الخطرة، غير أنّ زوجته رفضت الابتعاد عنه واضطرّ إلى إبعاد ابنته في مكان آمن داخل القرية لوجود المتمرّدين حولها وقطعهم للطرق. هجم "بوغاتشوف" عليهم وانتصر انتصاراً ساحقاً على القبطان ليتولّى "بوغاتشوف" منصب القيصر ويتمّ إعدام القبطان "إيفان كوزميتش" بصورة بشعة مع من والاه من الرعيّة، ثمّ قطع رأس زوجته بالسيف بسبب بكائها وسبّها "لبوغاتشوف" عند رؤيتها أحداث شنع زوها. وخوفاً من جبروت "بوغاتشوف" انضمت إليه مجموعة كبيرة من الخدم والضباط والأهالي، بما فيهم "شفابرين" المخادع.

علم "بيتر" فيما بعد أنّ "شفابرين" هو ذلك الرّجل ذو الأسماك البالية، الذي ساعده في الطّريق وأهداه "بيتر" معطفه. فعرف "بيتر" أنّ عدم شنق "بوغاتشوف" له كان بسبب ذلك الموقف في النّزل وكأنّه ردّ لجميل "بيتر"، غير أنّه لم يصدّق كيف آلت الأمور إلى ذلك المنحى، بحيث يسيطر ذلك الصّعلوك على كل تلك القلاع والممتلكات؟ وعرض "بوغاتشوف" على "بيتر" الانضمام إليه وأتته سوف يغدقه بالكثير إذا أخلص له، ولكن "بيتر" ردّ عليه بالنّفي؛ بل وأكّد محاربته له عند انضمامه للجيش مرّة أخرى.

غادر "بيتر" إلى "أورنبورغ" وحاول هناك أن يحثّ الأهالي بمحاربة "بوغاتشوف"، غير أنّ الكلّ كان يرهبه. وبمرور الأيام وصل "بوغاتشوف" إلى "أورنبورغ" وحاصرها طويلاً. في أثناء ذلك الحصار، "حصار أورنبورغ" التاريخي، علم "بيتر" أنّ "شفابرين" كان يضغط على "ماريا" لتتزوج به. وعند محاولة "بيتر"

للوصول إلى "ماريا"، فُبِض عليه وسُلم إلى "بوغاتشوف"؛ حيث تمكن "بيتر" من تعريف "بوغاتشوف" أن "شيفابرين" يهين الفتاة اليتيمة باسمه. وليثبت "بوغاتشوف" شهامته ونبله في هذا الشأن ذهب مع "بيتر" إلى القلعة وأنقذ الفتاة البريئة وأطلق سراحها لتذهب مع "بيتر"، رغم علمه في آخر الأمر، بأنها "ابنة القبطان".

وبمرور الأيام، اندحرت قوات "بوغاتشوف"، وفُبِض عليه وتمّ شنقه. ثم اعتقل الجنود "بيتر" بسبب وشاية تقول أنه أحد مناصري "بوغاتشوف"، نسبة لما حدث بينهما من أمر "ابنة القبطان" وأطلق سراحها. هنا عملت "ماريا" جاهدة على خلاصه؛ وبصفتها ابنة "القبطان"، الذي لقي حتفه في الخدمة، تمكنت من مقابلة الإمبراطورة في بطرسبورغ وإقناعها ببراءة "بيتر" والمطالبة بإخلاء سبيله، ثم استلام رسالة منها تأمر بذلك. وأخيراً يتزوج "بيتر" من ابنة قبطان "بيلوغورسك" "ماريا".

لقد رسم "بوشكين" في قصة "ابنة القبطان" صورة ساطعة لانتفاضة فلاحية عفوية، وخلق شخصية قائد الفلاحين "ايميليان بوغاتشوف"، لهجمات القوزاقيين المتمردين على الإمبراطورية؛ فقد كان موضوع الانتفاضات الفلاحية يقلق "بوشكين" منذ بداية الثلاثينات، فاتجه فكره إلى خلق هذه الشخصية، حيث يقوم "بوشكين" بدراسة مواد الأرشيف ويسافر إلى الأماكن التي شملتها الانتفاضة، ويتحدث إلى شهود عيان، ويعمل في نفس الوقت في روايته التاريخية "ابنة القبطان" والمؤلف التاريخي (تاريخ تمرد بوغاتشيف)¹

1. الاسكندر بوشكين، أعلام الأدب الروسي، ترجمة غائب طعمة فرمان، دار رادوغا موسكو، 1894.

ويدلّ هذا الإنجاز العظيم على دأب الأديب للنّهوض بالأدب والارتفاع به إلى
أسمى المستويات، ممّا يجعله مؤسساً للأدب الرفيع وينبوعه الأوّل على مرّ الزمان، ليس
في المجتمع الرّوسيّ فحسب؛ بل وفي العالم أجمع. فهو الشّاعر والأديب، الذي يعجز حتّى
الخصوم عن التقليل من عبقريّته وموهبته الإبداعية.

وقد كان الكاتب الرّوسيّ المشهور "نيكولاي جوجل" يعتبر "ابنة القبطان" أفضل
عمل من النّوع القصصيّ؛ إذ يقول: "النقاء والخلوّ من التّصنع ارتفعا فيها إلى أسمى
درجة، حتّى أنّ الواقع نفسه يبدو متصنّعاً وكاريكاتورياً"¹ كما كتب "بيلينسكي" في تقييم
قصة "بوشكين" "ابنة القبطان" أنّها شيء يضاهاه "يفجيني أونيجين" في النثر. والشّاعر
يصوّر فيها أخلاقيّات المجتمع الرّوسيّ في عهد القيصرية "كاترينا الثانية". والكثير من
الصّور معجزة للكمال في صدقها وحقيقتها محتواها وبراعة تكوينها.

إنّ كتابات "بوشكين" غنيّة ثريّة تصل إلى أسمى المعاني وأرفع الدّرجات، فلدى
"بوشكين" قبل كلّ شيء "الإحساس بالعمل، الذي يجب أن يؤدّيه، والعمل، الذي تمّ أدائه،
يقول: "إني أنظر إلى القصيدة المنجزة من قصائدي كما ينظر الإسكافيّ إلى زوج من
الأحذية ... إني أبيع من أجل الكسب"². كتب "بوشكين" الكثير من المؤلّفات، التي
عبّرت عن الحياة الثقافيّة والاجتماعيّة لروسيا في ذلك الوقت، وانعكس حبه للحرية
والعدالة في كتاباته. كما كتب العديد من القصائد الشّعريّة وزار العديد من البلدان وتأثّر
بها، منها القرم والقوقاز، وتأثّر بالمحيط الإسلاميّ وكتب بعض القصائد التي تشير إلى
هذا التأثير مثل "أسير القوقاز" و"القوقاز" و"الليالي المصريّة"، التي لم يكمل كتابتها،

1. الاسكندر بوشكين، أعلام الأدب الروسي، ترجمة غائب طعمة فرمان، دار رادوغا موسكو، 1894.
2. جون بيلي-تولستوي والرواية. مرجع سابق، ص. 30.

وفي أثناء هذه الزيارات اهتم بتعلّم اللغة العربيّة. كما كتب "بوشكين" في مجالات شتى
وتحدّث عن الطّبيعة والحبّ ووطنية الشعب الروسيّ في معظم أشعاره.

المبحث الرابع

بوشكين والطابع الإسلاميّ

من المدهش أن تخرج مؤلفات يتأثر كاتبها بالرّسول العربيّ والإسلام وفي أرض لا تدين بدين الإسلام، ولكنّا نرى أنّ روسيا أرض خصبة تساعد حياتها الثقافيّة والروحيّة في إطار الظّروف التاريخيّة للقرن الماضي، التي أصبح فيها القرآن "مصدراً للتّعبير عن الأفكار البطوليّة، والشّجاعة الصّلبة والنّضال المنكر للذات في الفترة التي سبقت حركة الدّيسمبريين"¹ إلى جانب القدوة الحسنة من السّيرة النّبويّة، التي يتعامل بها صفوة المثقّفين الرّوس.

يأتي "بوشكين" في مقدّمة الشّعراء الرّوس، الذين اقتبسوا من الإسلام (القرآن والسنة)، أهمّ المؤلّفات، التي لازال الرّوس ومحبيّ الأدب الرّوسيّ يقرأونها ويستمتعون بها وبفنه وعبقريّته؛ فقد كان "بوشكين" معجباً بشخصيّة الرّسول (صلى الله عليه وسلّم) "وقرأ سيرة النّبي الكريم وحاول معرفة كلّ شيء عنه، وفي أثناء إقامته في مدينة "كيشنيوف"، كانت له صديقة إغريقيّة تجيد اللغة الإيطاليّة والفرنسيّة وتحدّث العربيّة بشكل جيّد"² وقد عُثِر في مخطوطات "بوشكين" على أحرف الهجاء العربيّ وشرحها، ممّا يؤكّد أنّ "بوشكين" حاول أن يتعلّم اللغة العربيّة على يد صديقه الإغريقيّة"³ ممّا يدلّ على حرصه على تلك اللغة.

1. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربيّة إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 134.
2. فيرسايف، أصدقاء بوشكين، موسكو، 1973، ص 284.
3. بيليكن، الشرق في إبداع بوشكين، موسكو، 1970، ص 164.

هناك الكثير من كتابات "بوشكين" وقصائده ذات الأهمية الكبيرة عند الباحثين والنقاد الروس، وخاصة ملحمة "محاكاة القرآن" (The Imitation of Quran) وقصيدة (النبي) (The Prophet)، اللتان تحتويان فنوناً كلامية جميلة وأساليب شعرية فريدة يدلّ مضمونها على معرفة "بوشكين" بالقرآن وتأثره به. وقد حاول "بوشكين" تحري الدقة في اقتباسه من سور القرآن الكريم، فسعى إلى نقل روح الكتاب المقدس وتعاليم الإسلام بأسلوب جمع فيه الدقة المتناهية والصدق البحت مما يمكن أن يغرس من خلاله هذه العقيدة في قلوب الناس.

ولم يتوقع بعض الباحثين توجه "بوشكين" نحو القرآن، ووقف البعض الآخر ضد ذلك التوجه، لما سيكون له من تأثير على الأدب في روسيا خاصة والعالم أجمع، فقد استخدم "بوشكين" أكثر من ثلاثين سورة من سور القرآن الكريم في "محاكاته للقرآن".

إضافة إلى ذلك، فإنّ "بوشكين" كان يجد في القرآن ملاذاً له في محنته وظروفه القاهرة، التي كان يعيشها تحت ضغوط القيصر والسلطات ورجال الدين، فرأى في النبي الكريم (صلوات الله وسلامه عليه) الملاذ الروحي والمرشد الأخلاقي والمثال الأعظم، الذي يُحتذى به. كما أنّه رأى في القرآن الكريم قمة الصفاء ومنبع الإلهام وصدق المعنى؛ لذا لجأ الأديب والشاعر الروسيّ "بوشكين" إلى ذلك الملاذ فأخرج من جعبته درراً للأدب الروسيّ خاصة والعالميّ عامّة.

ومن الأعمال التي تأثر فيها "بوشكين" بالثقافة العربية والإسلامية نذكر ملحمة "محاكاة القرآن" (1824م)، وقصيدة "الرسول"، أو "النبي" عام (1826م)،

والملمحة الأسطورية "روسلاو ولودميلا" (1820م)، التي تأتّر فيها بقصص "ألف ليلة وليلة"، و "مسلم مسكين" التي كتبها في منفاه بالجنوب، وغيرها الكثير.

ومن بين السّور التي تأتّر بها "بوشكين" وظهرت في قصائده سور (الضحى وفاطر والمدنّر والتّوبة والنّحل والأنفال والحجر والإسراء والمائدة والأحزاب) وغيرها، ولا غرابة في ذلك، فقد قرأ "بوشكين" في منفاه القرآن باللغتين الرّوسية والفرنسيّة، وأشار الشّاعر إلى ذلك عندما كتب من قرية "تريغورسك" (Trigorsk) لأخيه في بطرسبورغ رسالة يقول فيها "إنّي مشغول بكلمات القرآن"¹.

وقصيدة "بوشكين" بعنوان (النّبي) تتناول المرحلة المبكّرة من النّبوة، وتوكّد مرّة أخرى تأتّره بالسّيرة النّبويّة، وبآيات من سور القرآن الكريم. يستهلّ "بوشكين" قصيدة "النّبي" - أو الرّسول- بمقطعين يلقبان الضّوء في عجالة على ظروف النّبي محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) قبل تلقّيه للوحي مباشرة، فتبيّن تميّزه الرّوحي وتأمّلاته في الكون وبحثه عن حقيقة الوجود ورغبته في ترك أهله واللجوء إلى العزلة في الصّحراء لإيجاد إجابات شافية لما يعتل في نفسه من أفكار. يقول في قصيدة "النّبي":

النّبي

يضنينا عطش الروح

وفي الصّحراء الموحشة كنّا نتمدّد

1. بوشكين، المؤلفات الكاملة، المجلد العاشر، موسكو، 1958، ص 106

ثم يقول:

فظهر لنا في مفترق الطّريق

سارافيم ذو الأجنحة الستة

وبأصابع خفيفة مثلما في حلم

لمس قرّة عيني فانفجرت مقلّتاَي النبويّتان

كأُهما عينا نسر مذعورا

يتّضح هنا أنّ الشّاعر على معرفة برسالة الله تعالى إلى النّبي محمّد (صلوات الله وسلامه عليه) وذلك عن طريق ملك الوحي، الذي وصفه "نو الأجنحة الستة". وكما ذكرت الأدبية الكبيرة مكارم الغمري، لعلّ "بوشكين" قد استلهم ذلك من صورة جبريل ذي الأجنحة الستة من "الآية (1) من سورة فاطر (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعٍ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1))²، وبعد أن تتمّ عملية التحصين الروحيّة والجسديّة للنّبي (صلى الله عليه وسلّم) يختتم "بوشكين" قصيدته بالقول: "وناداني صوت الله انهض، يا رسول، وأبصر، لبّ إرادتي، وجب البحار والأراضي وألهب بدعوتك قلوب الناس". فهذا دليل على أنّ "بوشكين" على معرفة برسالة المولى عزّ وجلّ إلى الرسول الكريم وبعثه للدّعوة إلى الله.

1. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق ص 136.
2. الآية 1 من سورة فاطر.

المبحث الخامس

بوشكين والقرآن

ملحمة محاكاة القرآن

لعلّ "بوشكين" أيضاً قد استند في معلوماته عن السنة النبويّة من القرآن الكريم؛ فقد سار على هدي نماذج منه في ملحمة "محاكاة القرآن"، التي تتكوّن من تسع قصائد مختلفة الطول والبحر، تتناسب مع الآيات القرآنية، التي اقتبس منها وأسّس عليها أشعاره، وقد "حاكى" فيها "بوشكين" الكثير من آيات القرآن، التي ترجمها في تلك القصائد التسع، سائراً على نهج نماذج منه فكّفى وأوفى.

تمّت كتابة ملحمة "محاكاة القرآن" في عام (1824م)، أي العام الذي حدث فيه تطوّر لم يسبق له مثيل في أدب "بوشكين" بسبب الظروف الاجتماعيّة التي كان يعيشها في تلك الفترة؛ وهي فترة إقامته في المنفى في ضيعة "ميخائيلوفسكي" السابقة لحركة الديسمبريين. وهي تعكس المكانة الهامّة التي أحدثها القرآن الكريم في التطوّر الروحي لبوشكين، فحسب الباحثين أنّ القرآن الكريم أعطى أوّل دفعة للنهضة الدنييّة عند "بوشكين"، ومن ثمّ فقد كان له أهميّة ضخمة في حياته الداخليّة.

تتألّف ملحمة "محاكاة القرآن" من تسع قصائد مختلفة الطول والبحر لا تحمل عناوين ومدرجة بتسلسل الأرقام، وهي تتناسب مع الآيات القرآنية، التي اقتبس منها وأسّس عليها أشعاره. ففي مقطع حاكى فيه القسم القرآنيّ في آيات عديدة (والشّفع، والتّجيم والصّبّاح).

ورغم ثراء هذه المادّة، يكتفي البحث بمقاطع صغيرة لتحليل ما اقتبسها "بوشكين" من سور القرآن، لإعطاء نماذج تفي بالغرض وتبيّن مقاصد هذا البحث.

يستلهم "بوشكين" من سورة الضّحى بعض المعاني، التي تشير إلى تأثر الرّسول (صلوات الله وسلامه عليه) عندما انقطع عنه الوحي فترة من الزمن لم يحدث قبلها مثل ذلك الانقطاع فأحزنه ذلك الانقطاع؛ يقول الله تعالى في الآيات (1 – 3) من سورة " الضّحى " (وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3))¹، يقول في مقطع من القصيدة الأولى في ملحمة "محاكاة القرآن"²:

أقسم بالشّفق وبالوتر،

أقسم بالسيف وبمعرفة الحقّ،

أقسم بالنّجم والصبح،

أقسم بصلاة العشاء

لا ، لم أوّدّعك

ويبدو من كلمات القصيدة أنّها تتناسب مع الآيات الثلاثة الأولى من سورة "الضحى"؛ فالمولى عزّ وجلّ ينفى تخليه عن النّبي (صلى الله عليه وسلم)، ويحاكي فيها

1 . الآيات 1-3 من سورة الضّحى.
2. ترجمة: د. إبراهيم استنبولي- سوريا- موقع "دروب"، فبراير 2007.

الشاعر "بوشكين" القسم الوارد في آيات القرآن الكريم، فيظهر تأثير القرآن واضحاً في تلك "المحاكاة".

ويتابع الشاعر هذه الأبيات مقتبساً معاني الآيات السادسة والسابعة والثامنة من نفس السورة "الضحى" التي يقول الله تعالى فيها: (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (8)) فيقول:

فَمَنْ إِذْنِ شَمَلْتُ بِرَعَايَتِي،

وَأَنْزَلْتَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِ

وَحَمَيْتَهُ مِنَ الْمَطَارِدَةِ الْقَاسِيَةِ

فأله - جلّ وعلا - يتولاه برعايته وينزل عليه السكينة ويواسيه عند محنته وحزنه وهمّه، الذي لاقاه من أهل الطائف عندما كُتّمهم عن الإسلام ودعاهم إلى كلمة التوحيد، فيحميه من مطاردة الأوباش والسفهاء والعبيد، الذين كانوا يسبّونه ويرمونه بالحجارة، فيحرك المولى - سبحانه وتعالى - عاطفة أهل البستان، الذي لجأ إليه النبي (صلى الله عليه وسلم)، فيصرفوهم عن الرسول الكريم. في هذه الأبيات يتضح تأثير القرآن على "بوشكين" ومعرفته بالقصص القرآني الكريم.

يتابع "بوشكين" قبساته من القرآن الكريم فيذكر في منتصف القصيدة قصة خروج النبي (صلى الله عليه وسلم) مع صاحبه من مكة إلى المدينة التي وردت في الآية

(40) من سورة "التوبة" (فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ

الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40))¹. يقول:2

ألستُ أنا الذي رويتك في يوم قيظ

بمياه الصَّحارى؟

ألم أهب لسانك

سلطة جبارة على العقول؟

اصمد إذن وازدري الخداع

حتى يصل في ختام القصيدة إلى المقطع الذي يدلّ على الآية (9) من سورة

"الضحى" (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9))³، يقول:

أحبب اليتامى، وقرآني

وبشّر المخلوقات المهترئة⁴

نظم "بوشكين" هذه الأبيات متأثراً فيها بالقرآن الكريم والسنة النبوية وقراءة

معاني القرآن باللغتين الروسية والفرنسية، فبدا ذلك واضحاً على أشعاره ومعاني كلماتها

1 . الآية 40 من سورة التوبة.

2. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 149.

3 . الآية 9 من سورة الضحى.

4. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 150.

" أحبب اليتامى، وقرآني"، فهذه معانٍ غريبة على المجتمع الروسيّ نابعة من معاني القرآن الكريم وموضحة تأثر الشاعر به.

في القصيدة الثانية من ملحمة "محاكاة القرآن" يتطرق "بوشكين" إلى الآيات القرآنيّة، التي تخاطب نساء النبي الطّاهرات للالتزام بالحجاب حتّى لا يطمع الذي في قلبه مرض، وذلك كما جاء في الآية الكريمة (33) من سورة "الأحزاب"؛ حيث يقول - عزّ وجل: (وَقرنَ فِي بُيوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأولى (33))¹. يصور "بوشكين" هذا المضمون في القصيدة كما يلي²:

إيه، يا زوجات الرّسول

أُتكن تختلفن عن كل الزوجات

فحتّى طيف الرذيلة مفزع لكُنّ

في الظلّ العذب للسّكينة

عشن في عفاف، فقد علق بكنّ

حجاب الشّابّة العذراء

1. الآية 33 من سورة الأحزاب.
2. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 150.

فيوشكين هنا يشير إلى آداب الحجاب، التي أمر الله بها أمّهات المؤمنين، اللواتي
يختلفن عن "كل الزوجات"، أي أئهن مثال تحتذي به المؤمنات فينتهجن نهجنّ و"يعشن
في عفاف" بذلك الانتهاج الكريم.

وفي نفس القصيدة في مقطع آخر يقول "بوشكين":

أمّا أنتم يا ضيوف محمّد

وأنتم تتقاطرون على أمسياته،

احذروا فبهرجة الدنيا

تكدّر رسولنا

فهو لا يحبّ التثاريين

وكلمات غير المتواضعين والفارغين:

شرفوا مآدبته في خشوع

وانحنوا في أدب

لزوجاته الشابّات المحكومات

"يحاكي" بوشكين في هذه الأبيات الآية (53) من سورة "الأحزاب" (يا أيّها
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاطِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا
دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ

فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مَنْ الْحَقَّ (53))¹. وتقول الأديبة مكارم الغمري "إنَّ استلهام "بوشكين" لمعاني هذه الآيات من سورة "الأحزاب" يأتي متسقاً مع نفوره الشّخصي من بهرجة النّساء في طبقته الارستقراطية وخروجهنّ عن الاحتشام، وافتقاد البعض منهنّ لمعنى الوفاء والإخلاص للزوج والأسرة، كما تعكس انجذاب "بوشكين" تجاه النّمودج الإسلاميّ في العفّة والوفاء"²؛ حيث إنّ "بوشكين" كان قد قُتل في مبارزة مع غريمه، الذي ربطت الشّائعات بينه وبين زوجة الشّاعر.

تتحدّث القصيدة الثالثة عن صفة التّواضع التي تطرّق إليها القرآن في سورة "عبس" عند إقبال النّبي (صلى الله عليه وسلم) على صنّاديد قريش وإعراضه عن "عبد الله بن أم مكتوم" المسلم الأعمى وهو يستفسر عن بعض أمور الدّين من النّبي (صلى الله عليه وسلم)، يقول عزّ من قائل: (عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (4) أَمَّا مَنْ اسْتَعْنَى (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (7) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (8) وَهُوَ يَخْشَى (9) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (10))³، تقول الأبيات:

بشّر بالقرآن في سكينه

دون أن تجبّر الكفار

1. الآية 53 من سورة الأحزاب.
2. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 151.
3. الآيات 1 - 10 من سورة عبس.

فهي تشير إلى معرفة "بوشكين" بنصائح القرآن وشعوره بالانعطاف الرّوحي تجاه الإيمان بكلمات القرآن ممّا جعله يخرج هذه "القبسات" موضّحاً معرفته بسماحة القرآن وعدم العنت والإجبار عند نشر الدّعوة.

ويواصل في قصيدته الرّابعة ذلك المعنى، فيكتب أبياتاً تتضمّن معنى الآية (258) من سورة "البقرة"، التي تذكر مجادلة النّمروذ، الذي أبطره الملك، لإبراهيم: (أَلَمْ نَرِ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258)).¹ تقول أبيات قصيدة "بوشكين":

لكنّ خيلاء الإثم خفتت

من كلمتك الغاضبة:

سأرفع الشّمس من المشرق،

فأرفعها أنت من المغرب

تحقّق هذه الأبيات معنى الآيات في تصوير الشّاعر لمكابرة وتليبس الكافر، الذي يستلهم معناها في هذه الأبيات من قصّة "النّمروذ"، والذي "تخفت خيلاؤه" عندما يؤكّد له إبراهيم (عليه الصّلاة والسّلام) أنّ الله - عزّ وجلّ - يأتي بالشّمس من

1. الآية 285 من سورة البقرة.

المشرق ويطلب منه أن يأتي بها من المغرب، ممّا يوضّح معرفة "بوشكين" بالقصص القرآني وإمامه بما تدلّ عليه هذه الآيات.

أمّا القصيدة الخامسة، فيتحدّث فيها أيضاً عن الإيمان والتأمّل الماديّ في الكون ليستدلّ به على موضوع الألوهيّة مستحضراً بعض الآيات من سورتَي "لقمان" و"النور". يستلهم "بوشكين" من سورة "لقمان" الأبيات التالية:¹

الأرض ساكنة، السّماء بلا عمد،

الخالق الذي نعتمد عليه،

لن يسقط السّيل على اليابس

ولن يقهرنا وإيّاك.

يستلهم "بوشكين" تلك الأبيات من الآية (10) من سورة "لقمان"، التي يقول فيها المولى عزّ وجلّ: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بَعِيرٍ عَمَدٍ تَرْوَاهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10)).² أما اقتباس "بوشكين" من سورة "النور" فيوجد في الآية (35) (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ (35)).³ تقول الأبيات:

1. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 155.
2. الآية 10 من سورة لقمان.
3. الآية 35 من سورة النور.

لقد أضاءت الشّمس في الكون،

وأضاءت أيضاً السّماء والأرض،

مثل نبتة كتّان تمتليء بالزيت،

تضيء في مصباح بلّوري.

ألا تدلّ تلك الأبيات على اقتباس الشّاعر لمعاني الآيات الكريمة في إضاءة جلالة المولى - عزّ وجلّ - للسمّوات والأرض وتشبيهه لذلك الضّوء "بنبتة كتّان تضيء في مصباح بلّوري"، ممّا يدلّ أيضاً على معرفته لمعاني القرآن الكريم ومحاكاته لها.

في القصيدة السادسة يلاحظ إعجاب "بوشكين" بالجهاد في سبيل الدّعوة واقتباس تلك الصّورة، التي تشبه موضوعات "بوشكين" التي تتحدّث عن الرّاعي والرّعية فهو، كما أشارت الأدبية مكارم الغمري "يرسم من خلال صورة الرّسول الملامح المثاليّة للقائد القدوة فروح البطولة الإسلاميّة تعبر آفاق الزّمان والمكان لتجد تربة خصبة لها في الواقع الرّوسيّ في الثلث الأوّل من القرن الماضي وتصبح قريبة من روح الدّيسمبريين وفكرهم"¹، وقد حدثت فعلاً انتفاضة الدّيسمبريين في العام التالي من ظهور ملحمة "بوشكين" في "محاكاة القرآن".

لقد "حاكى" "بوشكين"، في مقاطع القصيدة السادسة أيضاً، مختلف أنواع الجهاد المذكورة في سور القرآن مثل الآيتين (18- 19) والآية (27) من سورة

1 . د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 157.

"الأحزاب"، وجميعها يتطرق لموضوع الجهاد ومغانم الحرب. ويذكر هنا ما استلهمه "بوشكين" عن الجهاد بالنفس والتبشير بالجنة من الآيات (10 - 12) من سورة "الصف" (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (11) يَغْفِرْ لَكُمْ دُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12))¹. يقول الشاعر:

الشهداء الساقطون في المعركة

هم الآن في الجنة

يغرقون في نعيم

لا ينغصه شيء

يقتبس هنا معنى الجهاد بالنفس وما يعقبه من تبشير بالجنة، فيؤكد معرفته بذلك المفهوم الإسلامي، حيث إن الشهداء الذين يسقطون في ميدان القتال سيكون مصيرهم إلى الجنة، التي يبشّرون بها الله تعالى ليهنأوا في نعيم مقيم.

في القصيدة السابعة يتطرق "بوشكين" إلى قيام الرسول بالليل وتبئله الله، وقد اقتبس أبيات القصيدة من الآيات (1-10) من سورة "المزمل": " يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) فَمِ اللَّيْلِ إِنَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4) إِنَّا

¹ . الآيات 10 - 12 من سورة الصف.

سَأَلْتَنِي عَلَيْكَ قَوْلًا تَقْبِلُنَا (5) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيْلًا (6) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (7) وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (8) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (9) وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (10))¹.

تتناول الأديبة مكارم الغمري هذا الموضوع وتشرحه شرحاً مستفيضاً وبصورة منطقية محللة لشخصية ونفسية الشاعر، فتصل إلى نتيجة شبه حتمية إلى ما يرمي إليه "بوشكين" من معاني مقتبسة من القرآن. فأبيات القصيدة السابعة التي اقتبسها "بوشكين" من سورة "المزمل" تقول:

انهض أيها الوجل

ففي كهفك

مصباح مقدس

يضيء حتى الصباح

وبصلاة خالصة

تتحى يا رسول

الأفكار الشجية

والأحلام الشيطانية

1 . الآيات 1 – 10 من سورة المزمل.

وأقم الصلّاة في

خشوع حتى الصّباح

والكتاب السّماوي

أقرأه حتّى الصّباح

تحلّل الأدبية تلك الأبيات بأنّ "فكرة السّهر ومجاهدة النّفس في سبيل الدّعوة كانت هي السّبب وراء استلّهام "بوشكين" لمعاني الآيات (1 - 10) من سورة "المزمل"¹، فالمعنى مكتسب من الظروف التّاريخية في ذلك الوقت، التي تتسم بالجهاد والفكر والرّأي. ويبدو ذلك تحليلاً منطقيّاً لما يستلّهمه الشّاعر بما ترمي إليه الآيات من معنى.

وتتناول القصيدة الثّامنة صفة الصّدقة وما يتبعها من جزاء لمنفقها. وقرّن الشّاعر تلك الصّورة بواقعه، الذي كان يعيشه في مآسي الفقر والبؤس، وتلك المعاني يقتبسها من الآيات (262 - 264) من سورة "البقرة"، التي يقول فيها المولى جلّ وعلا: (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (262) قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يُتْبِعُهَا أَدَىٰ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (263) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَدَىٰ كَأَنذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ ثُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

1. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 160.

(264)¹ ، مشيراً فيها أيضاً إلى التّهي عن المنّ الذي يتبع الصدقة ومصير صاحبه من زوال التّواب نتيجة لمنّه بعد العطاء.

وتأتي أخيراً القصيدة التّاسعة، التي سوف يعتمد البحث في إيضاحها كلياً على ما تناولته الأدبية مكارم الغمري في كتابها "مؤثرات عربيّة وإسلاميّة في الأدب الرّوسيّ"، وسوف تذكر الرّسالة مجمل القبسات في هذه القصيدة بشكل تفصيليّ، لما لها من معنى جمالي وقصّة تتوالى أحداثها بحيث لا يمكن فصل أجزائها.

يستلهم الشّاعر في القصيدة التّاسعة من "قبسات من القرآن" في معنى الإيمان من خلال البعث، ويستقي من القرآن مضمون قصيدته من سورة "البقرة" أيضاً الآية (259): (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259))². يقول الشّاعر:

وتذمّر إلى الله عابر السّبيل المتعب

فقد أضناه الظّمّ والحنين إلى الظّل

وضلّ في الصّحراء ثلاثة أيام وثلاث ليال

1 . الآيات 162 – 264 من سورة البقرة.
2 . الآية 259 من سورة البقرة.

وأرهب الغيظ والغبار مقلتيه
وبحسرة يائسة استدار حوله
فشاهد فجأة بئراً تحت النخلة
فأسرع الخطى نحو نخلة الصحراء
وبتبار بارد روى في نهم
لسانه وقرت عيناه شديداً بالتهاب
ورقد قرب حماره الوفي
ومرت فوقه سنوات طويلة
بمشيئة رب السماء والأرض
ثم أتت للعابر ساعة الاستيقاظ
فنهض وسمع صوتاً غير مرئي
"أنمت عميقاً في الصحراء من زمن؟"
فيجيب: ها هي ذي الشمس عالية،

كانت تسطع البارحة في سماء الصّباح

ونمت عميقاً من الصّباح حتّى الصّباح

لكنّ الصّوت قال: أه يا عابر، لقد نمت أطول،

أنظر، رقدت شابّاً ونهضت كهلاً،

وقد فنيت النّخلة، أمّا البئر الباردة

فقد نضبت وجفّت في الصّحراء القاحلة،

وحملته من زمن رمال السهول،

وابيضّت عظام حمّارك".

واحتوى العجوز حزن خاطف

وانتخب وهو ينكّس رأسه المهتّزة،

وآنذاك حدثت معجزة في الصّحراء:

فقد بُعث الغابر في حُسن جديد،

ومن جديد تأرجحت النخلة برأسها الظليل،
ومن جديد سرت في البئر برودة وشبورة،
وانتصبت عظام الحمار المتداعية،
واكتسى الجسد وأصدر النهيق،
وأحسّ العابر بالقوّة والبهجة،
وتألّق في دمائه الشّباب المتفجر
وملأ صدره الانشراح المقدّس،
وانطلق مواصلاً طريقه مع الله.¹

ألا يتضح في معنى تلك الآية ما استلهمه الشّاعر منها؟ فالآية تحكي قصة الرجل،
الذي "مرّ على قرية، وهي "بيت المقدس"، راكباً على حمار ومعه سلّة تين وقدح
عصير، وهو "عزير"، وهي ساقطة سقوفها فقال: "كيف يحيي هذه الله بعد موتها؟"،
استعظماً لقدرته تعالى، فأماته الله وألبّثه مائة عام ثم أحياه ليريه كيفيّة ذلك. قال تعالى
له: "كم مكثت هنا؟" قال: "يوماً أو بعض يوم!"، لأنه نام أول النّهار وأحيي عند
الغروب، فظنّ أنّه نام يوماً واحداً فقط. قال: "بل لبثت مائة عام، فانظر إلى طعامك
وشرابك لم يتغيّر مع طول الزّمان، وانظر إلى حمارك"، فرآه ميتاً وعظامه بيض تلوح!

¹ . د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 163.

قال الله تعالى: "فعلنا ذلك لتعلم ولنجعلك آية على البعث، وانظر إلى عظام حمارك كيف نحيتها"، فنظر إليها وقد تركبت وكسيت لحماً ونفخ فيه الروح ونهق، فلما رأى ذلك بالمشاهدة قال: "أعلم أنّ الله على كل شيء قدير"¹

يتضح أنّ بوشكن استلهم قصيدته من هذه الآية، وأنه على علم بالبعث بعد الموت. غير أنّ تفسيرات النقاد للقصيدة التاسعة كانت متباينة؛ حيث "استبعدت المستشرقة "كاشتاليوفا" (Kashtaleva) اقتباس "بوشكين" لمضمون القصيدة من القرآن، وعلّلت هذا الرأي بأنّ التطوّر البطيء المتعاقب منطقياً للحدث والتفاصيل والوصف وطول الوقت ليس مميّزاً للقرآن"² أمّا الناقد "سولوفوي" (Solovoy) فيقول "إنّ موتيفة البعث بإرادة الله في القصيدة التاسعة، هي إحدى الموتيفات القرآنية المحبّبة"³

وهكذا فإنّ "بوشكين" أخذ بعض آيات القرآن كما جاءت في النصّ المترجم متخذاً طابع الشّعر الرّوسيّ سمة لها. وإذا ما تمّت مقارنة قصائد ملحمة "محاكاة القرآن" مع نصّ القرآن المترجم إلى اللغة الرّوسيّة، فلن يوجد فرقاً يُذكر، غير أنّ الشّاعر ضمّن القصائد أفكاراً جديدة، ولكن بروح القرآن الكريم. " تقول النّاقدة الرّوسيّة "كاشتاليوفا": "لقد نقل "بوشكين" حرفياً من نصّ القرآن المترجم خمس نصّ قصيدته" وهذا بالطبع لا يكون كافياً إذا أراد الشّاعر أن يقلّد مضمون النصّ القرآنيّ. وتقول

1. السيوطي، تفسير الجلالين، دار ابن كثير، سنة 1994، ص 43.
2. ك. كاشتاليوفا، "قبسات من القرآنومصادرّها الأولى"، النشرة الدورية لزمالة المستشرقين، ج 5، ليننجراد، 1930، ص 260.
3. ن. سولوفوي، "خصائص الاقتباس عن القرآن" في قبسات من القرآن" لبوشكين، في كتاب "بوشكين في بلدان الشرق"، موسكو، 1979، ص 130.

"كاشتاليوفا" أيضاً: "يمكن أن نعتقد أنّ "بوشكين" ليس مسيحيّاً؛ بل مسلم الأصل"¹ وهذا ما يبدو عليه "بوشكين" لاهتمامه الكبير بالقرآن.

ربما يكون رأي "كاشتاليوفا" مصيباً في احتماليّة أنّ الشّاعر مسلم الأصل؛ إذ يبدو في اقتباسه للآيات القرآنيّة تقارباً وميلاً إلى الإسلام عنه إلى المسيحيّة، وذلك لما تتضمّنه تلك القبسّات من فهم ومعرفة كبيرة للقرآن الكريم والسنة النبوية، ممّا يقرب تلك الاحتماليّة الإسلاميّة في أصله.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ إعجاب "بوشكين" بالقرآن له أسباب عديدة، منها ما يتعلق بالظّروف السياسيّة التي جعلته منفيّاً في قرية نائية مهجورة، وما أعقب ذلك من معاناة نتيجة حصاره في بيئة فقيرة وظروف اقتصاديّة قاسية. وقد أضاف المؤلّف الأديب مالك صقور في كتابه "بوشكين والقرآن" إلى ما سبق، سببين آخرين: أحدهما نفسيّ، ومبعثه الأصول الأفريقيّة، التي ينتمي إليها "بوشكين". وثانيهما موهبة "بوشكين"، التي استوعبت الثقافة العربيّة الإسلاميّة بصورها الإبداعية الرائعة، وهو القائل: "إنّ العرب ألهموا ملاحم العصور الوسطى، النّسوة الروحيّة، والرّقّة والحبّ ومناصرة الخير والبلاغة"².

لقد قدّم "بوشكين" للإسلام والمسلمين خدمة كبيرة من خلال أدبه وأشعاره، فقد أسهم من خلال شعره بنشر اسم القرآن في روسيا وبتعريف القراء الرّوس باسم محمّد (صلّى الله عليه وسلّم)؛ لأنّهم يقرأون شعر "بوشكين" ويتابعون كلّ ما صدر له.

¹. مذكرات المستشرقين في متحف آسيا، ليننغراد، المجلد الخامس، 1930، ص 274.
². بوشكين والقرآن، دراسة في الأدب المقارن للأديب مالك صقور، دمشق، دار الحارث، 2000.

فبوشكين، كما يقول عنه الكاتب الكبير "جوجل": "بوشكين" معجم انحصر فيه كل غنى لغتنا وقوتها ومرونتها. إنه ظاهرة خارقة، ولعلّه الظاهرة الوحيدة التي تجلّت فيها الروح الروسيّة".¹

لقد وجد "بوشكين" في القرآن منهلاً ثراً يغدّي إبداعاته الشعريّة وملاذاً روحياً في محنته، في سنين النفي؛ لأنّ القرآن - على حد قوله - نصّ مقدّس يتضمّن الشعر² والموسيقى والبلاغة والكثير من القيم الأخلاقيّة، يقول: "إنّ الكثير من القيم الأخلاقيّة موجزة في القرآن في قوّة وشاعرية"³. وجعل "بوشكين" من القرآن (ربيع قلبه)، فنقل منه إلى شعره ميزة الإيقاع الموسيقيّ وميزة التنوّع في السّور طويلاً وقصراً، إلى جانب التنوّع في نظام الفواصل والقوافي.

وبما أنّ "بوشكين" رأى في شخصيّة النّبي (صلوات الله وسلامه عليه)، المثال والقُدوة والحكمة والتّواضع والرّحمة والعطف وأعجب بفكرة العطاء والزكاة والصدقات وإكرام اليتيم، فقد استلهم روحانيّة المشرق من خلال آيات القرآن وسيرة النّبي (صلّى الله عليه وسلّم). يقول النّاقّد الكبير "بيلنسكي": "بوشكين" شاعر كلّ الشّعوب لكلّ العصور، وقد اهتمّ فقط بالنّمادج الإنسانيّة الخيرة، من حضارات الشّعوب الأخرى" وعن ملحمة "محاكاة القرآن" يقول: "إنّها الماسّة البراقّة الصّافية في تاج "بوشكين" الشعري"⁴.

¹ .النصوص المترجمة عن الروسيّة من مؤلّفات بوشكين الكاملة بالروسيّة موسكو، 1974.
² .نفي القرآن أن الرّسول شاعر وأن إعجاز القرآن يختلف ولا يتضمّن الشعر.
³ .أ. بوشكين، المؤلّفات الكاملة، ج 2، موسكو، 1977، ص 193.
⁴ . المرجع نفسه.

ويورد الشاعر "فاسيلي جوكوفسكي" (Vasily Zhukovsky) في كتابه "بوشكين والرومانسيّة الروسيّة" قصيدة من تأليف الاسكندر "بوشكين"، يدلّل فيها على استلهاهم الشعراء الرّوس موضوعاتهم ومفرداتهم من التّراث الشّرقيّ، ومفردات القرآن الكريم، التي تتسم بقسم المولى- عزّ وجلّ- ببعض المخلوقات، ممّا يشير إلى معرفتهم بالإسلام ومفرداته والنّبي محمّد (صلّى الله عليه وسلّم)، تقول القصيدة:

أقسم بمكّة المقدسة / أقسم بالفرس والزيتونة
أقسم بالشّفرة المصقولة / أقسم بالسيف المسلول
أقسم بحوريات الجنّة / والنّبي محمّد
إمّا أن تكوني لي / أو لن تكوني لأحد¹

كلمات عديدة في هذه الأبيات تدلّ على استلهاهم "بوشكين" لكلمات القرآن والقسم القرآنيّ، إلى جانب معرفته بالنّبي محمّد (صلّى الله عليه وسلّم)، منها (مكّة المقدسة، حوريات الجنّة، النّبي محمّد).

وجدير بالذّكر أنّ الشاعر الرّوسيّ "بوشكين" تضمّنت مؤلفاته أيضاً ذكر الشّيطان، الذي يغوي الإنسان ويحدّثه بالسّوء. ففي إحدى قصائده التي يسمّيها بنفس اللفظ "الشّيطان" ، يقول²:

1. الأديب مالك صفور، كتاب (بوشكين والقرآن)، مجلة الموقف الأدبي، دمشق، العدد 421، 2006.
2. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 168 (ترجمة د. الغمري نقلاً عن الأصل المنشور في مؤلفات بوشكين الكاملة، ج 2، ص 144).

الشيطان

في تلك الأيام ، حين كان جديداً بالنسبة لي
كل انطباعات الوجود -
ونظرات الشابات، وضجيج البلوط،
وغناء البابل ليلاً،-
حين كانت المشاعر السامية
الحرية، المجد والحب
الفنون الملهممة
كانت تقلق الدم بشدة،
ساعات الأمل والمتع
والحسرة على الخريف المباغت
آنذاك كان يعاودني سرّاً
متمثلاً لي في حنق
وكانت لقاءاتنا حزينة:
ضحكته، نظراته العجيبة،
أحاديثه اللاذعة
كانت تسكب في الروح السمّ البارد.

وبوشايية لا تنضب
كان يوسوس بنبوءة.
كان يستصرخ الحلم الرائع
كان يزدي الإلهام
لم يكن يؤمن بالحب، بالحريّة
كان ينظر إلى الحياة في تهكم
وما من شيء في الطبيعة كلها
في مباركته كان راغباً¹

من مُسمّى القصيدة، التي تأخذ اللفظ العربيّ نفسه "الشيطان"، إضافة إلى المعاني، التي وردت في القرآن الكريم وتدلّ على طبيعة الشيطان، وهي الوسوسة في الآيات القرآنية من سورة "الناس" " فُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ (6)"². يتّضح أنّ الشاعر الروسيّ "بوشكين" قد استلهم أبياته من تلك المعاني. وبحسب د. مكارم الغمري أنّ "بوشكين" يُبرز "الشيطان" في القصيدة "كتعبير عن روح التكبر والتعاضم والازدراء. وتشير إلى أنّه كان يسعى في هذه القصيدة "الشيطان" إلى "التعبير عن هدف أخلاقيّ، وأنّ هذا الهدف يأتي في إطار تصوّر

1 . د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 168 (ترجمة د. الغمري نقلًا عن الأصل المنشور في مؤلفات بوشكين الكاملة، ج 2، ص 144).
2. الآيات 1 - 6 من سورة الناس.

الشاعر الألماني "جوته"، الذي يرى في "الشيطان" عدواً أزلياً للإنسانية وتجسيدا
لروح الإنكار"¹

وهذا بالفعل ما تبدو عليه معاني أبيات الشاعر، التي تشير إلى وسوسة الشيطان
وما بيّته ذلك العدو الرباني في النفس البشرية من سموم وازدراء للمبادي وتهكم
بالحياة، فهذا هو المبدأ الذي يعمل من أجله منذ خلق الله تعالى للخلق.

لقد لعب القرآن والسنة دوراً كبيراً في تطور الشاعر الروحي وغيره من رواد
الحركة الوطنية الروسية، كما أنّ ملحمة "قبسات من القرآن" كان لها تأثير كبير على
الأدباء الروس، فظهرت العديد من المؤلفات الروسية، التي تستلهم من القرآن معانيه
الطّيبة.

انقضت سنوات "بوشكين" الأخيرة في ظروف عسيرة، في حالة توتر متزايدة
في علاقاته مع القيصر، وعداء للشاعر من جانب الأوساط ذات النفوذ من أرستقراطية
بترسبورغ المرتبطة بالبلاط. ثم أحيكت تلك المؤامرة الدنيئة، التي تقرن اسم زوجته مع
المهاجر الفرنسي "دانتييس" (Dantes) ممّا يؤدي في نهاية الأمر إلى مبارزة "بوشكين"
مع ذلك الفرنسي. أصيب "بوشكين" في هذه المبارزة بجرح بليغ أودى بحياته في 10
فبراير من عام (1837)، فقضت تلك المبارزة الفاجعة على حياة الشاعر العظيم في أوج
ازدهار موهبته اللامعة. وقد هزّ موت الشاعر المبكر روسيا كلّها، وعبر "ميخائيل

1 . د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 169 (بتصرف).

ليرمونتوف" عن مصاب الشعب وحنقه في قصيدته "موت شاعر"، وسرعان ما عوقب هذا الشاعر بالنفي جزاء لقصيدته.

ذلك هو "بوشكين" الأديب الروسي، الذي تأثر إنتاجه بالموضوع الشرقي نتيجة لتعمقه واهتمامه بهذا المجال، بالإضافة إلى جذوره الشرقية، التي ساعدت في ثراء ذلك الإنتاج. ويدين للشاعر الروسي العظيم بالكثير العديد من الكتاب الكبار الروس الذين جاؤوا من بعده، ومن بينهم تلامذته جوجل وديستوفسكي وتولستوي وليرمونتوف وتورجنيف وغيرهم.

الفصل الثالث ميخائيل ليرمنتوف

- المبحث الأول: ميخائيل ليرمنتوف
- المبحث الثاني: إنتاج ليرمنتوف الأدبي
- المبحث الثالث: الإسلام في إنتاج ليرمنتوف
- المبحث الرابع: طابع ليرمنتوف الحزين
- المبحث الخامس: الشاعر والشرق

الفصل الثالث

المبحث الأول

ميخائيل ليرمنتوف

فرّما سماء الشرق قد قربتني بلا إرادة مني من تعاليم نبيهم.

"قصيدة فاليريك" (ليرمنتوف)

منذ أن وهبني الرب الخالد بصيرة النبي، وأنا أطلع الحقد

والرذيلة في عيون البشر.

"قصيدة النبي" (ليرمنتوف)

جذوره ونشأته

يقدم هذا الفصل في إيجاز ملامح من حياة وأدب الكاتب الروسيّ "ميخائيل

ليرمنتوف" (1814 - 1841م) كما يقدم محاولة لتقييم أبعاد تأثير الإنتاج العربيّ

الإسلاميّ في الكاتب الروسيّ "ليرمنتوف" وأثر ذلك الإنتاج في المجتمع الروسيّ.

ميخائيل يوريفيتش ليرمنتوف (Michael Yurievich Lermontov) أحد

أشهر شعراء روسيا في القرن الماضي وأحد الكتاب الروس المتأثرين بالشرق

والحضارة العربيّة الإسلاميّة.

ولد "ميخائيل ليرمنتوف" في الرابع عشر من شهر أكتوبر من عام (1814م)

عند البوابة الحمراء لمدينة موسكو في عائلة ضابط متقاعد ينحدر من عائلة نبيلة عريقة.

بعد وفاة والدته باكراً (في عام 1817م) قامت بتربيته جدته لأمّه الغنيّة بعيداً عن والده.

وقد قامت جدته بكل ما يلزم تجاه حفيدها الوحيد والمحبوب، ولم تبخل بالمال على تعليمه

وتربيته، فقد تلقى تعليماً منزلياً ممتازاً وصار منذ الطفولة يجيد اللغتين الفرنسيّة والألمانيّة، "حيث تأثر بالشاعر الفرنسيّ "الفريد دي فييني" (Alfred de Vieni) إلى جانب تأثره بالشاعر "بيرون"¹، وقد كان يجيد الرّسم والعزف على البيانو والكمّان.

قامت جدّة "اليرمنتوف" برحلات مرهقة إلى "القوقاز" (1818 ، 1820 ، قامت 1825م) بسبب قلقها على صحّة حفيدها الضّعيف بهدف العلاج بالمياه المعدنيّة وقد تركت تلك الزيارات في ذاكرة "اليرمنتوف" أثراً مدى الحياة، ووجدت انعكاساً لها في أشعاره الباكرة. نشأ "اليرمنتوف" نشأة ريفيّة في الضواحي بعيداً عن العاصمة، "فساعد ذلك على ارتباطه بعالم الطّبيعة وحياة الفلاحين الرّوس الأبقان"²، غير أنّه تنقل فيما بعد بين موسكو وبطرسبورغ، "حيث انتقل في عام (1827م) للعيش في موسكو، وتابع تعليمه في أحد أفضل المراكز التعليميّة في روسيا، في بانسيون خيرى تابع لجامعة موسكو، وبدأ كتابة الأشعار والرّوايات فكتب عدّة روايات منها "الشركس" و"أسير القوقاز" و"المجرم" و"الأخوان". وفي عام (1829م) بدأ ملحمة "المارد" (The Demon)، التي استمر في العمل عليها طول حياته"³.

تابع "اليرمنتوف" تعليمه بموسكو في عامي (1830 – 1831م)، ولكنه لم يجد مبتغاه في المحاضرات، فاستقال من الجامعة في عام (1832م). وقد كان العامان (1830 – 1831م) مرحلة الذروة في إبداع "اليرمنتوف"، فقد جرّب على مدى عامين

1. موريس حنا شربل، موسوعة الشعراء والأدباء الأجانب، بروس برس، طرابلس، لبنان، ص 134.
2. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربيّة إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 174.
3. موريس حنا شربل، موسوعة الشعراء والأدباء الأجانب، بروس برس، طرابلس، لبنان، مرجع سابق، ص 134.

جميع الأجناس الشعريّة بالإضافة إلى التعبير عن مكنوناته الروحية، التي لا يستطيع التعبير عنها إلى جانب المسائل العامّة في الحياة.

فكّر "ليرمنتوف" في إنهاء تعليمه، غير أنّه غير خطّطه؛ حيث إنّ العامين اللذين درسهما في موسكو لم تُحتسباً لفصله من الجامعة آنذاك؛ لذلك انتسب في أكتوبر من عام (1832م) إلى مدرسة ضباط الحرس الملكي " وتلقّى تعليماً عسكرياً خاصّاً تقلّد بعده وظيفة ضابط في الحرس العسكري"¹ قضي بعدها أغلب أوقاته في بطرسبورغ- العاصمة آنذاك.

يُعتبر "ليرمنتوف" خليفة للكاتب والشاعر الروسيّ المشهور "الاسكندر بوشكين"، الذي كان لخبر مقتله أثراً عظيماً في نفس "ليرمنتوف"، فكتب في اليوم التالي قصيدته " مقتل الشّاعر"، التي أكمل أبياتها خلال أسبوع ممّا جعله يصبح ذا صيت بين الناس. وقد نُفي في نفس العام الذي توفي فيه "بوشكين"- عام (1837م) - بسبب تلك القصيدة، التي "أثارت نقمة القيصر "نيكولاي الأوّل" والمقرّبين إليه، بسبب استقلاليّة "ليرمنتوف" واحتقاره للوجهاء والارستقراطيّين، وبسبب الجوّ السائد من مؤلّفاته المفعمة بحماس النضال والحرية، التي انهالت ببسالة غاضبة على عيوب مجتمعه"²؛ وقد اتُّهم "ليرمنتوف" بعد تلك القصيدة "بكتابة ونشر أشعار ممنوعة"، فتم اعتقاله في 3 مارس من عام (1837م). وأثناء اعتقاله كتب مجموعة من القصائد، منها "السّجين" و"الجار" و"صلاة" و"أمنية"، التي نفي بعدها إلى "القوقاز"- بناء على أمر القيصر. وقد كان كل ما كتبه "ليرمنتوف" في الفترة بين النّفي الأوّل والثاني مرتبطاً بشكل

1. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 174.
2. ميخائيل ليرمنتوف، بطل من هذا الزمان، أعلام الأدب الروسي، دار رادوغا، موسكو 1984، ص 358.

رئيسيَّ بالقوقاز؛ فقد وجدت موضوعات وصور "القوقاز" انعكاساً في أشعاره الغنائية ورواياته الشعريّة في عام (1838م). وفي هذا العام تمكّن "ليرمنتوف" من العودة إلى بطرسبورغ، فأخذ يزور المسرح بشكل يوميّ تقريباً. وفي عام (1839م) تقرب من هيئة تحرير مجلة "أوراق وطنيّة"، وتدرّجياً دخل في حلقة أدباء بطرسبورغ، حيث أخذ يحضر أمسيات شعريّة ويلتقي مع الأديب الروسيّ "تورغينيف" وأكبر النقاد الروس "بيلينسكي".

بعد ذلك، تمّ نقل "ليرمنتوف" إلى كتيبة المشاة المشاركة في الأعمال العسكريّة في "القوقاز"، فشارك في عدّة معارك ذهب بعدها إلى بطرسبورغ وحاول تقديم استقالته من الخدمة والبقاء في العاصمة، ولكنهم رفضوا له ذلك، إضافة إلى رفض القيصر "نيكولاي الأوّل" اقتراحاً بمنحه وساماً رغم الشجاعة، التي أبداه في معركة "نهر فاليريك". فضلاً عن ذلك، فقد طلب منه القيصر أن يغادر بطرسبورغ في مدّة أقصاها (48 ساعة) ويلتحق بكتيبته في "القوقاز". وفي طريق عودته إلى "القوقاز"، طلب "ليرمنتوف" السّماح له بالتوقف في مدينة "بياتيغورسك" من أجل العلاج. وقد كتب هناك في دفتر يومياته آخر قصائده من بينها قصيدة "الّبي"1.

لخصّ "بيلينسكي" تجربة حياة الشاعر والروائي الروسيّ "ليرمنتوف"، الذي يعتبر من "أبرز الشعراء الرومانتيكيّين الروس غير منازع"2، والذي عاش مظلوماً وغريباً ومطارداً ومتنقلاً بين السّجن والمنفى، في كلمات قائلاً: "إن لغة "ليرمنتوف" تجسّد أيضاً من قوّة الرّوح التي لا تُفهر، وقوّة التّعبير العملاقة الخالية من الأمل، فهي

1. ميخائيل ليرمنتوف، بطل من هذا الزمان، أعلام الأدب الروسي، دار رادوغا، موسكو 1984.
2. منير البعلبكي، موسوعة المورد العربيّة، المجلد الأوّل، دار العلم للملايين، بيروت، 1990، ص. 261

تبهر روح القارئ بنغمة الحزن على ضياع التفاؤل بالحياة، رغم التعطش الشديد لها".
وأعلن "بيلينسكي" أيضاً: "لقد ظهرت في روسيا موهبة أدبية عظيمة – "ليرمنتوف"،
وقال بعد مقتله "لقد أصابت الأدب الروسي المسكين خسارة عظيمة جديدة. لقد قتل
الشاعر"1.

حقاً إن إنتاج "ليرمنتوف" كان غنياً ومتنوعاً تناول فيه الرواية والقصة الشعريّة
والقصيدة، ويعتبر ذلك تحوّلاً كبيراً في إنتاج "ليرمنتوف"، "الذي ترعرع في أحضان
الرومانتيكية، وانعكس هذا التحوّل بوضوح في روايته "بطل من هذا الزمان"، التي
احتلت مكانة هامة في تاريخ الرواية الروسيّة في القرن التاسع عشر"2

1 . المرجع نفسه.
2 . د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 175.

المبحث الثاني

إنتاج ليرمنتوف الأدبي

زادت فترة إنتاج "ليرمنتوف" من إثراء الأدب الروسيّ لما تضمّنته من إنتاج ثريّ. وقد "ارتبط إنتاج "ليرمنتوف" في الشعر والنثر والمسرح برافدين أساسيين في الرومانتيكيّة الروسيّة هما: " الرومانتيكيّة الثوريّة للديسمبريين وبوشكين، والرومانتيكيّة الروسيّة الفلسفيّة. وإذا تحدّثنا عن التقاليد الرومانتيكيّة الغربيّة، فإن إنتاج بايرون"¹

عاش "ليرمنتوف" في وقت كان فيه الشّاعر العظيم "الاسكندر سرجيفيتش بوشكين" يملك بأشعاره وأدبه نفوس النّبلاء والفلاحين، وتعشقه الطبقات العليا والدنيا في وقت سواء، فتأثر به تأثراً عظيماً وأحبّه حباً كبيراً. فقد ولد بعد "الاسكندر بوشكين" بخمسة عشر عاماً في عام (1814م). وبدأ في كتابة الشعر في ذلك الوقت، الذي كانت الألوف تتابع إبداعات شاعرها المعجزة، فتشرب بموهبته واقتدى بروحه العميقة الجبّارة.

بطل من هذا الزّمان

تتمثّل وتبرز دائماً في نتاجات "ليرمنتوف" المختلفة شخصيّة البطل الشّجاع المؤمن بالحرية، الذي لا يرضخ لواقعه ولا يفتنع بالحياة المحيطة به بأيّ حال من الأحوال، فيتحدّث عن مصير إنسان في بيئة ومحيط ديمقراطيّ حرّ يقدّم بطله ببسالة على

1. د. مكارم الغمري، "الرواية الروسيّة في القرن التاسع عشر"، ص 66-83.

حماية الشرف أمام دكتاتورية السلطنة القيصريّة. ويظهر ذلك البطل في رواية "بطل من هذا الزمان" (Hero from our Times) ، التي كتبها في عام (1840م)، والتي ظهرت في العقد الثالث من القرن الماضي فأخذت بعقول القراء ومحبي الأدب، وتركت أثراً عميقاً في نفوس معاصريها وفي حياة كثير من الأجيال التالية.

أنّ قمة إبداع "اليرمنتوف" النثري تمثّلت في روايته الشهيرة "بطل من هذا الزمان"، رغم أنّه كان يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً فقط، فقد بدأ يتّضح تحوّل خطير في كتابات "اليرمنتوف" مع هذه الرواية، حيث تحوّل الشاعر الرومانتيكي، الذي اقتصر حتى ذلك الوقت على وصف الطّبيعة، إلى التّصوير الواقعيّ للحياة الاجتماعيّة.

ومن المعروف أنّ "اليرمنتوف" كان يختار لشخصياته صفات البطولة والشّجاعة، ولكن في الوقت نفسه يكون البطل دائماً ذا شخصيّة مأساويّة لا يقودها التمرد والاحتجاج الى النّصر، لهذا فإنّ شخصياته دائماً تتملّكها الوحدة والعزلة واليأس.

ورواية "بطل من هذا الزمان" كسب بها مؤلّفها "اليرمنتوف" شهرة واسعة وأثار عنوانها اهتماماً هائلاً، لأنّ "اليرمنتوف" رسم فيها صورة نموذجيّة لحياة شابّ يافع يُدعى "بتشورين" يمثّل أبناء جيله ومعاصريه، وقد أرسل ذلك الشابّ قسراً إلى الجيش القوقازي. و"بتشورين" فتى وسيم وذكيّ وحادّ الملاحظة، إلى جانب ذلك فهو شاب ثريّ يتحلّى بمستوى ثقافيّ رفيع، ولكنّه يعيش حياته بلا هدف ويقضي أفضل سنوات حياته في الجمود والكسل دون أن يحقق طموحاته وتفنى القوى الجبارة بداخله دون جهد أو نضال؛ "وسبب ذلك يكمن في أنّه لم ير الهدف ولم يتحسّس النضال في إمبراطوريّة "نيكولاي الأوّل" في أفسى سنوات الرّجعيّة؛ فإنّ يوم نضوجه قد أعلن حلول- على حدّ

تعبير الكاتب الثوري الروسيّ "الاسكندر هيرتسن" (Alexander Hertsen) - أصوات
الناقوس الذي أذاع في روسيا نبأ إعدام المناضل الديسمبريّ "بيستل" (Bestel) ورفاقه
وعن تتويج الإمبراطور "نيكولاي الأول"¹

كانت تلك الأحداث الدموية للديسمبريين، التي تزعمها النبلاء الثوريّون
الوطنيّون الروس عام (1825م)، قد قمعت في ساحة السيّئات في بطرسبورغ وتركت
آثاراً لا تنمحي في صدور الشباب والأحرار، الذين لم يتمكنوا ليفاعتهم من المشاركة،
ويمثلهم في القصة الشاب "بتشورين". يقول "الاسكندر هيرتسن": "كنا جميعاً أصغر من
أن نشارك في 14 ديسمبر، وحينما أيقظنا ذلك اليوم العظيم لم نر سوى الإعدام والنفي.
وإذ اضطررنا إلى الصمت وكتمان الدّموع، فقد تعلّمنا أن نحمل أفكارنا في دخیلتنا ...
وأي أفكار! لم تعد تلك أفكار الليبرالية المستتيرة، أفكار التّقدم، بل كانت شكوكاً وأفكاراً
مشبعة بالغضب. إنّ "اليرمنتوف" ينتمي كليّة إلى جيلنا"²

أخذت وطأة الشّوك والألم واليأس تتملّك روح "بتشورين" إثر قمع النّظام
القيصري لانتفاضة الثّوار النبلاء، فاكتنف روحه الضياع والقنوط وضياع آماله وآمال
أترابه الأحرار، الذين أصابتهم المدّلة والجبن والخلوّ من الاهتمامات الحيّة. ورغم أنّه
كان يتألّم لما يعانيه الشعب وعجزه الشّخصي، إلا أنّه "عودّ نفسه بالتّدريج على عدم
الإيمان بشيء وعدم الأمل بشيء؛ وهكذا تحوّل، على حدّ تعبيره، إلى كسيح أخلاقياً. وهذا
الكسيح أخلاقياً هو الذي نعته "اليرمنتوف" "ببطل زمانه"ن وعندما يتساءل القاريء
فيقول: "أي بطل هذا؟ إنّه سخرية مرّة!"، يجيب "اليرمنتوف" عن هذا السؤال في مقدّمة

1. ميخائيل ليرمنتوف، بطل من هذا الزمان، مرجع سابق، ص 350.
2. المرجع نفسه.

روايته فيقول: "إنّ" بطل من هذا الزّمان" لهو صورة حقاً، ولكنه ليس صورة رجل واحد. إنّه صورة تضمّ ردائل جيلنا كله ¹. كان "بتشورين" يرى في الحرّية الشخصيّة ملاذاً له، فهرب من الدّير ليعيش حياة منعزلة دون اللجوء إلى وسائل تقيه شرور وسطه المتشبع بالردّيلة والفساد.

وقد تقبّل النقاد الديمقراطيّون الثوريّون الرّوس رواية "ليرمنتوف" باعتبارها مظهراً جليلاً للفكر الحرّ، واعتبروا صورة "بتشورين" تجسيداً لظاهرة اجتماعيّة منتشرة وتشخيصاً لعيوب جيل كامل. لذا، فإنّ أهميّة رواية "بطل من هذا الزّمان" التاريخيّة تكمن في تطوير الفكر الاجتماعيّ والتقدميّ في ذلك الوقت، وذلك بسبب تعريتها لعيوب النّظام القيصريّ السائد آنذاك.

هذا وقد أثرى "ميخائيل ليرمنتوف" الأدب الرّوسيّ بالكثير من التّنتاجات الشعريّة والروائيّة والمسرحيّة والملحميّة، التي أضافت صفحة رائعة إلى صفحات تاريخ الأدب الرّوسيّ، ولكن لا يتسع المجال إلى ذكرها في هذه الدّراسة.

شعر ليرمنتوف

بدأ "ميخائيل ليرمنتوف" كتابة الشّعر في وقت كانت كلّ القلوب فيه تتابع إبداعات شاعرها المعجزة "بوشكين" المنفيّ وحيداً في "القوقاز" بأمر من القيصر، غير أنّ الطّلاقة النّاريّة، التي قتلت "بوشكين" أيقظت روح الشّاعر "ليرمنتوف". كما كتب "غيرتسن" (Gertsen) - فنظم "ليرمنتوف" قصيدة "موت الشّاعر" تحت

1. ميخائيل ليرمنتوف، بطل من هذا الزمان، مرجع سابق، ص 350.

التأثير المأساوي لمصرع "بوشكين"، فجلبت له شهرة واسعة جداً بقوة تعبيرها وحماستها؛ حيث عبّرت بشجاعة عن الاحتجاج الاجتماعي لمقتل "بوشكين". وقد عبّر فيها "ليرمنتوف" عن الحبّ الشعبي للشاعر العظيم وعن الألم والغضب، الذي ولد في نفس كلّ إنسان مخلص لمقتله. "تلك القصيدة أعطت المجد وقرّرت المصير التراجيدي للكاتب "ليرمنتوف"، فأصبحت السبب الرئيس في نفيه إلى الجيش المحارب في "القوقاز"، وأيضاً كانت السبب في ملاحقة السلطنة القيصريّة واضطهادها له؛ حيث طالبته بالالتحاق بكتيبته في "القوقاز"، فشاء القدر أن يلتقي هناك بأصدقائه القدامى ومن بينهم زميله في الكلية العسكريّة "مارتينوف" (Martynov)، الذي دعاه في إحدى الأمسيات إلى مبارزته بسبب المزحة المهينة، التي وجهها "ليرمنتوف" له. وتتمّ المباراة بينهما في 27 يوليو من عام (1841م)، فيتوفى بسببها الشاعر الروسيّ الفدّ "ليرمنتوف"، وذلك بعد أربع سنوات من كتابته لقصيدة "موت الشاعر". وهكذا فإنّ القدر لم يمنح "ليرمنتوف" بعد ذلك إلا فرصة وجيزة للغاية، وهي أربعة سنوات فقط بعد موت "بوشكين" ليلتحق به وهو في أوجّ العطاء الإبداعي عن سنّ لم تتجاوز السابعة والعشرين¹.

ورغم هذه الحقائق القاسية، فقد كانت قصائد "ليرمنتوف" تضجّ بالحياة والمعاني الغنيّة بالتنوّع والإبداع، فقد تنوّعت قصائده شكلاً ومضموناً. كتب "ليرمنتوف" قصائد مجدّ فيها إبداع الطّبيعة وجبروتها، وظهرت لديه في تلك الفترة نزعة للكتابات التأمليّة ذات البعد الفلسفيّ، منها قصيدة "الشّيطان"، التي عكس من خلالها تصوراته وآراءه

1 . ميخائيل ليرمنتوف، بطل من هذا الزمان، مرجع سابق، ص 353 (بتصرف).

بأسلوب يغلب عليه الطابع التأملي وجهر بسخطه على الاستغلال والعبودية والظلم والجبروت. وكذلك الشأن بالنسبة لملمحة "موتيسيري"، التي تغنى فيها بمفهوم الحرية كضرورة تخطي الحد بين الحياة والفناء.

وإن اختلفت قصائد "ميخائيل ليرمنتوف" وتنوعت، فإن الاهتمام الخاص بموضوع الشخصية الإنسانية الفردية في معاناتها النفسية، تبقى العنصر الرئيس، الذي تتضمنه كل كتاباته. "وحين تستمع إلى قصائد "ميخائيل ليرمنتوف" تئنشد بصوت ممثل روسي محترف، يخيل إليك أنك تستمع إلى صوت الجياد، وهي تعدو وخرير الماء وصلصلة السلاسل أو تغريد البلابل عند أشجار البتولا، وإلك لتندهش لذلك الحزن العميق وتلك الزفرات الملهبة، التي تنفث في قصائد "ليرمنتوف"، حياة وأي حياة".

وقصائد "ليرمنتوف" عامّة تتحدّث بشكل مباشر وبصدق عن عالمه الروحي، فالشاعر قاسى كثيراً في علاقته مع محيطه القريب، أي المجتمع الراقى؛ حيث عبودية السلطة والكذب والمرء والزيف والبغض للأفكار الإنسانية والمشاعر الحية". إنّه مجتمع ميّت؛ حيث الناس المقنعون بأداب وتقاليد زائفة" فهي المأساة إذن في المشاعر الطبيعية للحب"²

كما وتمتاز أشعار "ليرمنتوف" بالصّور الشعريّة الناصعة والموجزة والمجاز البين والإبداع في الوصف، ثمّ الابتعاد الشامخ عن الحياة الدنيويّة واحتقار المعيشة المبتذلة. وتتنوّع موضوعاته بين تلك التي تتناول موضوعات العزلة والبعد عن المجتمع

1. نافذة على الأدب العالمي، من اعلام الأدب الروسي، موسكو، 22/ 5 /2007.
2. الملحق الثقافي لجريدة السفير بتاريخ 2/ 10 /2007.

الخارجيِّ وقصائد الشكوى والألم، إلى جانب أشعار الحبِّ والجمال، الذي يفتقد التفاؤل وحلو المشاعر.

كما ويظهر في قصائد "ليرمنتوف" الانجذاب نحو الخلود، نحو الله. و في سعيه إلى الخلود كانت تنتاب "ليرمنتوف" أحياناً مشاعر الاستكانة السعيدة والتناسق الجمالي. ورغم تلك المشاعر الحزينة والصراع بين الحلم والواقع، كانت تظهر في أشعار "ليرمنتوف" عناصر رقيقة للغاية من حيث نبرتها الدنيئة العميقة واندفاعها العفويِّ، مثل قصائده "في لحظات الحياة الصعبة" و"عندما يضطرب الحقل الأصفر" و"أنا، يا أم الربِّ" وغيرها.

المبحث الثالث

الإسلام في إنتاج ليرمنتوف

رغم أنّ حجم المادّة الإسلاميّة في إنتاج "ليرمنتوف" كان أقلّ بكثير ممّا كتبه عن "القوقاز"، التي شملها إنتاجه في النثر والشعر، إلا أنها تأخذ حيّزاً كبيراً في إنتاجه الثري. لقد انعكست المادّة الدنيّة في كثير من أشعاره.

وسترد هنا بعض المختارات من قصائد الشاعر "ليرمنتوف"، التي تشير إلى تأثره الكبير بالنبي محمّد (صلى الله عليه وسلّم) ومعرفته بدين الإسلام، التي تتضح بصورة جليّة في أشعاره وأفكاره؛ وطبقاً لذلك فإنّ رسالة الشاعر، حسب وجهة نظر "ليرمنتوف"، لا تقتصر على المآثر الإبداعية أو الإنجازات الجماليّة، فقد كان "ليرمنتوف" يرى أنّ الشاعر- هو "نبيّ منحه السّماء الحقّ في إشعال القلوب بالكلمة، فيتذكر الماضي القديم ويخاطب رمزيّاً هذا الدّاعي إلى الحقيقة". وقد عكس تلك الفكرة بأبيات مصقولة في واحدة من أعمق القصائد معنى وأكثرها دلالة على تلك الأفكار. يقول في قصيدة بعنوان "الرّسول":

الرّسول

منذ أن وهبني الإله الأزليّ
رؤيا الرّسول،
أقرأ في أعين النّاس

1. د. إبراهيم استنبولي، ليرمنتوف، الشاعر النبي، مجلة دروب، 24 أكتوبر 2005.

صفحات الحنق والرذيلة.
أخذت أنادي بالحب
وحقّ التعاليم الطاهرة:
فكان أن ألقى الأقربون منّي،
بالأحجار عليّ في غيظ.
دثّرت رأسي،
وهربت من المدن أنا الفقير،
و هـا أنـا ذا
أعيش في الصحراء،
كالطيور يطعمها الله بلا مقابل،
وأنا حافظ الوصيّة الخالدة
وتذعن لي خليقة الكون
وتسمعي النجوم،
وهي تلعب بأشعتها
و حين اخترقت طريقي في عجلة
خلال المدينة الصّاخبة،
كان الكبار يقولون للصغار
بضحكة عزيزة النفس:
"انظروا، هذا عبرة لكم!"

كان متكبراً
ولم يتواءم معنا
الأحمق كان يريد أن يقنعنا
بأن الله يشرع على لسانه
أنظروا إليه يا أطفال:
كيف هو متجهّم ونحيل وشاحب!
انظروا كيف هو بئس وفقير،
وكيف يحتقره الجميع"1

يستلهم الشاعر القصيدة من سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) عند تلقيه الرسالة "الطاهرة"، رسالة الإسلام والتوحيد، ونبذ "الأقربين" له ثم التجائه إلى الصحراء بعيداً عنهم لتبليغ رسالته النبيلة "حافظاً لوصية الله". تقول د. مكارم الغمري في هذا الشأن:
"إلى جانب تركيز "اليرمنتوف" على وصف إيذاء المشركين لرسول الله (صلى الله عليه وسلم)، نلاحظ الوصف "أعيش في الصحراء كالطيور يطعمها الله بلا مقابل"، ألا يذكرنا هذا بالحديث الشريف " لو توكلتم على الله حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتعود بطاناً" (رواه الترمذي)². وفي الغدوّ والرواح حركة ونشاط وسعي إلى رزق الله. وهذا المعنى ربّما يدلّ على قناعة الشاعر بالتوكل على الله، إضافة إلى معرفته برسالة النبي (صلى الله عليه وسلم). كانت تتملك روح الشاعر مشاعر مؤلمة

1. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 186-187 (ترجمة د. الغمري عن الأصل المنشور في المؤلفات الكاملة لليرمنتوف، ج 1، ص 126).
2. رواه الترمذي، صحيح، المحدث ابن العربي، المصدر أحكام القرآن الصفحة والرقم 471/2

لذلك الفراق الأبديّ غير القابل للحلّ بين الحقيقة الإلهيّة وبين النفاق الدنيويّ، وكان يحسّ بذلك الصّراع العلويّ بين النور والظلام والخير والشرّ. وطبقاً لذلك فإنّ رسالة الشّاعر- حسب وجهة نظر "ليرمنتوف"- لا تقتصر على المآثر الإبداعية أو الإنجازات الجماليّة وحسب؛ بل إنّ الشّاعر يكون نبياً، منحته السّماء "الحقّ في إشعال القلوب بالكلمة"¹.

تعقيب

يتّضح في قصيدة "الرّسول" لليرمنتوف مقاربة لما كان يستقيه الشّاعر "بوشكين" من معان استلهمها من السنّة النبويّة، وما لاقاه النّبّيّ الكريم (صلى الله عليه وسلّم) من معاناة في سبيل نشر الدّعوة والتّعاليم الإسلاميّة، وما فاساه من أذى في سبيل هذه الدّعوة. فكما عبّر "بوشكين" في قصائده عن تكبّد النّبّيّ (صلى الله عليه وسلّم) المشاق وقلّة حيلته عند إعلان ثورته على واقع الوثنيّة والشّرك وانقلاب أوضاع حياته بسبب انقلاب النّاس عليه؛ فقد نشأوا على الوثنيّة والفساد وعزّ عليهم أن يتخلّوا عن حياتهم وعاداتهم التي ترعرعوا عليها، إضافة إلى محاولة الزّعامات ومراكز القوى المحافظة على نفوذها ومكانتها، فعارضت دعوته ونبذته وشنت عليه حرباً ضارية، وتجراً عليه حتّى جهّالهم وسفهاؤهم يؤذونه حينما يمشي في الطّريق، ممّا أخذ من نفسه مأخذاً كبيراً. فكلمات "ليرمنتوف" أيضاً تتضمّن هذه المعاني، فبدا "ليرمنتوف" متأثراً به في هذه القصيدة "الرّسول" في وصفه لمعيشة الرّسول (صلى الله عليه وسلّم) في الصّحراء وهجرته من مسقط رأسه مدينة مكّة المقدّسة العزيزة إلى نفسه إلى أرض

1. ليرمنتوف، الشّاعر النّبّي، مرجع سابق (ترجمة د. إبراهيم استنبولي).

يبحث فيها عن الأمان والطمأنينة، وهي "المدينة"، وحفظاً "للوصية الخالدة"، التي أمره الله - سبحانه وتعالى - بها، وهي الدعوة إلى الحق.

كما يستقي "ليرمنتوف" صورة أبياته أيضاً عن رحلة النبي الكريم إلى الطائف وما لقيه هناك من احتقار وهوان عندما أخذ الأطفال والسفهاء يلاحقونه ويرمونه بالحجارة "فكان أن ألقى الأقربون مئي، بالأحجار عليّ في غيظ"؛ وهذا ما بدا كذلك في قصيدة "بوشكين" "النبي"، التي تميّزت بين أعمال "بوشكين" "بالجمال والعمق واعترف بها النقاد مؤلفاً نابغاً يميّز جمالاً لا يوصف، وأحد أروع مؤلفات عبقرية "بوشكين" القادرة على تمثيل الشخصيات"¹.

بذلك يظهر التأثير والتأثر، اللذان يدور البحث في محورهما، ليؤكد تأثر "ليرمنتوف" بموسوعة الحياة الروسية "بوشكين" وبالتالي تأثير أعمالهما الأدبية على المثقفين الروس والمجتمع الروسي ككل.

ويقول الشاعر أيضاً في مضمون الرسالة النبوية:

حدث ، أنّ الصوّت الموزون لكلماتك العظيمة
أهّبَ المحارب في المعركة
كان ضرورياً للحشد ، كما الكأس للوليمة
كما البخور في أوقات الصلاة
كان نداؤك، كما الروح القدس، يطير فوق الحشد

1. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 155

وكان صدى أفكارك النبيلة
يُسمَع كجرس في أعلى برج للنداء
في أيام الاحتفالات والكوارث الشعبيّة؛

لقد كان "ليرمنتوف" واثقاً من أنه لا يوجد أيّ انسجام بين الشاعر- النبي- وبين
الرعيّة الخالية من الرّوح، كما لا يمكن أن تحدث أيّة مصالحة، فالحياة اليوميّة مبتذلة
ولا معنى لها من دون دفقات رويّة قويّة باتّجاه الخلود، نحو الكمال الربّاني. وحتى
الحبّ الأرضيّ غير قادر على ملء ذلك الفراغ، يقول في إحدى قصائده بدون عنوان:

أشعر بالسّأم و بالحزن، وليس من أمدّ له يديّ
في لحظة نكبة رويّة
والأمنيات ! ما فائدة التّمني عبثاً وبشكل دائم ؟
والسنّون تمضي- الأفضل من بين السنّين
أن أهوى.. ولكن من؟ لبعض الوقت، لا يستحق الأمر
وأن أهوى إلى الأبد لمستحيل
وأن أنظر إلى نفسي؟ ليس للماضي هناك من أثر
والفرح، والعذابات، وكلّ شيء لا قيمة له
وما العواطف؟ فعاجلاً أو آجلاً سيّزول
أثرها الحلو حين يتكّلم العقل

1 . ليرمنتوف، الشّاعر النبي، مرجع سابق (ترجمة د. إبراهيم استنبولي).

والحياة، إذا ما نظرتَ حولك بانتباه بارد،

مجرّد نكتة فارغة و غبيّة!

كما أنّ روح "ليرمنتوف" كانت في اشتعال دائم، "طافحة بالرغبة السّاحرة"،
مثقلة بالحزن المستمر من الذكريات حول شيء ما كان ولم يعد موجوداً. وكما أنّ الحياة
البشريّة مؤقتة ونهائيّة، فيبدو أنّ "ليرمنتوف" أيضاً مؤمن بذلك المبدأ، حيث إنّه يكرّر
هذا المعنى في هذه القصيدة " ما فائدة التمني عبثاً وبشكل دائم؟"، و " وأن أهوى إلى
الأبد لمستحيل!" و "فعاجلأ أو آجلاً سيزول"، فللحياة نهاية لا بد منها. وربّما يكون ذلك
دليلاً على قناعة الشّاعر بالمشاعر الدنيويّة الزائلة، التي لا دوام لها. لقد كان "ليرمنتوف"
طيلة حياته القصيرة هدفاً للملاحقة والمراقبة، وقد صار نفيه إلى "القوقاز"، وأخيراً مقتله
في المباراة، النّهاية المنطقيّة لذلك الصّراع غير المتكافئ، الذي خاضه الشّاعر الروسيّ
ضد الشرّ العام.

الشّيطان

كتب "ليرمنتوف" أيضاً قصّة شعريّة بعنوان "إبليس" أو "الشّيطان" 1829م،
وهي قصيدة طويلة اقتبسها "ليرمنتوف" من القرآن الكريم وتضمّنت نفس المعاني، التي
تضمّنها القرآن من عصيان إبليس. وقد كتب "ليرمنتوف" عدة قصائد عن الشّيطان تختلف
في معانيها ودرجات المشاعر التي تتخلّلها؛ حيث يميل فيها أحياناً إلى روح الشرّ
والغواية ، وأحياناً أخرى تتملّكه مشاعر رّومانسيّة تقرب من مشاعر الإنسان، ويظهر

1 . ليرمنتوف، الشّاعر النّبي، مرجع سابق (ترجمة د. إبراهيم استنبولي)..

ذلك في القصيدة التي يتحدّث فيها عن حبّ إبليس لأميرة جورجيّة اسمها "تمارا" كانت سجينه في أحد الأديرة ويحرسها ملاك، "وقد كان في حبّه لها شبيهاً إلى درجة كبيرة بالإنسان وقد واصلت هذه الأميرة حبّه وتوفيت بسبب الكآبة"¹. تقول الأديبة دمكارم الغمري عن هذه المشاعر: " أنها شبيهة إلى درجة كبيرة بمشاعر الإنسان، إذ يعتريه قلق المحبّين ولوعتهم، وتبعث به المشاعر الطيّبة وحبّ الخير لدرجة أنّه كاد يكون مستعدّاً للتّصالح مع السّماء:

أريد التّصالح مع السّماء،

أريد أن أحبّ، أريد أن أصليّ،

أريد أن أوّمن بالخير²

وبسبب عدم إخلاص "إبليس" وتمردّه وعصيانه لرّبّه يفشل في نهاية المطاف من الحصول على محبوبته بموتها وهزيمته التّكراء، وهذا هو المصير الحتميّ لإبليس كما يرد في القصص القرآني، الذي يشير إلى أن مصيره إلى التّار.

وقد ظهرت صورة إبليس في كثير من قصائد "اليرمنتوف" على امتداد طريقه الفنّي. وأنّ "اليرمنتوف" يقتبس من القرآن قصّة إبليس الذي كان ملاكاً، لكنّه لم يمثل لأمر ربّه ولم يسجد. ذكرت د. مكارم الغمري أنّ ذلك حسب الآية الكريمة (34) من سورة "البقرة" " وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ(34)"³. وبما أنّ المجتمع في ذلك الحين كان في صراع دائم وأنّ الواقع

1 . عبدالله حسن، مجلة المعرفة الأرشيفية، الأدب الروسي في عهده الذهبي، العدد 63، موسكو.
2. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، 183
3. الآية 34 من سورة البقرة.

المعاصر كان يعاني من ذلك الصّراع، فقد "اكتسبت صورة إبليس "الرّوح العاصية" عند "اليرمنتوف" حيويّة وتجاوباً مع الواقع المعاصر في تلك الفترة، التي لم يحصل فيها أحد على ما كان يريد- حسب تعبير "اليرمنتوف" نفسه، وأجمع كثير من النّقاد على أنّ "اليرمنتوف" في هذه القصّة الشعريّة قد عبّر عن "أكثر الأفكار الجوهريّة التاريخيّة... أفكار الشكّ والرّفص والحركة والتّجديد المستمرّ أبداً في حياة المجتمع الرّوسيّ في تلك الحقبة"¹.

إيماءة

تدلّ هذه القصّة الشعريّة أيضاً على تأثر الشّاعر ببوشكن، الذي كتب قبله في عام 1924م قصيدة بنفس الاسم وتحمل نفس المعاني.

العاشق الغريب

كما ويصيح القرآن الكريم من السّمات البارزة في مؤلّفات "اليرمنتوف" في الفترة الأخيرة من حياته؛ حيث يكتب عن القدر والوجوديّة، التي تتضمّن آيات القرآن الكريم. وقد كتب "اليرمنتوف" في ذلك المضمون قصّة "العاشق الغريب" عام (1837م)، التي تتحدّث عن عاشق فقير يرغب في زواج إحدى الحسنات، وهي ابنة أحد الأثرياء كانت قد وقعت في حبّه أيضاً. ونسبة لفقر ذلك العاشق، لم يتمكّن من التّقدم لطلب يد تلك الفتاة، فقرّر أن يجوب البلاد لمُدّة سبع سنوات ويجمع الأموال بما حباه الله له من صوت جميل. وقد وافقت المحبوبة على ذلك، على أن تكون حرّة بعد تلك السّبع سنوات.

1. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 188.

وأَمْضَى ذلك الشَّاب السَّبْع سنوات وهو يطرب النَّاس بألحانه فيدفعوا له الأموال نتيجة لذلك. وعند عودته إلى البلاد للزَّواج من حبيبته، تأخَّر عن الوصول يوماً واحداً، ليجد أنَّ والدته قد فقدت بصرها حزناً وبكاء عليه، كما يجد أنَّ محبوبته قد تمَّ زفافها لأحد الأثرياء، وعندما يصل إلى مكان الحفل يمنع شقيق العريس من التَّواجد في المكان، غير أنَّ العريس يثنيه عن ذلك ويترك مكانه "للعاشق الغريب"، ويعتبر أنَّ ذلك هو "قدر الله".

إنَّ كثيراً من الكُتاب المتأثرين بالشرق العربيّ يقتبسون كلماتهم من اللغة العربيَّة، فمثلاً يجعل "اليرمنتوف" "العاشق الغريب" عنواناً لقصته، وهي ألفاظ عربيَّة تشير إلى معنى العشق والهيام، كما تشير إلى غربة العاشق وتجوّاله في بلاد غريبة. وتشير الأدبية د. مكارم الغمري أيضاً إلى بعض الألفاظ العربيَّة الأخرى التي يستخدمها "اليرمنتوف" في هذه القصة، مثل "حلب"، "ففي مدينة "حلب" السَّورية يجد العاشق بغيته في التَّراء، وهناك يشرب الخمر "المصريَّة"، وكلمة "مصريَّة" مكتوبة أيضاً كما تنطق بالعربيَّة. وهناك أيضاً كلمة "سلام عليكم" والتَّكبير "الله أكبر"، وأيضاً كلمة "الغزاة" وكلمة "المولى"؛ ويذكر "اليرمنتوف" بين قوسين بعد كلمة المولى التَّرجمة الروسيَّة لمعناها"¹

بيّض كذلك الجانب الإسلاميّ في قصة "العاشق الغريب" ومعرفة "اليرمنتوف" لبعض القصص القرآنيّ، حيث يذكر "اليرمنتوف" عمى والدة العاشق بعد فراقه لها وارتداد بصرها عند عثورها على ابنها، وذلك يشبه قصة سيِّدنا يوسف (عليه الصَّلَاة والسَّلَام) وعودة بصر والده يعقوب (عليه السَّلَام) بعد معرفته بمكانه بعد زمن طويل.

1. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربيَّة وإسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 192.

يقول عزّ وجلّ في الآية (96) من سورة "يوسف": " فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (96)1. "ويتذكّر العاشق "النبي الخضر" صاحب الحكمة، الذي يأتي بالمعجزات، والذي يكتب اسمه في القصة الروسية بنطقه العربيّ، وذلك حين تحدّث معه معجزتان: المعجزة الأولى حين ينقله فارس مجهول في يوم واحد إلى وطنه، ويوقّر عليه سفيراً قد يطول شهوراً، والمعجزة الثانية تحدث حين قام بدهان عين أمّه بتركيبة معيّنة، بناء على نصيحة الفارس المجهول، فيرتدّ في الحال البصر إلى أمه العمياء. كما يتذكّر العاشق أيضاً الصلوات الخمس"2

الهارب

وفي قصيدة للأديب "ليرمنتوف" باسم "الهارب" يظهر تأثره بالإسلام وتتضح النبرة الإسلامية، التي تدلّ على معرفته بالإسلام وانطباع ذلك المفهوم الديني، الذي يتعلق بالقرآن والسنة يتجلى في كلماته وعمق معانيها. "لقد بذل "ليرمنتوف" جهداً كبيراً لتأتي قصيدته وكأنّ كاتبها مسلم، وأراد لأشخاص قصيدته الشعريّة أن تكون واقعيّة معبرة عن المفاهيم الإسلاميّة، لكنّه ظلّ أسير الرّؤية المسيحيّة، فأبطل التحيز للفئة وأجاز الانتحار، ولم ينسب الأرض لله - مالك الملك جلّ جلاله؛ بل نسبها للنبي (صلّى الله عليه وسلّم)، كما جعل الحساب يوم القيامة له، لا لله، تمثلياً مع المفهوم المسيحيّ بأنّ الرّسول

1. الآية 96 من سورة يوسف.
2. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 192 (بتصرف).

قد يشارك الرّب في أمره، حتّى أنّ نصيب "الرّب الابن" عندهم صار أوفر من نصيب
"الرّب الأب"¹، يقول الشّاعر في المقطع الأوّل من القصيدة²:

الهارب

فرّ هارون من ساحة القتال،

وكان في عـدوه كالغزال،

بل فاق الأرنب الفارّ من العقاب.

كان خائفاً، فعلى أرض القتال

سالت دماء أهله الشّرّكس.

استشهد من أجل الشّرف والحريّة

أبوـوه وأخـواه،

تعقّرت أبدانهم تحت أقدام الأعداء

فسالت دماؤهم تنادي بالقصاص.

ولكن نسي هارون العهد ونسي العار

1. د. تجاني اسماعيل الجزولي، مجلة آداب، العدد 20 ديسمبر 2002، دار نشر كلية الآداب جامعة الخرطوم.
2. المرجع نفسه (ترجمة د. تجاني الجزولي).

ها هو يعدو يعدو بعد أن أضع
سيفه وبنديته على أرض القتال.
غربت الشمس،
وتمدد الضباب وغطى الأودية المظلمة
بغشاوة شهباء.
وهبت من الشرق ريح باردة،
بزغ الهلال مذهب القرنين يسري
فوق أرض النبي.
مسح هارون عن جبينه العرق والدم،
وقد أرهقه التعب وأنهكه العطش،
لكن، ها هو ذا الحي الذي ترعرع فيه
يتراءى له بين الصخور تحت ضوء القمر
فاقترب في صمت بخفّة الهدوء
لا يراه إنسان.

عاد لوطنه وحيداً سليماً،

من معركة دامية لم يسلم منها سواه.¹

الشاعر هنا يستلهم موضوع الجهاد في الإسلام الذي تطرّق له القرآن الكريم واعتبره ذروة سنام الإسلام، وأشار إلى سمات الخزي والعار، التي تعرّض لها المقاتل الفارّ من ميدان المعركة؛ حيث يظهر تكرار صيغة الفرار "فرّ هارون"، و"الأرنب الفارّ"، وكذلك المعاني التي تدلّ على الجبن والرّغبة في البعد عن ميدان القتال "ها هو ذا يعدو"، "نسي العهد ونسي العار". كل تلك الدلالات يستلهم فيها "اليرمنتوف" معاني الجهاد الذي يحثّ عليه الإسلام، والذي يعتبر الفرار من ميدان المعركة من كبائر الذّنوب؛ قال تعالى في سورة "الأنفال": " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُؤْتُوهُمْ الْأَدْبَارَ (15) وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ ذُبْرَةً إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ (16)"². وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يارسول الله، وما هن؟ قال: الشّرك بالله، والسّحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلاّ بالحقّ، وأكل مال اليتيم، وأكل الرّبّا، والتّولي يوم الزّحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات"³

ويسترسل الشّاعر في قصيدته مبيناً لجوء "هارون" الفارّ من المعركة إلى صديقه طالباً منه أن يؤويه "بحقّ النّبي"، غير أنّ صديقه المريض على فراش الموت

1 . د. تجاني إسماعيل الجزولي، مجلة آداب، العدد 20 ديسمبر 2002، دار نشر كلية الآداب جامعة الخرطوم، (ترجمة د. تجاني الجزولي).

2 . الآيات 15 - 16 من سورة الأنفال..

3. أخرجه البخاري ومسلم وأبو داؤود والنسائي عن أبي هريرة - رضي الله عنهم.

يطرده بحجة أن "لا مأوى للجبناء"، فيذهب ذليلاً خجلاً ليصادف منزل محبوبته، التي

سمعها تتغنى:

"يسري الهلال في الظلام

في هدوء وصمت.

يمشي الرجال للقتال.

يحمل سلاحه الفتى

فتقول له الفتاة:

كن راضياً بالقضاء،

واحفظ الصّلاة،

من آمن بالنبي آمن بالخلود

أمّا التّذي يخون

أهله الكرام،

لا يقاتل العدو،

فلمت في هوان

ولن تغسل السّماء جرحه،

وستعاف الدُّناب عظمه.

نفس المعاني تتكرّر في هذه الأبيات لتؤكد كلمات الصديق، الذي نبذه رغم حاجته لصديقه في لحظات الموت الحرجة. فالفتاة تمجد الفتى، الذي يجاهد ولا يخون، فتزيد من مشاعر الخزي والحزن العميق لدى المقاتل "هارون" الفارّ من ميدان المعركة. ثم يذهب "هارون" إلى دار أهله، ليجد أمه تصلي للمقاتلين "زوجها وأبنائها"، ولكن عند رؤيتها لابنها وحيداً تسأله:

"أين أبوك وأخوأك؟"

"استشهروا،

قبل النبي موتهم،

وتلقّت الملائكة أرواحهم."

"هل أخذت بثأرهم؟"

"كلا، لم آخذ بالثأر،

ولكنني انطلقت كالسهم بين الصخور،

تاركاً الموت بأرض بعيدة،

لينالك منّي العزاء

وأمسح الدموع عن عينيك."

هنا!! نعتته أمه "بالمناقق" و"العبد الدليل الجبان" وتبرأت منه لعظم الجرم وفداحة الأمر. تُظلم الدنيا في عينيه، فلا ملاذ ولا مأوى يلجأ إليه بعد أن تخلى عنه أحبائه ومات أبوه وأخواه، فما كان منه إلا أن أنهى حياته البائسة "بطعنة قويّة من خنجره"، فألقى جسده في العراء لتلحق دمه كلاب الحيّ ويصبح منبوذاً يتناقل عاره الناس جيلاً بعد جيل.

لا بد من الإشارة هنا إلى كلمات الشّاعر، التي يقول فيها "هل أخذت بثأرهم؟" كلا، لم آخذ بالثأر"، فربّما يستلهم الشّاعر أبياته من مبدأ القصاص، الذي يشير إليه القرآن في قوله تعالى في الآية (45) من سورة المائدة: (وَكُنْتُمْ أَهْلًا لَهَا قُتِلْتُمْ وَالْأَنْفُ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنُ بِالْأُذُنِ وَالسِّنُّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ (45)). فالقصاص مصطلح فقهيّ إسلامي، وهو عقوبة مقدّرة شرعاً تقضي بمعاينة الجاني بمثل ما فعل، والمقصود بالقتل هنا القتل العمد، فقد فُرِضَت عقوبة صارمة للقاتل، وهي القصاص منه جزاءً بما فعل، لما في قتل النّفس من جريمة نكراء تؤدّي إلى انتشار الفوضى ويُتم الأطفال وترمّل النّساء. كما جعل الإسلام عوضاً عن ذلك بديلاً يرضى به أهل القتل وهو الدية، التي أقرّها الإسلام كمبدأ عدل ورحمة. وعليه، بما أن الشّاعر يستلهم أبياته من قصص القرآن الكريم ومآثره ومعانيه، فقد يكون استقى هذا المعنى من مبدأ القصاص، الذي ترمي إليه الآيات الكريمة متأثراً فيها بالقرآن كغيرها من القصائد ذوات النبرة الإسلاميّة.

يُضح هنا أنّ الموضوع الإسلاميّ قد ساعد في إثراء المادّة الدينيّة لدى "اليرمنتوف" وأنّ بعض المعاني، التي تعرّف عليها في الإسلام، قد طغت على الكثير من مؤلفاته العظيمة؛ ثمّ أنّ "اليرمنتوف" تعرّف من خلال مسلمي "القوقاز" على "الكثير من

العادات الإسلاميّة والأعياد الدّينيّة الإسلاميّة مثل "عيد الأضحى"؛ ففي عمر العاشرة سمع "اليرمنتوف" أحاديث الكبار عن هذا العيد¹. ويظهر أنّ تعرّف "اليرمنتوف" على العقيدة الإسلاميّة كان له كبير الأثر في نفسه، "ففي قصيدة "فاليريك" عام (1840م) يشير "اليرمنتوف" إلى القرابة الروحيّة التي صارت تربطه بالإسلام في وقت كانت تشعر نفسه بالوحدة والغربة²:

فاليريك

فرّبمّا، سماء الشّرق

قد قرّبتني بلا إرادة منّي

من تعاليم نبيّهم

الحياة تجول دائماً وكذا

الكّد والهموم ليلاً ونهاراً

كلّ شيء يعوق التأمّل

ويؤدّي إلى بدائيّة

النّفس المريضة: القلب ينام

1. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 179.
2. المرجع نفسه.

ولا يوجد براحٌ للخيال¹

ويظهر أيضاً تأثير القرآن في قصيدة "ليرمنتوف" "هبات التركي" عام

(1839م)، فالهدية القيّمة، التي يقدمها التركي إلى الشيخ عليها:

آية مقدسة من القرآن

مخطوطة بالذهب²

ونموذج آخر من قصائده الشعريّة، التي تبدو فيها الملامح الإسلاميّة قصيدة

"النخلات الثلاث" (The Three Palm Trees) عام (1839م)، التي اقتبست صورها

الأساس من الآيات (24 – 26) من سورة "إبراهيم": "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً

طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا

وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ

مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ فُرَارٍ (26)".

يتضح من الآيات أنّ "الكلمة الطيّبة هي الشجرة الطيّبة وهي النخلة. والكلمة

الخبِيثة هي الشجرة الخبيثة وهي النخلة التي اجْتُثَّتْ، وأعمال الذين كفروا "كرماد اجْتُثَّتْ

به الرّيح في يوم عاصف"³

1. ميخائيل ليرمنتوف، المؤلفات الكاملة، ج 1، موسكو، 1975، ص 90.
2. المرجع نفسه، ص 58.
3. د.تجاني إسماعيل الجزولي، جريدة الصحافة، العدد 5297، نافذة المترجم، 2008.

في ترجمته لهذه الأبيات ذكر د. تجاني إسماعيل الجزولي أنها تحكي عن ثلاث
نخلات في صحراء الجزيرة العربية تشتكين من انقضاء السنوات وشدة الحرّ من دون
عابر سبيل.

النّخلات الثّلاث

فجأرت النّخلات الثّلاث بالشكوى إلى ربّها
أخلفتنا لنموت دون جدوى في الصّحراء!
ما معنى أغصان تنمو لا تحرّكها سوى الرّيح؟
ما جدوى أزهار تثمر لا يأكلها إلا لهب الشّمس؟
وليس ثمّة من ينظر إليها فيرتاح
ليس عدلاً حكمك فينا يا رباه!

يفسّر د. تجاني الجزولي قول الشّاعر " ليس عدلاً حكمك فينا يا رباه" بأنّ
النّخلات "تتطاول وتحتجّ على القدر الإلهيّ فجاءت كلمات الكفر الخبيثة: " ليس عدلاً
حكمك فينا يا رباه " تستوجب القصاص والبتر، فاجتثت النّخلات من فوق الأرض
وقطّعت أشلاء"¹. ربما يدلّ تنمّر النّخلات على ما يراه من إحساس النّاس بالسّخط على
الحياة المثقلة دائماً بالحزن والألم المستمر والميل إلى الحزن والتذمّر من تلك الحياة.

يواصل الشّاعر الفدّ أبياته في القصّة الشعريّة مبيناً أنّه "ما أن أنهت النّخلات
حديثها حتّى ظهرت قافلة من الجمال تجتث* رمال الصّحراء يتقدّمها فارس ممشوق

1. د. تجاني إسماعيل الجزولي، جريدة الصحافة، العدد 5297، نافذة المترجم، 2008.
* الكلمة كما وردت في تعليق د. تجاني الجزولي في جريدة الصحافة.

القوام لتقترب من النّخلات وتنصب الخيام تحت تلك النّخلات الثلاث، التي تمايلت طرباً
بهذا القدوم الطيّب. ولكن، مع حلول الظّلام عملت القافلة بفؤوسها على جذوع الأشجار
لتهوى هامة بعد شموخها لتصبح أشلاء توقد منها النّيران فتصبح رماداً تذروه الرياح"1
ولم تترك وراءها سوى الأثر الحزين. يقول الشّاعر:

تمايلت هامات الأشجار طرباً بقدوم الأضياف
وسقاهم فرواهم الماء المنساب
ارتفع صوت إعمال الفؤوس مع حلول الظّلام
وتتابعت الضّربات على جذوع الأشجار
فهوت هامة بنات الأجيال
فزرع الأطفال عنها الثّياب
وقطّع الكبار أجسادها أشلاء
وظفقوا يوقدون منها حتّى الصّباح
عندما انحسر عن المشرق الضّباب
وسار الرّكب في طريقه المحتوم
لم يترك وراءه سوى الأثر الحزين
الرّماد البارد على الأرض الجرداء
ثم حرّقت الشّمس بقايا الرّماد من جديد
لتذروه الرّياح في الصّحراء

1 . د. تجاني إسماعيل الجزولي، جريدة الصحافة، مرجع سابق.

المكان الآن قفر موحش
والأوراق الخضراء لا تتاجى النبع ذا الخرب
وهو يسأل التبيّ الظلّ فلا يُجاب
ولا يرى غير الرمال المحرقة تنهال عليه
وصقر البوادي ذو الريش المنفوش
ينهش ما افترس عنده بلا اكتراث

هكذا فسّر المترجم أبيات قصيدة "ميخائيل ليرمنتوف"، التي تبيّن طابع الشاعر المميّز. كما توضّح الأديبة د. مكارم الغمري إشارة النقاد إلى وجه الشبّه بين "النّخلات الثلاث" وبين قصيدة "بوشكين" التاسعة في "قبسات من القرآن" في الوزن والمضمون وترى أنّ "فكرة البعث التي ترمي إليها القصيدة تعني الفناء، فالنّخلات عند "ليرمنتوف" تشكّ في الحكمة الإلهية من وجودها، وهنا تظهر قافلة تطيح بالنّخلات وتأخذ حطامها للتدفئة، وتنتهي القصيدة عند "ليرمنتوف". على عكس قصيدة "بوشكين" التاسعة- بصورة الفناء والزوال والجفاف، حيث تتطّير بقايا النّخلات وتتناثر مع الرمال"¹.

وعموماً، فإنّ المعنى العام لقصيدة "ليرمنتوف" يرمي إلى أنّ الشكّ في عظمة المولى والتطاول عليه يؤدّي دائماً إلى مصير حتميّ وهو الفناء وعدم الفوز بما يعد به المولى - عزّ وجلّ - عباده المخلصين.

1. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 181.

المبحث الرابع طابع ليرمنتوف الحزين

لقد سادت فكرة وجوب التغيير الاجتماعي في الفترة التي ارتبطت بحركة
الديسمبريين، ولكن سقوط الحركة على يد "بترس الأول" جعل تلك الفكرة تتلاشى
 وتموت، وذلك ما ترمي إليه كلمات قصيدة "النخلات الثلاث" سابقة الذكر؛ حيث
 تتلاشى فرحة "النخلات" بقدوم الضيوف عندما اعتملت السيوف فيها بالضرب والقطع
 لتصبح أشلاء لا حياة فيها. ويظهر في أشعار "ليرمنتوف" مشاعر تميل دائماً إلى الحزن
 وعدم الوصول إلى النهاية السعيدة، التي يراها الآخرون، وهذا ما يتضح في قصيدة
 "النخلات الثلاث" المليئة بالتشبت والضياع وبعض القصائد الأخرى، التي تشير إلى
 نفس المعاني.

يتضح ذلك أيضاً في قصيدة "ليرمنتوف" "أخرج مهاجراً"، التي تبدو فيها
 مشاعر الحزن والألم رغم روعة ما حوله من هيبه في السماء والغلالة الزرقاء التي تلتف
 الأرض حوله ، لكنّه يتساءل عن أسباب آلامه وقلقه، ويرغب في حياة هادئة يسودها
 الحبّ والحريّة والسكينة؛ يقول "ليرمنتوف" في هذه القصيدة:1

أخرج مهاجراً

أخرج مهاجراً وحيداً
وصخور الدرب تلمع في عتمة الليل

1. د.تجاني الجزولي ، جريدة الصحافة، العدد 5297، نافذة المترجم، 18-3-2008 (ترجمة د.تجاني الجزولي).

القفار الساكنة تصغي لربّها
والنجوم تناجى بعضها بعضا
يا لهيبة السماء
يا لروعة السماء
والأرض تلفّها غلالة زرقاء
لكن ما سرّ ألامى؟
ما الذي أقلق راحتي؟
أرجو من الغيب شيئا؟
أم هو الأسى على ما مضى؟
لا...

أنا لا أرجو من الحياة بعد هذا شيئا
ولا آسى على ما فاتني أبدا
بل أنشد الحريّة والسكينة
ليتني نسيت كلّ شيء
ورحت في سبات عميق
لا سبات الموت المعهود
أريد أن أنام في قبري مدى الدهر
ويظلّ قلبي نابضاً
وتصعد أنفاسي بصدري في هدوء

ومــن فـوقـي
شجرة بلوط لا تبيد خضرتها
ويهدد سمعي مدى الأيام والليالي
صوت عذب يغنيني عن الحب
على وقع حفيف الأغصان
التي تحنو عليّ.

يسائل الشاعر في هذه القصيدة نفسه وهو يخرج وحيداً ويلاحظ مخلوقات الله من
صخور وغفار ونجوم وسماء ذات هيبة وجمال، لم هذه الآلام وذلك القلق الذي يكتنفه؟
إنه لا ينشد سوى الحرية والسبات العميق. ولكن مع ذلك السبات يريد أن يشعر بنبض
الحياة يسري في أوصاله ونبضات قلبه مع إطلالة الحياة العذبة التي تمتليء بالحب
والحنان.

وتبدو مشاعر الحزن، التي تعتمل في دخيلة "اليرمنتوف" في قصيدة "مقتل
الشاعر"، التي ينعي فيها الشاعر صديقه العظيم "الإسكندر بوشكين" بعد مصرعه الأليم
في المباراة المدبرة لمقتله، يقول:

مقتل الشاعر

يا إلهي.....!!

بهدهوء...وبرودة
صوب القتائل ضربته
وها قضاء الربّ تمّ
قبل برهنة
كان قلبه الخالي يدقّ
ولكنّ ما
غريب ما حدث
أنّ في الكفّ صوته
ذاك الآتي من بعيد
ولم يهتزّ المسدّس
كمئات من هنا رحلوا
ليطاردوا الصّفاء والخلود
رحل الشّاعر ...
ولم يهزأ به

سوى غرباء الأرض واللسان والضمير (والأخلاق)

ما استطاع أن يتمّ الشّفاة
كان يرفع بعينه للغريم المقابل
كم كان الأحتقار عميقاً في عينيه
قتل الشّاعر... لا عزاء
والجثمان عاد في اللحد

ثم يقول:

يا أنتم:

يا من لبستم قناعا يحميكم

وبالجبروت قتلتم وأمرتم وأردتم وفعلتم

وكنتم المجرم والمحكمة

وكنتم المؤامرة والحدث

ليكن اليوم لكم

ليكن

لكنما محكمة الرب آتية

يوم يحاسب المجرمون

أنتم تعلمون أنها محكمة صارمة

لا تطرب لأنغام الذهب حين يرنّ على بابها

هي محكمة سجّلت في الأعمال والنّيّات

ومن عهد قديم.....قديم

هي محكمة تضطّرم شوقاً للحساب

عبئاً ستبحثون عن شفيع يومها

لن يجدي كلام طئنان بليغ

لن تستطيعوا غسل دم الشّاعر يومها

أبدأ لن تفلحوا في غسل دمه

رَبِّي

أحقّ مات ذلك الشّاعر؟

أحقّ مات ذاك الذي أخلص للوطن¹

عبّرت هذه القصيدة بشجاعة عن الاحتجاج الاجتماعي لمقتل "بوشكين" وعن الحبّ الشّعبي للشّاعر العظيم وعن الألم والغضب، الذي ولد في نفس كلّ إنسان مخلص لمقتله، بما في ذلك "ليرمنتوف" نفسه، الذي عبّر فيها أيضاً عن برودة أعصاب القاتل والمجتمع القاسي حوله والإرادة القويّة التي يتمتع بها ذلك القاتل الجبار ذي البطش والجبروت. إنّ السّلطة القيصريّة كانت هي المدبّر للمؤامرة والأمر والمنفّذ للحكم، ولكن يستدرك "ليرمنتوف" ويشير إلى أنّ هناك محكمة عليا، هي "محكمة الربّ"، التي لن ينجو منها أولئك المجرمون، وأنّ هناك "يوم يحاسب المجرمون" على ما ارتكبوا من آثام بحسب "الأعمال والنيّات" ولن يجدوا لهم "شفيعاً" آنذاك لينجوا من فعلتهم النكراء.

ويبدو هنا أنّ "ليرمنتوف" على علم بيوم الحساب والبعث والشفّاعة ومحكمة الله، التي يحاسب عليها المذنبون بحسب أعمالهم " هي محكمة سجّلت في الأعمال والنيّات"، ويبدو أنّ ذلك مستلهم من الحديث الشّريف (إنّما الأعمال بالنيّات، وإنّما لكلّ امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه)².

1 . إبراهيم استنبولي، ليرمنتوف الشّاعر النّبي، مجلّة دروب، 24 أكتوبر، 2005...
2 . رواه البخاري ومسلم في صحيحهما.

المبحث الخامس

الشاعر والشرق

اهتمّ "ليرمنتوف" بالشرق اهتماماً كبيراً، وذلك لأنه كان يرى فيه " كنزاً للفتوحات التّمينية"¹ فقد كان الشرق محطّ نظره منذ نعومة أظفاره. وإلى جانب اهتمامه بمناطق مختلفة من الشرق، مثل إيران وتركيا، فقد اهتمّ أيضاً، وبشكل أوسع، بالشرق المتاخم لروسيا "منطقة القوقاز"، وظهر ذلك في الكثير من أعماله النّثريّة والشّعريّة، نذكر منها "الشّرْكسيّة" و"سجين القوقاز" وغيرها.

لقد أثر "ليرمنتوف" الشرق على غيره بحكم دراسته لعلوم الشرق؛ حيث إنّ النّاقِد الروسيّ "جروسمان" (Grossman) يشير إلى أنّ "ليرمنتوف" قد "استمع في الجامعة إلى محاضرات المستشرق "بولديريف" (Boldyrev)، الذي كان يعطي في منهجه استعراضاً عاماً للأدبين العربيّ والفارسيّ، وفي الدّراسات العمليّة كان يقرأ لشعراء الشرق القدامى"². كما أشار جروسمان "كان المستشرق بولديريف يعرف ببناء القصيدة في الأدب العربيّ، ويعطي نماذج من الأدب العربيّ في كتابه المقرّر، الذي ألفه، والذي كان يتضمّن شعراً لامرئ القيس وبعض القصص العربيّة وقصصاً من "كليّة ودمنة". وهناك مصادر أخرى عديدة تمسّ الأدب العربيّ والحضارة العربيّة اطلع عليها "ليرمنتوف" في دراسته الجامعيّة"³

1. ميخائيل ليرمنتوف، ج 1، ص 550.
2. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربيّة وإسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 193.
3. المرجع نفسه.

وترد هنا بعض النماذج الثريّة والشعريّة، التي يتناول فيها "اليرمنتوف" منطقة "القوقاز" ويظهر فيها اهتماماً واضحاً بالشرق العربيّ تبدأ بكلمات "اليرمنتوف"، التي خاطب بها جبال "القوقاز" - كما لو أنّه يخاطب إنساناً عزيزاً على قلبه- إنّها من أروع التحف الثريّة، يقول: "أحييك، يا جبال "القوقاز" الزّرقاء! أنتِ احتضنتِ طفولتي؛ لقد حملتني على قممك المستوحشة؛ ألبستني رداء من الغيوم؛ أنتِ عودتني على السّماء، ومنذ ذلك الحين وأنا أحلم بكِ وبالسّماء فقط! يا عروش الطّبيعة، التي تتطاير عنها الغمامات الرّعدية كما الدّخان؛ يا من إذا حدث وصلى إنسان للخالق على قممك، فإنّه لا بدّ سيحتقر الحياة على الرّغم من أنّه في تلك اللحظة كان يفخر بها!

كثيراً ما كنت مع بزوغ الفجر أتطلع إلى الثلوج وإلى صخور الجليد البعيدة؛ لقد كانت تتلألأ في أشعة الشمس المشرقة، وقد انتشحت ببريق ورديّ، فكانت- و بينما في الأسفل كلّ شيء يغرق في الظلام- تعلن للعابر عن قدوم الصّباح. و كان لونها الوردية أقرب إلى لون الخجل، كما لو أنّ الصبايا حين يشاهدن فجأة رجلاً وهنّ يسبحن، وبسبب الاضطراب لا يلحقن برمي الثّوب الأبيض على الصّدر. كم أحببتُ عواصفك، يا قوقاز! تلك العواصف الصّحراوية المدوية، التي كانت تجاوبها الكهوف كالحراس الليليّين! على تلّ أملس تقف شجرة و حيدة وقد انحنت تحت تأثير الرّيح والأمطار، أو دالية تصرخ في أحد التّغور، ودرّب مجهولة فوق هاوية، حيث يجري سريعاً نهر بدون اسم، و قد غطّاه

الزَّيْد؛ و إطلاق رصاصة غير متوقَّعة، والخوف بعد الإطلاق، أعدوَّ خطير أم بكلِّ
بساطة صَيَّاد؟ يا لروعة كلِّ شيء، كلِّ شيء في هذه المنطقة!¹

يتَّضح أنّ "ليرمنتوف" يتوق دائماً إلى الشَّرق العربيّ ويهتمّ بحضارته ويعبّر
عن انجذابه إليه، حيث يقول في "قصيدة "ساشكا" (1835 – 1836م):

إنني لا أبحث عن عقيدة، فلست نبيّاً

رغم إنني أسعى بروحي إلى الشَّرق،

حيث تندر الخنازير والخمر

وحيث، كما يكتبون، كان يعيش أجدادنا

يظهر هنا اهتمام "ليرمنتوف" بالشَّرق ومعرفته بتحريم الإسلام للخمر ولحم
الخنزير، مع ملاحظة توافقه مع تلك التَّعاليم، التي تمنع الخمر ولحم الخنزير وسعيه إليها
بروحه ووجدانه.

كما يقول في قصيدة بعنوان "غصن فلسطين"، حيث يُبرز صورة رائعة لفلسطين
البلاد العربيَّة مفصّلاً لطبيعتها ووديانها، إضافة إلى ذكرها كأرض للدِّيانات السَّماوية:

1. ترجمة د. إبراهيم استنبولي، جريدة السفير، الملحق الثقافي، سوريا، أكتوبر 2005.

غصن فلسطين

قل لي يا غصن فلسطين
أين نموت وأين ازدهرت؟
ولأي ربوة، ولأي واد
كنت الزينة لهم؟
أليس عند مياه الأردن النقية
كان يداعبك شعاع الشروق؟
ألم يؤرجحك في غضب
ريح المساء في جبال لبنان؟
هل كنت تقرأ صلاة صامتة،
أكنت تغني الأغنيات القديمة،
حين كانت تظلل أوراقك
أبناء سليمان البوساء؟
أما زالت النخلة ذاتها حية حتى وقتنا؟
أما زالت تغري من بعد في غيظ الصيف؟
عابر سبيل في الصحراء
برأسها ذات الأوراق الواسعة؟
أم أنها ذبلت مثلك أيضاً
في الفراق الحزين

وغيار الوادي يرقد في نهم
على الأوراق الشاحبة؟
إحـك: يدُ من النقيّة
التي حملت بك إلى تلك التّاحية؟
وكانت تحزن عليك عادة؟
أما زلت تحفظ آثار الدّموع الحارة؟
أم أنّ أفضل محارب في المعركة الإلهية،
كان بجبهته الصّافية،
جديراً دائماً مثلك بالسّماء
أمام النّاس والّله؟
محافظةً على الشّاغل الخفي،
أمام الأيقونة الذهبية
تقف أنت يا غصن القدس،
حارساً وفيّاً للمقدّسات !
الغسق الصّافي، ضوء القنديل
حافظ الأيقونة والصّليب رمز التقديس
كلّ شيء يمتليء بالسّلام والسّلوى

من حولك ومن فوقك¹

نظم "اليرمنتوف" قصيدة "غصن فلسطين" في عام (1837م) عن أرض فلسطين العربية فوصف ما تتمتع به من مناطق جغرافية خصبة وسهول ممتدة تأخذ بلب كل زائر لها، فأبدع في كلماته عن ازدهارها وجمال الروابي والمياه الصافية، التي يزينها بهاء الشرق، وكل ما يحمله من مشاعر طيبة وحب للشرق.

خلاصة القول، أن إنتاج "اليرمنتوف" الشاعر الفدّ العبقرى، ذى التراث الأدبى الغزير، وانجذابه نحو الشرق العربى الإسلامى كانت له عدّة أسباب تدفع بالشاعر إلى سماء الشرق، وقرآنه فاستلهم مختلف الصّور والموضوعات، التى تشير إلى تعطّشه إلى تلك المعاني وتدلّ على واقعه ومشاكل ذلك الواقع، فعبر عنها بأفكار فنية ثرية.

إنّ حصيلة إنتاج "اليرمنتوف" لا تسعها صفحات قليلة في دراسة كتلك التى بين أيدينا، فهو يملك حصيلة ثرية من المؤلفات النثرية والشعرية؛ حيث إنه يمثل آخر رواد الاتجاه الرومانتيكى الثورى وأهمهم، كما كان إنتاجه معبراً عن المرحلة التاريخية، التى عرفها الأدب الروسى في ثلاثينيات القرن التاسع عشر؛ حيث كان بداية لظهور المنحى الواقعى فى الكتابة، وقد أشار الناقد الروسى "بيلينسكى" إلى ذلك قائلاً: "يا للروح الجبارة! وما أصوب نظرته إلى الفنّ وما أعمق وأصفى تذوّقه التلقائى للجمال... لقد

1. ترجمة د. إبراهيم استنبولى، جريدة السفير، الملحق الثقافى، سوريا، أكتوبر 2005..

جادلته وأسعدني أن أرى في نظرتة الحكيمة والفاخرة والحانقة إلى الحياة والناس بذور
الإيمان العميق بجدارة هذا وذلك"¹

1. ميخائيل ليرمنتوف، أعلام الأدب الروسي، بطل من هذا الزمان، أعلام الأدب الروسي، دار رادوغا، موسكو 1984.

الفصل الرَّابِع ليو تولستوي

- المبحث الأول: الأديب الروسيّ ليو تولستوي
- المبحث الثاني: الطابع الشرقيّ في إنتاج تولستوي
- المبحث الثالث: إنتاج تولستوي الأدبي
- المبحث الرَّابِع: تولستوي والإسلام
- المبحث الخامس: اعتراف تولستوي
- المبحث السادس: تولستوي والمنحى الأخلاقي
- المبحث السابع: وفاة تولستوي وراثؤه

الفصل الرابع

المبحث الأول

الأديب الروسي ليو تولستوي

يوجد دين واحد: وأعتقد أنني لا أخطيء حين أعتقد

أنّ الدين الذي أعتقه هو نفسه الذي تعتقونه.

(تولستوي)

ومن أراد أن يتحقّق ما هو عليه الدّين الإسلاميّ من
التّساهل، عليه أن يطالع القرآن الكريم بامعان، وإذ ذلك
يصدر حكماً مبنياً على الحقائق الباهرة، التي تضمّنها ذلك
التّعليم (حكم النبيّ محمّد).

(تولستوي)

جذوره ونشأته

الكونت ليونيكولايافيتش تولستوي (Leo Nicolaevich Tolstoy) (1828-1910م)
"روائي وفيلسوف أخلاقيّ ومصلح اجتماعيّ يُعتبر أحد أعظم الروائيّين في العالم كلّهُ،
وقد تميّزت آثاره بعمق تحليله للإنسان ككائن اجتماعيّ"¹ وقد احتلّ "تولستوي" مكانةً
مرموقةً في الأدب العربيّ، مقارنةً مع الكتاب الأجانب الآخرين. وترك أدبه بصماتٍ

1 . تولستوي، موسوعة المورد العربيّة، منير البعلبكي، المجلد الأول، دار العلم للملايين ، بيروت، 1990، ص 348.

واضحة على الأدب العربي المعاصر وعلى الآداب العالمية كلها. لقد تأثر الأدب العربي بتولستوي ليس كفتانٍ ومفكرٍ تطرَّق في مؤلفاته إلى العديد من القضايا الإنسانية الخاصة والعامّة جعلت من أدب "تولستوي" أدباً عالمياً واسع الانتشار.

ولد الكونت ليوتولستوي (Leo Nicolaevich Tolstoy) في التاسع من سبتمبر عام (1828م)، في ضيعة صغيرة تمتلكها عائلته الأرستقراطية، يطلق عليها "ياسنايا بوليانا" (Yasnaya Polyana) تقع بالقرب من مدينة موسكو. "ليوتولستوي" هو "الابن الرابع لعائلته الغنيّة، وقد فقد أمّه وهو طفل فاهتمّ والده الكونت "نيكولاي تولستوي" بتعليمه، وفي التاسعة من عمره توفي والده مسموماً، ثم فقد والدته أبيه فاهتمّت خالاته (أسرة عمّته) به وبإخوته. وقد تلقّى "تولستوي" تعليمه الأوّلي، على يد مدرّسين خصوصيين أجانب. وفي عام (1844م)، التحق "تولستوي" بجامعة قازان وبدأ بدراسة اللغات الشّرقيّة هناك، إلا أنّه سرعان ما ضجّر من الطّريقة، التي يشرح بها أساتذته الموضوعات العلميّة، فترك الدّراسة، قبل أن يتخرّج، وعاد إلى مسقط رأسه عام (1847م). وفي عام (1851م) ذهب إلى القوقاز، التي عاش فيها أجمل سنوات عمره واطّلع على حياة وعادات المسلمين هناك وانتظم خلالها في المدرسة العسكريّة وشارك في بعض المعارك، التي كتب عن تجاربه فيها موضوعات نُشرت في الصّحف، وألّف عنها كتابه "القوقاز".

في عام (1853م) كُلف بالاشتراك في حرب ضد العثمانيين، كما اشترك في عام (1854م) في حرب القرم، التي هُزمت فيها روسيا. وفي عام (1856م) ترك خدمة الجيش. بعد تقاعده من الخدمة العسكريّة سافر إلى أوروبا الغربيّة وأعجب بطرق التدريس هناك، فشرع في تطبيق النّظريات التّربويّة التّقدميّة التي عرفها ففتح مدرسة

خاصّة لأبناء المزارعين وأنشأ مجلة تربويّة تدعى "ياسنايا بوليانا" شرح فيها أفكاره التربويّة ونشرها بين الناس".¹

كان "تولستوي" روائياً ومصلاً اجتماعياً وداعية سلام ومفكراً أخلاقياً. "وقد كان يتأنى في في صنع أعماله الأدبيّة ويعمل على نسخ النّص عشر مرات ثمّ يهجره ويستأنفه ليدعه جانباً وقد يدعه نهائياً في بعض الأحيان، وذلك لأسباب شتى؛ فتارة كان يرى أنّ العمل الأدبيّ لم ينضج نضجاً كافياً، وتارة أخرى لأنّ العمل يتسم بطابع شخصيّ مفرط، أو لأنّه لم يكن يريد أن يزيد من خصوماته في الرقابة"²

ومما يبدو أنّ في ذلك سبب في نجاح مؤلّفات الأديب الروسيّ، الذي طغت شهرته في شتى أنحاء العالم، لما لها من دقّة في الإنجاز وعمق في المعنى. كتب "فلاديمير إيليتش لينين" (Vladimir Ilyich Lenin): "إنّ "تولستوي" إذ وصف هذه الحقبة التاريخيّة من الحياة الروسيّة، قد استطاع أن يطرح في مؤلّفاته عدداً كبيراً من المسائل الهامّة، وأن يسمو إلى درجة من القدرة الفنيّة بحيث أنّ مؤلّفاته شغلت إحدى المراتب الأولى في كنز الأدب العالميّ". ويتابع لينين في المقالة نفسها فيقول "إنّ أدب "تولستوي" يعتبر خطوةً إلى الأمام في مضمار التّطوّر الفنيّ للإنسانيّة جمعاء."³ ويكتب ف. إ. لينين في مقال آخر بعنوان "تولستوي وعصره" عام (1911م) فيقول "إنّ

1. ليو تولستوي، الأعمال الأدبيّة الكاملة ج 16، القسم الأول، ترجمة صيام الجهم-، دمشق، وزارة الثقافة والإعلام 1993، ص 5.
2. المرجع نفسه.
3. د. ممدوح أبو الوي، "تولستوي والأدب العربيّ في القرن العشرين"، دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب 1999، العدد 39، ص 69، عن مقال "ل. ن. تولستوي" 1910.

النزعة التولستوية بمضمونها التاريخي الحقيقي هي أيديولوجية النظام الشرقي،
النظام الآسيوي.¹

¹ . د.ممدوح أبو الوي، "تولستوي والأدب العربي في القرن العشرين"، دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب 1999 ، العدد 39، ص 69، عن مقال "ل. ن. تولستوي" 1910.

المبحث الثاني

الطابع الشرقي في إنتاج تولستوي

رغم أنّ موضوع الشرق العربيّ وتأثيره على الأدباء الروس يعتبر من الموضوعات الهامّة، التي شغلت الرأي العام، إلا أنّ هذه المادّة لم يتطرق إليها الباحثون رغم أهميّتها؛ فتأثير الشرق العربيّ في إنتاج الأدباء الروس في القرن التاسع عشر كان كبيراً في العديد من أدباء المجتمع الروسيّ وكتّابه.

من بين الأدباء الروس، الذين تأثروا بالشرق العربيّ الفيلسوف الكبير "ليو تولستوي"، الذي اهتم بشخصيّته وإبداعه القراء العرب، والكتاب والنقاد والمترجمون منذ مطلع القرن العشرين حتّى يومنا هذا.

لقد احتلّ الشرق وشعوبه مكانة الصّدارة لدى "تولستوي"، وذلك منذ سنوات عمره المبكّرة، حيث اهتمّ باللغة العربيّة وقام بمحاولات لدراستها، ولعله استعان بمن عرفوها من الروس لما احتاجه من معلومات، فطغت اهتماماته باللغة العربيّة على كافّة كتاباته، فأقبل علي دراسة فكرها وآدابها بشغف ورغبة. لقد "اختار" تولستوي "اللغة العربيّة والتركّيّة تخصّصاً للمستقبل ودرسهما لمدة عامين على أيدي أساتذة متخصصين، وقد اختار "تولستوي" هذا الاختصاص لسببين: الأوّل أنّه أراد أن يصبح دبلوماسيّاً في الشرق العربيّ، والثاني أنّه مهتمّ بأدب شعوب الشرق". وفي عام (1844م) تقدّم إلى امتحان القبول في جامعة "قازان" وحصل على الدّرجات النهائية وسُجّل طالباً للغة

العربيّة والتركّيّة"¹ ، كما اهتمّ "تولستوي" بالجانب الدّينيّ، الذي يرى فيه حصيلة هامّة للقيم الأخلاقيّة لكافة الشّعوب.

تعرفّ القراء الرّوس أول مرّة على اهتمام المواطنين العرب بشخصيّة ل. ن. تولستوي وإبداعاته من مذكرات "س. يلباتيفسكي" (Yelbattevski) بعنوان "مصر"، التي نشرها في عام (1909م)، والتي عبّر بها عن انطباعاته التي تركتها بنفسه زيارته لمصر. ويعتبر "كرانتشكوفسكي" أول مستعربٍ روسيّ اهتمّ ودرس الدّور، الذي لعبه إبداع الشّرق العربيّ في أدب "تولستوي". نشر الأكاديميّ "كرانتشكوفسكي" في عام (1910م) مقالة "في مجلّة "الأدب الأجنبيّة" العدد 12، بعنوان "الكتاب الرّوس في الأدب العربيّ"، وقد نشرت المقالة بمناسبة وفاة الكاتب الرّوسيّ العظيم "ليوتولستوي"².

وقد تطرّق أيضاً بعض الباحثين الرّوس جزئيّاً إلى هذه المادّة، فقد نشر الناقد "ب. ي. بيريكوف" (Biryukov) دراسة بعنوان "تولستوي والشرق"، وذلك في عام (1924م)، "كما مسّ هذا الموضوع جزئيّاً السّوفيتي "شيفمان" (Shifman) في فصل من كتابه، الذي تناول فيه - بشكل إخباري - علاقة "تولستوي" ببلدان الشّرق المختلفة (الصّين، الهند، اليابان، إيران، تركيا، الدّول العربيّة، أفريقيا). وتطرّق "شيفمان"، فيما يخصّ جانب علاقة "تولستوي" بالبلاد العربيّة، إلى الحديث عن استقبال إنتاج "تولستوي" في الشّرق العربيّ وتأثيره على الكتاب العرب، كما تناول جزئيّاً تأثير "ألف

1 . د.مدوح أبو الوي، "تولستوي والأدب العربيّ في القرن العشرين"، دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب 1999 ، العدد 39، عن مقال "ل. ن. تولستوي" 1910 ص 204.
2 . المرجع نفسه.

ليلة وليلة" على إنتاج "تولستوي"، وأشار إلى تأثير الحكمة العربيّة على "تولستوي" دون تناول هذا الموضوع بالشرح والتحليل¹.

وحقاً فإن موضوع التأثير المتبادل والعلاقة المتبادلة بين الآداب العربيّة والرّوسيّة تبدو واضحة في مؤلّفات "تولستوي"، فقد تأثّر "تولستوي" بالثقافة العربيّة والإسلامية وأغنى تراثه الأدب العربي وتغلغل إلى أعماقه، وتأثّر كذلك العالم العربيّ بتراثه ومؤلّفاته، فاهتمّت به الشّخصيات الأدبيّة والثقافيّة والاجتماعيّة العربيّة. وقد ترجم الكثير من الكتاب العرب أعمال "تولستوي" الأدبيّة من اللغة الرّوسيّة إلى اللغة العربيّة، فأصبحت مؤلّفاته الرائدة تتزايد بشكل مستمر، ممّا ساعد في إثراء الأدب العربيّ والحصيلة الأدبيّة للقراء العرب ومحبيّ الأدب.

¹. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي، ص 203 (عن أ. شيفمان "تولستوي والشرق).

المبحث الثالث

إنتاج تولستوي الأدبيّ

يقدم هذا الجزء من البحث محاولة لدراسة التأثير العربي والإسلامي على فكر "تولستوي" وإنتاجه الأدبيّ ويتطرق لأعماله الأدبيّة، التي نبعث منها شهرته العالميّة ككاتب وفتان ومفكر روسي كبير طغت شهرته أنحاء العالم أجمع.

بدأت أعمال "تولستوي" الأدبيّة في سن مبكرة، فنشر في صباه قصّة "الطفولة" فلاققت نجاحاً كبيراً (1852م)، كتب بعدها قصّة "المراهقة" (1854م) وتلتها قصّة "الشباب"، وقد لاققت جميعها نجاحاً ورواجاً كبيراً. وبعد الفترة التي قضاها في الجيش وزيارته لكلّ من فرنسا وسويسرا وإيطاليا وألمانيا ثمّ زواجه واستقراره، كتب قصة "سعادة العائلة"، التي استوحاها من حياته الزوجية.

من أشهر أعمال "تولستوي" رواية "الحرب والسّلام" (War & Peace) (1869م)، التي نالت إعجاب العالم، وقد استمرّ في كتابتها لمُدّة ثلاثة أعوام. وتتناول مراحل الحياة المختلفة وتصف الحوادث السياسيّة والعسكريّة، التي حدثت في أوروبا في الفترة ما بين (1805 - 1820م). وتأتي بعد ذلك رائعته رواية "أنا كارنينا" (Anna Karenina)، التي أتمّها أيضاً في حوالي ثلاث سنوات، ما بين (1875 - 1877م)، وكلاهما يتربّع على قمة الأدب الواقعيّ، ويعطي صورة واقعيّة للحياة الروسيّة في تلك الحقبة من الزّمان. وهناك أيضاً قصّة "الشّيطان" (The Demon) (1889م)، ثم رواية "البعث" (Resurrection)، التي كتبها في عام (1899م). وغيرها الكثير من المؤلفات، التي سيرد ذكرها لاحقاً.

وجدير بالذكر أنّ "المسافة الزمنية بين ظهور روايتي " الحرب والسلام " و"أنا كارينيا" كانت أقلّ من عشر سنوات، بينما استمرّ الفاصل الزمنيّ بين روايتي " البعث" و "أنا كارينيا" عقدين من الزمن"1. وبالرغم من وجود الكثير مما يميّز رواية "البعث" عن سابقتها، لكن جميعها يحمل البعد الأسطوري في تصوّر الحياة ووصف مصائر البشر وعمّة الشعب.

أشار "ف. إي. لينين" أيضاً إلى أنّ مرحلة الأعوام (1861-1905م) هي التي ساعدت على ظهور الخصائص المتميّزة الرئيسة في أفكار ونتائج "تولستوي"؛ يقول "ف. إي. لينين" "الحقيقة إنّ نشاط "تولستوي" الأدبيّ قد بدأ قبل أن تبدأ تلك المرحلة وانتهى بعد انتهائها، لكن "تولستوي" قد تكامل ككاتب ومفكّر في تلك المرحلة بالذات؛ حيث إنّ طبيعتها الانتقالية هي التي أظهرت كل الملامح المتميّزة لمؤلفات "تولستوي" و"التولستوفشينا"2. وقد اهتمّت الشخصيات الأدبيّة والثقافية والاجتماعيّة العربيّة بإبداع "تولستوي" لانتقاده القاسي لعيوب مجتمعه ودفاعه في الوقت نفسه عن الفلاحين ومصالحهم ومعايشته لهمومهم وآمالهم.

وفيما يلي مختارات مختصرة من أدب "تولستوي" الروائي، الذي أسهم في شهرته العالميّة. والذي نلمس فيها لمسات دينيّة وأفكاراً تدلّ على مدى تعمّق كاتبها في ما يكتب لتخرج معبّرة عن نفسيّة يشوبها القلق والحيرة، ويظهر فيها التّغيير في فكر الكاتب من مرحلة إلى أخرى.

1. صوت روسيا، الإنسان والثقافة، 25 أغسطس 2008، www.ruvr.ru.
2. ف. إي. لينين، المؤلفات الكاملة، الطبعة الخامسة، المجلد 20، ص 38.

الحرب والسلام

تعدّ رواية "الحرب والسلام" (War & Peace) (1869م) من أروع ما كتب "تولستوي" من أعمال، وهي تحكي التسلسل التاريخي لحياة خمس أسر روسية، تمرّ بخضّم التجارب الإنسانيّة، ومراحل الحياة المختلفة. وفي هذه الرواية يعطي الكاتب الحلّ للصراع التاريخي العظيم الذي تناوله القصة، وذلك في مشاهد معركة "بوردينو" (Borden)، التي تشكّل النقطة الفكرية المركزية للرواية. ويعالج "تولستوي" قضية انتصار الرّوس- في حربهم ضد نابليون- كانتصار لروح الشعب الأخلاقية¹، فاندحار جيش نابليون والصّراع النفسي، الذي خلّفته الهزيمة في نفس ذلك الإنسان عكس مشاعر إنسانية عظيمة تظهر له وهم الحياة المصطنعة، ولم يكن يتميّ في ذلك الوقت غير الشّعور بالأمان والحريّة. وذلك ما يظهر دائماً في مؤلّفات الأديب الرّوسيّ "ليو تولستوي".

ويبدو ذلك في الحوار النفسي "الببير بنروخوف" في رواية "الحرب والسلام" بعد مبارزته مع "دولوخوف" عندما تساءل محدثاً نفسه: "أطلقت الرصاص على "دولوخوف" لأنني اعتبرت نفسي مهاناً، أما لويس السادس عشر فقد أعدموه باعتباره مجرماً. وبعد سنة من ذلك قتل أولئك الذين أعدموه لسبب من الأسباب. ما هو الرّدي؟ ما هو الشّيء الحسن؟ ماذا يجب أن نحب وماذا يجب أن نكره؟ لم أعيش ومن أنا؟ ما هي الحياة وما هو الموت؟ ما هي القوّة التي تسيّر الجميع؟"² ، يبدو من ذلك الحوار أنّ تلك

¹. تولستوي، فن الأدب الروائي، مرجع سابق، ص 97.
². المرجع نفسه، ص 99.

التساؤلات تدور في مخيلة الكاتب نفسه، الذي تضاربت أفكاره في معنى الحياة والموت والكون والخالق، فيعبر عنها بحوارات على لسان أبطال رواياته. وسوف يتضح لاحقاً أنّ "تولستوي" تبع تلك الأفكار وتعمّق فيها ليصل إلى قرار لا يقبل أن يجادله فيه أي شخص، حتّى ولو كانت زوجته.

وفي هذه الرواية أيضاً أعلن "تولستوي" عن رفضه القاطع لنظريّة تخليد التاريخ للرجل العظيم. ويؤكد أنّ الشخصيات العظيمة، ليس لها بصمات مؤثرة على مجريات أحداث التاريخ، كما يعتقد بعض الناس، وبهذا يكون "تولستوي" قد حقّق بهذه الرواية نزع المجد من الارستقراطية وتوطيدها في انتصار الفكر الشعبيّ البسيط.

آنا كارنينا

تختلف الصّورة في رواية "آنا كارنينا" (Anna Karenin) عام (1875م)، فقد صار موضوع العزلة يطغى بشكل حادّ على جوّ الرواية، كما طغت الرّوح المأساويّة وازدادت في عمق وتناقضات العصر واختفت تلك الآفاق النّاصعة، التي اتّضحت في شخصيّات رواية "الحرب والسّلام".

وتدور أحداث رواية "آنا كارنينا" حول كابوس الخيانة الزوجيّة، حيث كانت الأميرة الرّوسيّة "آنا" تخون زوجها "كارنين" وتعيش علاقة رومانسيّة مع الكونت "فيرونسكي" (Vronsky). ويبيدي كلّ من "آنا" والكونت احتقارهما لأفكار الطبّقة الأرستقراطيّة الرّاقية، التي ينتميان إليها. تفكّر البطلة "آنا" "بضباييّة تامّة أحياناً وهي

تتساءل: "لم لا يمكن حدوث ذلك سويّة؟ عند ذاك فقط سأكون سعيدة، أما الآن فيجب عليّ أن أختار، ولا يمكن أن أكون سعيدة بدون أحدهما وبدون كليهما"¹ وتأتي نهاية الرواية بانتحار البطلة، نتيجة الصّعوبات الكبيرة، التي واجهت ارتباطها بمن أحبّت، ذلك الحبّ الذي يفضي إلى الموت تحت وطأة الخيبة..

"تولستوي" هنا يركّز على الجوّ العائليّ ثمّ التناقضات، التي حدثت في ذلك الجوّ ممّا تسبّب في ذلك الخلل الكبير في جوّ العائلة، الذي يتسم دائماً بصفة الحبّ والترابط الأسريّ، الذي هو "الحياة" في نظر "تولستوي"، فيتلاشى الحبّ في مجتمع "أنا" بفقدانها للدّعمة الأساسيّة للأسرة وتباعدها ممّا تسبّب في انهيار مملكتها، فرأت أنّ المخرج الوحيد لها من ذلك الموقف الشّانك هو الموت، فأقدمت على الانتحار كحلّ نهائيّ لمعضلتها. " إنّ المسألة الاجتماعيّة تندمج في روايات "تولستوي" مع الصّورة الواسعة للحياة الروسيّة بأشكال فنيّة مميّزة تعكس الصّفة الأساسيّة لعبقريّة الكاتب الأدبيّة؛ وهي الفهم الدّقيق والعميق لديالكتيك الرّوح"²

ويقدّم الكاتب في هذه الرواية سرداً لأغوار القضايا الاجتماعيّة والفلسفيّة والأخلاقيّة لروسيا القيصريّة، وطبقتهما الأرستقراطيّة في سبعينيات القرن التاسع عشر. وتشمل هذه القضايا التّصرفات المرآئية للطبقة الراقية، تجاه الخيانة الزوجية، ودور الإيمان العقائدي في حياة البشر. وتُطرح الرواية عدداً من هذه القضايا من خلال أفكار وأفعال "ليفين" (Levin)، وهو الشّخصيّة المحوريّة الثانية في الرواية، والذي يعبر،

1. تولستوي، فن الأدب الروائي، مرجع سابق، ص 163.

2. ف. ع. أدنكوف، فن الأدب الروائي عند تولستوي، ترجمة د. محمد بونس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1986، ص 6.

في الوقت ذاته، عن أفكار وآراء "تولستوي"؛ فهناك تشابه بين حياة "ليفين" وحياة "تولستوي" التي عاشها في "ياسنايا بوليانا"، فقد أصبح عنده "تغيّر مفاجيء مع كتابة "أنا كارنينا"، فتحوّل من ملحد إلى مؤمن، وهذا ما أشار إليه في "اعترافاته" عام (1880م)، فاتخذ مثل المسيحية الأخلاقية، وحاول في آخر أيامه اتباع تعاليم السيد المسيح وأصبح يحيا حياة القديسين"¹. كما استطاع "تولستوي" أن يكتب في "اعترافاته" "منذ خمس سنوات بدأت أشعر بأعراض غريبة؛ كانت تصيبي لحظات من الحيرة، من توقف الحياة، فلا أدري ما أنا فاعل ولا لم أنا موجود؟ وكان توقّف الحياة ذلك يتجسّد في سؤالين: لماذا؟ وماذا بعد ذلك؟ وكأنتي قد عشت طويلاً مكتفياً بالحاضر، غير متطّلع إلى المستقبل، وسرت إلى الأمام حتى وصلت إلى شفا هوّة ليس بعدها سوى العدم والهلاك الأبديّ. كنت أسعى بكل قواي إلى الابتعاد عن الحياة، أنا الذي كان يُعدّ أحد سعداء العالم، فاجأت نفسي وأنا أبعد عن نظري حبلأ كان يمكن أن أشنق نفسي به لو علّقته بالجسر، الذي يفصل بين خزانتيّ غرفتي، وكففت عن الذهاب إلى الصيد لأنّ بندقيتي تيسر لي سبيل الخلاص من الحياة"²، وتلك هي الحقيقة التي وجدها "ليفين" بدوره في كلمات الفلاح البسيط "يجب أن يعيش الإنسان بروحه بحسب الحقيقة وبحسب قانون الربّ"³

ويبدو أنّ "تولستوي" أخذ يبحث عن إجابة لتساؤلاته بشتّى الطّرق فلم يجد لها إجابة، فأخذ طابع التّغيير يظهر بصورة واضحة في كتاباته المختلفة، بما في ذلك أجزاء أخرى متفرّقة من رواية "أنا كارنينا"، منها قول كارنين- زوج "أنا" إنّه لا يستطيع

1 . موريس حنا شربل، موسوعة الشعراء والأدباء الأجانب، بروس بيس، طرابلس، لبنان، 1996، ص 168.
2 . ليو تولستوي، الأعمال الأدبية الكاملة، أنا كارنين ج 1، ترجمة صيام الجهم، وزارة الثقافة والإعلام، سوريا، 1984، ص 20.
3 . المرجع نفسه.

معاقبة زوجته بعد خيانتها له، وإنّ الإله وحده هو الذي يستطيع أن يَبْتَ في أمرها وعشيقها. يقول كارنين: " إنني لن أفعل شيئاً... إنني لا أستطيع، ولا أريد أن أعاقب. فالانتقام هو أمر إلهي."1، وكلمات "ليفين" عندما جاء المخاض لزوجته "كيّتي" يقول: " يا إلهي، ارحمنا، اغفر لنا، ساعدنا"، أخذ يردّد تلك الكلمات، التي صعّدت فجأة إلى شفّتيه. لم يكن يلفظها فقط بشفّتيه، مع أنّه لم يكن مؤمناً، في هذه اللحظة كان يعلم أنّه لا شكوكه ولا استحالة التوفيق بين العقيدة والعقل، وهي استحالة كان يعرفها جيّداً، تمنعه إطلاقاً من التّوجه إلى الله. لقد تبدّد كالدّخان ذلك كلّهُ الآن. وإلى من يتوجّه إلا إلى ذلك الذي يحسّ أنّه يملك بين يديه روحه وحبّه وشخصه بأكمله"2، وحين يقول "ليفين" أيضاً في نهاية القصّة وهو يتأمّل السّماء والظلام يكتنفها بغيومها المتكدّسة، ويرى وميض البروق يصل ممتزجاً بقصف الرّعد، يقول مؤكّداً الجواب على شكوكه: " ما الذي يثير اضطرابي يا ترى؟ نعم، إنّ التّجلّي الوحيد والبديهي والأكيد للألوهيّة، هو قانون الخير، الذي أعلن للناس جميعاً، والذي أحسّه فيّ، وشئت أم أبيت، أنا مؤيّد لجميع الذين يقرّون بهذا القانون، ونحن نكوّن جماعة من المؤمنين"3 وحقاً فقد ظهرت من خلال هاتين القصّتين العمليّة الإبداعية لدى "تولستوي" وتميّزتا بمصير متميز عن قصصه المبكّرة.

أسير القوقاز

هناك أيضاً رواية " أسير القوقاز"، التي كتبت بفرنّ مذهل؛ فهي تحتوي على ستّة فصول قصيرة لا يزيد كل فصل منها عن عشر صفحات صغيرة، وقد تضمّنت

1. ليو تولستوي، الأعمال الأدبية الكاملة، أنا كارنين ج 1، ترجمة صيام الجهم، وزارة الثقافة والإعلام، سوريا، 1984، ص 20.

2. ليو تولستوي، الأعمال الأدبية الكاملة، أنا كارنين ج 3، ص 444.

3. المرجع نفسه، ص 615.

وقائع حرب القوقاز و حياة قرية جبليّة بكاملها، وصف فيها "تولستوي" الطّبيعة بصورة مذهلة قلّما وُجدت في كاتب آخر، ورسم صورة الضّابط الروسيّ المليئ بالثّقة، الذي لا تهزّه المصائب، مضمّناً فيها كلّ العناصر الأساسيّة، التي تزيد من قوّة المعنى، ومشيراً فيها أيضاً إلى أيّ مدى يمكن أن ينعّمس المرء، حتّى دون أن يشعر، في علاقات عصره وإن كان يرفضها في وعيه. حيث ادّعى البعض إلى الجزم بأنّ الحرّيّة وهم، لأنّ الإنسان منذ ولادته موضوع بين خيارات محدودة و إن توهم أنّه حرّ الاختيار، لكنّه بطريقة أو بأخرى يستمدّ خياراته وأفكاره ومفاهيمه من خيارات وأفكار ومفاهيم عصره، التي يتماشى معها أو يرفضها. وتلك المفاهيم تحدّد طريقة تفكيره.

كتب "تولستوي" أيضاً قصّة "ثلاث ميّات"، التي كتب عنها إلى أصدقائه المقرّبين موضحاً فحواها قائلاً: "إنّه كان يريد في هذه القصّة أن يمسّ القضيّة الفلسفيّة من الحياة والموت، ويظهر في الوقت ذاته أفضليّة البسطاء من الشعب على الإرسطويّين، الذين كان موقف الكاتب منهم يزداد انتقاداً عامّاً بعد عام"1

وقد قيّم الناقد الشهير "د. ي. بيسارييف" (D. Y. Pisarev) قصّة "ثلاث ميّات" تقييماً عالياً، وذلك في مقاله المنشورة في مجلّة "راسفيت" العدد 12 لعام (1859م). وفي هذا المقال يرى أنّ "تولستوي" سايكولوجيّ عميق، وما من أحد من الكتاب تعمّق في نفس الإنسان مثله"1 "إنّ المسألة الاجتماعيّة تندمج في روايات

1 . ليوتولستوي، قصص، ترجمة غائب طعمة فرمان، فرع طشقند 1986، ص 264.
1. المرجع نفسه.

"تولستوي" مع الصّورة الواسعة للحياة الرّوسيّة بأشكال فنيّة مميّزة تعكس الصّفة

الأساسيّة لعبقريّة الكاتب الأدبيّة؛ وهي الفهم الدّقيق والعميق لديالكتيك الرّوح"1

وقد كان "تولستوي" شديد الاعتزاز بقصّتيه "يوميات واضع العلامات"

و"ألبرت"؛ ففي رسالة موجّهة إلى "ن. أ. نكراسوف" (N. A. Nkerassov) بتاريخ

15 أيلول (1853م) كتب "تولستوي": "أبعث إليكم بهذه المقالة الصغيرة "يوميات واضع

العلامات" لنشرها في مجلّتكم. إنني أفخر بها أكثر من "الطّفولة" و"الهروب"2

كان ذلك هو موقف "تولستوي" في كل من تلك الرّوايات، له مسحتّه الخاصّة؛

فقد ظهرت الأصالة المتغيّرة للعلاقة الأخلاقيّة بالحياة وأضفت على كلّ رواية مسحة

جديدة تتجسّد في نتاجات رائعة في هذه المؤلّفات، إلى جانب المسحة الدّينيّة التي تطغى

في بعض المواقف.

1. ف. ع. أدينكوف، فن الأدب الروائي عند تولستوي، ترجمة د. محمد يونس، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة 1986، ص 6.

2. تولستوي، فن الأدب الروائي، مرجع سابق، ص 20.

المبحث الرابع

تولستوي والإسلام

اهتمّ "تولستوي" بدين الإسلام وأقبل على دراسته ضمن الأديان، التي اهتمّ بدراستها. وقد عرف قراء اللغة العربيّة ما للفيلسوف الكونت "ليو تولستوي" من مكانة خاصّة للقرآن وأحاديث الرّسول، ويظهر ذلك في العديد من مؤلّفاته، وعلى رأسها كتابه "حكم النّبي محمّد" (The wisdom of the Prophet Muhammad). وقد كان لتولستوي "جرأة وحبّ للدّفاع عن الحقّ دون أن يخشى لومة لائم أو نقمة ناقم، حتّى أنّه كان يخاطب قيصر روسيا ورجال حكومته مبيّناً لهم حالة الرعيّة والبلاد وما تحتاجه من الإصلاحات التي غفلوا عنها. ونسبة لما رآه الفيلسوف من أعمال جمعيات المبشّرين من تحامل على الدّين الإسلاميّ وتصويرها للرّوس تلك الدّيانة وصاحب تلك الشّريعة بصورة غير صورتها الحقيقيّة، هزّته الغيرة على الحقّ، فكتب ذلك الكتاب، وقد اختار فيه مجموعة من أحاديث النّبي محمّد (صلوات الله وسلامه عليه) ذكرها بعد مقدّمة جليلة الشّأن، واضحة البرهان"¹.

وقد حمل "تولستوي" على عاتقه مسؤوليّة التعرّف بالإسلام، فقدّم دراسة في "مقال كتبتّه "بيرس" (Bers) شقيقة زوجته، تناولت فيه بالتّعريف سيرة الرّسول (صلّى الله عليه وسلّم). وتوجد مسوّدّة الدّراسة في أرشيف "تولستوي" في موسكو وبها تصويبات بخطّ "تولستوي"، الذي لم يكتف بتقديم الدّراسة؛ بل قام بمراجعتها وتصحيحها.

1. ليو تولستوي، حكم النبي محمد، ترجمة سليم قبيعين، الطبعة الثالثة، 1987، مصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، مقدّمة المعرب، ص 5.

وكانت مقدّمة "تولستوي" لدراسة "بيرس" بمثابة مدخل للتعريف بالديانة الإسلاميّة، وظروف نشأتها، وتعريف بالشعوب التي اعتنقت الإسلام، إلى جانب تناوله بالشّرح لبعض الشّعائر والأعياد الإسلاميّة¹

وحسب الدكتور مكارم الغمري أنّ من ضمن المؤلفات، التي كتبها "تولستوي" عن الإسلام : كتيّب بعنوان "أحاديث مأثورة لمحمد"، وذكرت أنّ تأليفه لهذا الكتاب كان بسبب تحامل جمعيات المبشّرين في "قازان" على الدّين الإسلاميّ، وأنّ "تولستوي" قد هزّته الغيرة على الحقّ فأخرج ذلك المؤلّف. ويبدو أنّ ذلك الكتيّب هو نفس الكتاب الذي تمّ نشره بعنوان "حكّم النبيّ محمد"؛ فقد ذكرت د. مكارم الغمري أنّ "تولستوي" جمع فيه أحاديث للرّسول (صلى الله عليه وسلّم) انتقاها بنفسه وأشرف على ترجمتها، ومراجعتها والتّقديم لها، مشيراً في صدر كتابه إلى مصدر تلك الأحاديث، وهو كتاب وضعه بالإنجليزيّة "عبدالله السّهورودي"، الكاتب الهنديّ ورجل القانون، الذي كان يتبادل الخطابات مع "تولستوي". وقد تخيّر "تولستوي" من ذلك الكتاب بعض الأحاديث، التي وجد بها حقائق تتّسم بها مختلف التّعالم الدّينيّة. وقام بترجمة الأحاديث إلى الرّوسيّة "س. نيكولايف" (Nikolaev) "2" ، وإلى العربيّة أصدر أوّل ترجمة للكتاب الكاتب "سليم قبعين"، فأوضح ما كتبه "تولستوي" عن التّعالم الإسلاميّة من توحيد لله والثّواب والعقاب والحثّ على صلة الأرحام، إذ يقول: "وجوهر هذه الدّيانة يتلخص في أنّ الله واحد، ولا يجوز عبادة أرباب كثيرة، وأنّ الله رحيم عادل، ومصير الإنسان يتوقّف على الإنسان وحده، فإذا سار على تعاليم الله فسيحصل على الجزاء، أما

1. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربيّة وإسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 206 (بتصرف).
2. المرجع نفسه، ص 207 (بتصرف).

إذا خالف شريعة الله، فسينال العقاب. وحسب ما يرى الإسلام، فإن كل شيء في هذه الدنيا

فان زائل ولا يبقى إلا الله.¹

وقد ذكر الكاتب "سليم قبعين"، معرب كتاب "حكم النبي محمد" أن "تولستوي" قدّم لكتابه بمقدمة جليلة الشّان وقال: "هذه تعاليم صاحب الشريعة الإسلاميّة، وهي عبارة عن حكم عالية ومواعظ سامية تقود الإنسان إلى سواء السبيل ولا تقلّ في شيء عن تعاليم الديانة المسيحيّة" ووعده بأنّه سيضع كتاباً كبيراً يبحث فيه أبحاثاً إضافيّة بعنوان "محمد"2.

ومن هنا يبدو أنّ "تولستوي" يعترف بسماحة هذه الرّسالة وأصالتها تدعوه للبحث والتّنقيب عنها للوصول إلى نتائج تؤيّد اعتقاده وتثبت للرّوس صحّة ذلك الاعتقاد.

إنّ "تولستوي" اختار الأحاديث، التي وردت في كتاب "حكم النبي محمد" من كتاب "أحاديث النبي محمد" لعبدالله السّهوردي في الهند، الذي "اتخذ لكتابه عنواناً الآية القرآنية (32) من سورة "التوبة" " يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ(32)"3 ؛ حيث قال إنّها لا تخالف في شيء تعاليم الديانات الأخرى، التي ترشد إلى الحقّ وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر" وقال: "إنّ محمداً هو

1. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 210.
2. ليو تولستوي، حكم النبي محمد، مرجع سابق، ص 6 (علق على ذلك د. محمود النجيري في دراسته وتقديمه لكتاب "حكم النبي محمد" قائلاً: "لا نعلم أن تولستوي وفق لهذا الكتاب").
3. الآية 32 من سورة التوبة.

مؤسس ورسول الديانة الإسلامية، التي يدين بها في جميع جهات الكرة الأرضية ماتنا مليون نفس" 1

وجدير بالذكر أنّ "تولستوي" كانت كثيراً ما تستوقفه سماحة الدين الإسلاميّ تجاه الديانات الأخرى، ويرى في ذلك دليلاً على مرونة الدين الإسلاميّ إلى جانب ما يحتويه من تعاليم سمحة ذكرها الكاتب في تقديمه لكتاب "أحاديث مأثورة لمحمد"، ضمّنها الدعوة إلى الجهاد والزهد، الذي كان سمة من سمات حياته البسيطة، والعفة والنهي عن الخمر وتجنب الإغراق في الملمات وغيرها من الصفات، ممّا يظهر تأتّر "تولستوي" بالأحاديث النبوية والتعاليم الإسلامية، إضافة إلى قوله عن النبيّ محمد (صلى الله عليه وسلم): "ويكفيه فخراً أنّه هدى أمة برمتها إلى نور الحقّ، وجعلها تجنح للسكينة والسلام وتفضّل عيشة الزهد، ومنعها عن سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية، وفتح لها طريق الرقي والمدنية، وهو عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوتي قوة رجل، ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والإكرام" 2

اختار "تولستوي" من كتاب "عبدالله السهروردي" عدّة أحاديث ورد ذكرها في كتابه "أحاديث النبيّ محمد" وعربها "تولستوي" من الإنجليزية إلى الروسية وأسماها "حكم النبيّ محمد". ومن أمثلة هذه الأحاديث "لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه" 3 و"حُفّت الجنة بالمكاره والنار بالشّهوات" 4 و "الحلال بيّن والحرام

1. ليو تولستوي، حكم النبيّ محمد، ص 7 - 8.

2. ليو تولستوي، حكم النبي محمد، ص 10.

3. أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (13)، وأخرجه مسلم في الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (45).

4. أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب حجبت النار بالشّهوات (6122)، وأخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (2822).

بيّن"1 و"ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء"2 و "لا تميتوا قلوبكم بكثرة
الطعام والشراب"3 و"اعملْ لدنياك كأنك تعيشُ أبداً واعملْ لآخرتك كأنك تموتُ غداً"4
و"الدنيا متاعٌ وخيرُ متاعِ الدّنيا المرأةُ الصّالحة"5 وغيرها العديد من الأحاديث، التي لا
يتّسع المجال لذكرها في هذه الدّراسة.

تولستوي والفلسفة الدّينيّة

بدأ "تولستوي" في عام (1857م) سياحة طويلة في أوروبا زار خلالها كلّ من
ألمانيا وإنجلترا وسويسرا وبلجيكا، والتقى بأدباء ومفكرين من هذه البلدان. عاد
"تولستوي" إلى روسيا وتزوَّج وانقطع تماماً إلى الكتابة في بيته في المزرعة. وقد حدث
في هذه السّنوات التّغيير العميق الذي طرأ في نظرته إلى الحياة والموت، وبدأ يهتمّ
بالفكر وبالفلسفة الدّينيّة. وسجّل نظرته الجديدة هذه في كتب وروايات وقصص عديدة
منها "ما الدّين؟" و"موت إيفان إليج" و"بماذا يعيش الإنسان؟" و"مانيفيستو الموت".
وكان هناك كتاب "ما الفن؟"، الذي أوضح فيه أنّ الفنّ ينبغي أن يُوجّه النّاس أخلاقياً، وأن
يعمل على تحسين أوضاعهم، وأن يكون بسيطاً يخاطب عامّة النّاس.

-
1. أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (52)، وأخرجه مسلم في كتاب المساقاة، باب اخذ الحلال وترك الشبهات(1599).
 2. أخرجه أبو داؤد، كتاب الأدب، باب في الرحمة (4941)، والترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين (1924)، صححه الألبيني.
 3. قال الألباني: "لا أصل له". السلسلة الضعيفة (2/154)، حديث رقم (721).
 4. مسند الحارث- زوائد الهيثمي، كتاب الزهد، باب كيف العمل للدنيا والآخرة (1093)، من قول عبدالله بن عمرو بن العاص. وقال الألباني: " لا أصل له، وإن اشتهر على الألسنة، (السلسلة الضعيفة 1/63).
 5. أخرجه مسلم، كتاب الرضاع، باب خير متاع الدنيا المرأة الصّالحة (1467).
- * كافة الأحاديث من كتاب ليو تولستوي، حكم النبي محمد، المرجع السابق، ص 48، 51 و 57.

ومن الدلائل، التي تشير إلى أنّ "ليو تولستوي" من المشاهير، الذين أعجبوا بالإسلام وبرسوله، قوله: "إنّ محمّداً هو مؤسس ورسول، تحمّل في سنيّ دعوته الأولى كثيراً من اضطهاد أصحاب الديانة الوثنيّة القديمة وغيرها، شأنه شأن كلّ نبيّ قبله نادى أمته إلى الحقّ، ولكن هذه الاضطهادات لم تثنّ عزمه؛ بل ثابر على دعوة أمته. لم يقلّ محمّد إنّ نبيّ الله الوحيد، بل اعتقد أيضاً بنبوة موسى والمسيح. ودعا قومه إلى هذا الاعتقاد أيضاً". وقد كان "تولستوي" دائم الاعتراض على العديد من العقائد المسيحيّة، ولا سيّما عقيدة التثليث؛ لأنّه عدّها عقيدة تصادم المنطق. ومن أقواله أيضاً عن النبيّ محمّد (صلى الله عليه وسلّم): "ومما لا ريب فيه أنّ النبيّ محمّد كان من عظماء الرجال المصلحين الذين خدموا المجتمع الإنسانيّ خدمة جليّة"¹. كما أنّه "جمع مختارات من أحاديث الرّسول في رسالة صغيرة لينشرها عام 1909م باللغة الرّوسيّة في دار نشر "بوسريندك"².

ونسبة لمعرفة "تولستوي" باللغة العربيّة، فقد اطّلع على الكثير من آداب العرب وتراثهم وقام بترجمة العشرات من أحاديث النبيّ (صلى الله عليه وسلّم)، أبرزها جوامع الكلم، التي جمعها في كتاب "حكّم النبيّ محمّد"، " إلى اللغة الرّوسيّة. كما ترك "تولستوي" في هذا المجال تراثاً أدبيّاً كبيراً يصبّ في خدمة وإثراء الأدب العالميّ. تميّز ذلك التّراث الأدبيّ بالنزعة الإنسانيّة، التي تحمل معاني السّلام ونبذ الحروب وقيم الخير، والتي لو اعتنقتها أيّ أمة فإنّها سوف تنهض بها وترقى.

1. أورخان محمد علي، حقيقة إسلام الأديب الروسي تولستوي، مدونات مكتوب، الأربعاء، 13 أبريل، 2007.
2. المرجع نفسه.

هل أسلم تولستوي

هناك احتمال قوي بأن "تولستوي" اعتنق الإسلام؛ فحسب رأي أديبة روسية مهتدية خريجة معهد اللغات الأجنبية اسمها "فاليريا بوروخوفا" (Valeria Borokhova) كانت قد تزوجت من عربي يدعى محمد سعد الرأشد، وقضت معه أحد عشر عاماً في المملكة العربية السعودية، وقد أتقنت اللغة العربية، وقامت بترجمة القرآن إلى اللغة الروسية، كما أنها حازت على ميدالية "من أجل الوحدة الدينية" من الإدارة الدينية لمسلمي الإقليم الأوروبي من روسيا، وتمّ الاعتراف بها من قبل أكاديمية العلوم الإسلامية في جامعة الأزهر في القاهرة، أنها تقول: "إنّ "تولستوي" قد أسلم في أواخر حياته بعد قيامه بدراسة الإسلام، وأوصى أن يُدفن كمسلم، وتستدلّ على ذلك بعدم وجود إشارة الصليب على شاهد قبره. وقد بذلت الحكومة الروسية جهدها في إخفاء هذه الحقيقة؛ خوفاً من انتشار خبر إسلامه، الذي كان سيحدث تياراً من حبّ الإسلام بين أفراد المجتمع الروسيّ المعجبين بكتاباتهِ. وممّا يُذكر أنّ "تولستوي" لم يُعجب بالفلسفة الشبوعية، التي كانت قد انتشرت بسرعة بين المثقفين الروس آنذاك، ولم يجد فيها ما يشبع عقله وقلبه وروحه، بل فضّل الإسلام عليها. ولعلّ رسائله، التي كتبها إلى إحدى القارئات، توضّح مدى إعجابه بالإسلام، وربّما اعتناقه له في أغلب الاحتمالات"¹.

ويُذكر أنّ هناك رسالة أرسلتها إحدى السيدات المسيحيّات، وتدعى "إيلينا وكيلوفا" كانت متزوجة من الجنرال "إبراهيم آغا" وهو مسلم تركي من أذربيجان، وكان القانون الروسيّ يعطي الحقّ للأبَاء والأمّهات بتسجيل أولادهم في الدين الذي يرغبون به

1. أورخان محمد علي، حقيقة إسلام الأديب الروسي تولستوي، مدونات مكتوب، الأربعاء، 13 أبريل، 2007.

ويختارونه إن كان الزوجان ينتسبان إلى دينين مختلفين. وقد ذكر المصدر معلومات تؤكد معرفة "تولستوي" بالإسلام إلى درجة تصل إلى إمكانية اعتناقه لهذا الدين الحنيف. ونسبة لما في هذه المعلومة من تأكيد لإسلامية الأديب الروسي، يورد البحث النص كاملاً دون نقصان.

يقول المصدر "ولما كانت السيدة "إيلينا" معجبة بأفكار "تولستوي" إعجاباً كبيراً، أرسلت إليه برسالة جاء فيها: "أستاذنا المحبوب "ليو تولستوي" .. لا أجد الكلمات المناسبة للاعتذار لإزعاجكم بهذه الرسالة، وقد اضطررت لمراسلتكم، لأنّ الحياة واجهتني بمشكلة لا طاقة لي بها..... إنني الآن في الخمسين من عمري وأمّ لثلاثة أولاد وزوجي مسلم، غير أنّ زواجنا قانوني (أي لم ننزّج زواجاً دينياً) وأولادي مسجّلون كمسيحيين، وابنتي في الثالثة عشرة من عمرها وابني الثاني، ويبلغ ثلاثة وعشرين عاماً، يدرس في المعهد التكنولوجي في بطرسبورغ، والآخر اثنان وعشرون عاماً وهو ضابط في المدرسة العسكرية في موسكو، وأولادي يرغبون أخذ إذني في التحوّل إلى الإسلام، ولا أدري ماذا أفعل..... إنّ هذا التحوّل ممكن في هذه الأيام. كما أعلم أنّ العلاقات سيئة مع الأجانب، الذين يعيشون هنا. وظهر هذه الفكرة عندهم، أي فكرة تحوّل الأبناء إلى الدين الإسلامي، ليست نابعة من مشاكل عائلية، ولم تدفعهم إلى هذا أية مصلحة دنيوية أو منفعة مادية، ولكنهم يحملون نية مساعدة شعب التتار، الذي يعاني الجهل. ولكن اختلاف الدين هو الذي يمنعهم من الامتزاج والاختلاط بهذا الشعب ومساعدته. وأنا أخشى أن تدفع أفكار الشخصية الخاطئة أبنائي إلى طريق سيئ". ردّ "تولستوي" على تلك الرسالة في 15 مارس 1909 قائلاً: "إلى "إيلينا وكيلوفا" .. لا يسعني سوى الشّعور بالتقدير والإعجاب لرغبة أبنائكم في مساعدة الشعب التتاري في

رفع وعيه، ولا أستطيع بيان مدى ضرورة قبول أبنائكم للإسلام، وعليّ أن أقول بشكل عام إنّ تقديم بيان الحكومة حول الدّين، الذي ينتسب إليه الشّخص يجب أن يسبقه أولاً إيمان الشّخص بذلك الدّين. ولا أرى ضرورة قيام أبنائكم - بعد أن فضّلوا الدّين الإسلاميّ على الدّين المسيحيّ، أي بعد أن انتقلوا من دين لآخر- تقديم أي معلومات في هذا الخصوص إلى أي جهة... لذا فعلى الأبناء إعطاء القرار بخصوص إعلام الجهات الرسميّة بهذا أو عدم إعلامها. أمّا إذا جننا إلى أفضليّة الدّين الإسلاميّ على الدّين المسيحيّ، وإلى النّيّة السامية لأبنائكم، فإنني أوّيد هذا من كل قلبي، وقد يكون صدور هذا الكلام من شخص يقدر القيم المسيحيّة غريباً، ولكن عليّ أن أقول بأنني واثق جداً بأنّ الإسلام يبدو متفوّقاً على الدّين المسيحيّ، الذي تقدّمه الكنيسة بدرجة لا يمكن قياسها. ولو وُضع أمام أيّ شخص حريّة الاختيار بين الدّين الإسلاميّ ومسيحيّة الكنيسة، لكان على كلّ شخص عاقل اختيار الدّين الإسلاميّ، الذي له إله واحد ونبيّ واحد، وليس اختيار الدّين المسيحيّ بثالوثه الغامض على الفهم والإدراك، وبمراسيمه في غفران الذّنوب وبشعائره الدينيّة، وبتوسّلاته لأمّ المسيح وعبادة صور القديسين العديدين"¹. ثم يستعرض "تولستوي" أهمّ الأديان، ويرى أنّ هذا الفهم الصّحيح كان موجوداً لدى واضعي أو مبلّغي هذه الأديان، فأشار إلى أنّ كتاب فادا (كتاب الدّين الهندوسي)، موجود لدى موسى (عليه السلام) وبودا وكونفوشيوس ولاوتوز وفي المسيحيّة وفي تعاليم محمّد"، ولكن

1. أورخان محمد علي، حقيقة إسلام الأديب الروسي تولستوي، مدونات مكتوب، الأربعاء، 13 أبريل، 2007.

أتى من بعدهم من أخلّ بصفاء هذه الأديان، وذكر أنّ الدّين الإسلاميّ أقلّ هذه الأديان
تعرضاً للخرافات وأكثرها صفاءً.¹

في صفحة (356) من المجلد الثالث يرد ذكر عائلة "إبراهيم آغا" وأحزان
زوجته. يقول طبيب "تولستوي": "في يوم 13 مارس عام (1909م)، قال "تولستوي"
لأصدقائه: "تلقيت رسالة من أمّ تقول إنّ والد أولادها مسلم وهي مسيحيّة، ولها ابنان
أحدهما طالب والآخر ضابط، ويرغب كلاهما في الانتقال إلى الدّين الإسلاميّ" قالت
"صوفيا أندريافنا": "علّهما يريدان الانتقال إلى الإسلام ليتمكنا من الزّواج من أكثر من
زوجة واحدة". قال "تولستوي": "وماذا يهّم؟... عندنا عدد كبير ممّن يعدّد زوجاته... لقد
وضحت أشياء كثيرة لديّ عند التّفكير في هذه الرّسالة.. لقد ظهر لديّ بأنّ محمّداً كان
يسمو على المسيحيّة في كلّ وقت... إنّّه لم يعدّ الإنسان إلهاً، ولم يعادل بينه وبين الله.
يقول المسلمون: "لا إله إلا الله، محمّد رسول الله"... لا نجد هنا معضلة ولا سرّاً
غامضاً". قالت صوفيا: أيّهما أفضل المسيحيّة أم الإسلام؟ أجاب "تولستوي": "الأمر
واضح بالنسبة لي... الإسلام أفضل وأسمى بكثير". وبعد صمت قصير قال: "عندما نقارن
بين المسيحيّة والإسلام نرى أنّ الإسلام يسبق المسيحيّة ويسمو عليها... لقد ساعدني
الإسلام كثيراً"².

ونسبة لما في دخيلة "تولستوي" من سماحة دينيّة، فقد أخذ يهتمّ بدراسة مختلف
الأديان مفكراً ومتأملاً ومتسائلاً، إلى أن توصّل إلى ذلك الاستنتاج. تقول الباحثة د.
مكارم الغمري أنّه بعد دراسته للإسلام، وجد "تولستوي" في نفسه قرابة مع المسلم، وهو

1. أورخان محمد علي، حقيقة إسلام الأديب الروسي تولستوي، مدونات مكتوب، الأربعاء، 13 أبريل، 2007.
2. المرجع نفسه.

ما أشار إليه صراحة في خطابه التاريخي إلى مفتي الديار المصرية الإمام "محمد عبده"، الداعية المصري، الذي كان يعيش في نفس العصر الذي عاشه الأديب الروسي "تولستوي"؛ حيث إنَّ "تولستوي" عاش ما بين عامي (1828م - 1910م) والإمام "محمد عبده" أيضا عاش في نفس حدود هذه الحقبة من الزمان، أي من عام (1849م) إلى عام (1905م). كان الإمام "محمد عبده" قد كتب إلى "تولستوي" رسالة يقول فيها: "أيها الحكيم الجليل مسيو "تولستوي": لم نحظ بمعرفة شخصك ولكننا لم نحرم التعرف مع روحك، سطع علينا نور من أفكارك، وأشرق في آفاقنا شمس من آرائك، ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك. هداك الله إلى معرفة سرّ الفطرة التي فطر الناس عليها ووقفك على الغاية، التي هدى البشر إليها، فأدركت أنّ الإنسان جاء إلى الوجود لينبت بالعلم ويثمر بالعمل؛ ولأن تكون ثمرته تعباً ترتاح به نفسه، وسعياً يبقى به ويرقى بنو جنسه. وشعرت بالشفقة، الذي نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة، واستعملوا قواهم - التي لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها- فيما كدر راحتهم وزرع طمأنينتهم..

ونظرت نظرة في الدين مزقت حُجب التقاليد، ووصلت بها إلى حقيقة التوحيد، ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ما هداك الله إليه، وتقدّمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه، فكما كنت بقولك هادياً للعقول، كنت بعملك حاتماً للعزائم والهمم، وكما كانت آراؤك ضياء يهتدي بها الضالون، كان مثالك في العمل إماماً يقتدي به المسترشدون، وكما كان وجودك توبيخاً من الله للأغنياء، كان مداداً من عنايته للضعفاء الفقراء، وإنّ أرفع مجد بلغته وأكبر جزاء نلته على متاعبك في النصّح والإرشاد هو هذا الذي سماه الغافلون بالحرمان والإبعاد، فليس ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس أنّك لست من القوم الضالين، فأحمد الله على أن فاروقك في أقوالهم كما كنت

فارقتهم في عقائدهم وأعمالهم، هذا وإنّ نفوسنا لشقيقة لما يتجدد من آثار قلمك فيما تستقبل من أيام عمرك. وإنّا نسأل الله أن يمدّ في حياتك ويحفظ عليك قواك ويفتح أبواب القلوب لفهم قولك ويسوق النفوس إلى التأسّي بك في عمك، والسّلام"¹

كان ذلك ما كتبه مفتي الديار المصريّة الإمام محمّد عبده للفيلسوف "ليو تولستوي"، الذي قام بدوره بالردّ على رسالة الإمام "محمّد عبده" معرباً فيها عن امتنانه وسروره بتلك الرّسالة، التي يعدّها "تولستوي" رسالة طيّبة محمودة تُدخل السرور على قلبه؛ حيث إنّهُ فور استلامه لرسالة الشّيخ "محمّد عبده" "كتب مباشرة إلى النّاقذ الإنجليزيّ "كوكريلو" (Cokrelo) بتاريخ 12 مايو عام (1904م) "الآن استلمت رسالة المفتي، وأعترف لك بالجميل والامتنان، لأنك حملت لي هذه الرّسالة. إنّ المفتي يمتدحني كثيراً في رسالته على الطّريقة الشّرقية، ولذلك فإنني أجد صعوبة في الإجابة على هذه الرّسالة، وإنني مسرور جداً بمعرفتي بهذا الإنسان اللطيف"²

جاء في ردّ "تولستوي" على هذه الرّسالة للمفتي "محمّد عبده" "أيّها الصّديق العزيز! تلقيت خطابك الكريم، المليء بالمديح، وهأنذا أسارع في الردّ عليه، مؤكّداً امتناني الكبير لهذا الخطاب، الذي أتاح لي الاتّصال برجل مستنير، رغم اختلاف عقيدته عن العقيدة التي نشأت عليها وتربّيت، ولكن من نفس الدّيانة؛ حيث إنّ العقائد تختلف وتكرّر، ولكن ليس هناك سوى دين واحد؛ هو دين الحقّ. أمل ألا أكون قد أخطأت إذا افترضت من واقع خطابك، أنّ الدّين الذي أوّمن به هو دينك، الذي يرتكز على الاعتراف

1 . ليو تولستوي، حكم النبي محمد، ترجمة د. سليم قيعين، مرجع سابق، ص 19.
2. ليو تولستوي، حكم النبي محمد، دراسة وتقديم د. محمود النجيري، نافذة على الغرب 1، ط 1، دار طيبة للطباعة، الجزيرة، 2006، ص 115 .

بأنه وشريعته في حبّ الغير، وأنّ نتميّ لهذا الغير ما نتمناه لأنفسنا. وأعتقد أنّ جميع

المبادئ الدنيّة الصادقة تندرج من هذا المبدأ¹

يتّضح من هذه الرّسالة أنّ "تولستوي" يرى، رغم وجود ديانات عديدة مختلفة، أنّ هناك عقيدة واحدة حقيقيّة تتمركز في الإيمان بالله واحد، وأنّ كافّة هذه الديانات تقترن بجوهر واحد هو الصّدق والإيمان والمعاملة الحسنة.

هناك رسالة ثانية من مفتي الديار المصرية إلى "تولستوي" يقول فيها: "أيّها الرّوح الذكيّ! صدرت من المقام العليّ إلى العالم الأرضي، وتجسّدت فيما سمّوه "تولستوي" .. قويّ فيك اتصال روحك بمبدئه، فلم تشغلك حاجات جسدك عمّا تسمو إليه نفسك، وأدركت أنّ الإنسان خُلِق ليتعلّم، فيعلّم فيعمل، ولم يُخلَق ليجهل ويكسل ويُهمل". وممّا يؤسف عليه أنّ الشّيخ "محمّد عبده" توفي في يوليو عام (1905م)، ولذلك انقطعت تلك المراسلات².

من نفحات الرّوح

من البوادر، التي كانت تشير إلى ما كان يعتري "ليو تولستوي" من رغبة في البحث والتقصّي في ما يدور حوله وحبّ المعرفة والميل إلى البساطة ومعرفة تعاليم الإسلام، أنّه بعد نشره لرواية "أنا كارنينا" كان يحبّ الخروج إلى الطّريق الرئيسيّة الدّاهية من موسكو إلى كييف، والتي تمرّ بالقرب من "ياسنيا بوليانا" مقرّ سكنه، وكان

1 . ليو تولستوي، حكم النبي محمد، دراسة وتقديم د. محمود النجيري، نافذة على الغرب 1، ط 1، دار طيبة للطباعة، الجيزة، 2006، ص 116.
2. المرجع نفسه، ص 117 .

يصادف جمهوراً من الحجّاج السائرين من أسابيع والمنجّهين إلى معابد كييف، أو حتّى إلى الأرض المقدّسة مروراً بأوديسا. وكان "تولستوي" يسألهم ويصغي إليهم. وكان الحديث يتناول شؤون الدّين والعقائد والقواعد الأخلاقيّة. وكان "تولستوي" يسجّل أمثاله السّائرة وحكمهم الشّعبيّة، التي تزيّن حكاياتهم، كما تشهد بذلك امرأته: "لم يكن يعتدّ من قبل إلا بعدد قليل من الأشخاص، بأهله وأصدقائه، أمّا الآن فكلّ النّاس غدوا إخوة له"، لكن أبناء الطبّقات الدّنيا هم الذين يخالطهم والذين يعجب بما فيهم من روح التّواضع والرّحمة"¹

أزمة تولستوي الدّينيّة

بعد نشر "تولستوي" لرواية "أنا كارينينا" بقليل، وهو على أبواب الخمسين، مرّ بأزمة دينيّة أخلاقيّة، فقد كان مستاء من حياته ويلفئه القلق، وذلك "لأنّه لم يوفّق بين حياته وفكره على نحو مُرضٍ، بين الحياة والفكرة التي يحملها عن الحياة الإنسانيّة الحقيقيّة الخيرة له وللآخرين، فأدار ظهره للكنيسة الأرثوذكسيّة لينشيء لنفسه عقيدته الخاصّة القائمة على تفسير شخصيٍّ تماماً للكتابات المقدّسة، وليننقل بكتاباته إلى صراع مكشوف. أحسّ "تولستوي" أنّه لكي ينشر عقيدته ويجسّد كفاحه الرّوحي، فعليه أن يتجرّد من جميع الخيرات، التي يعيشها، لكنّه مقيد في أعماق بقوتين: التعلّق بالملكيّة، التي يقول عنها أنّها محور كلّ شر، وقوّة الجسد"²

1. ليو تولستوي، الأعمال الأدبيّة الكاملة، ترجمة صياح الجهميم، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، ج 15، سوريا، دمشق، عام 1990، ص 16.
2. ليو تولستوي، ج 16، سوريا، دمشق، 1995، ص 7 (بتصرف).

ويبدو أنّ ما أبداه "تولستوي" من إيمان بتلك الفكرة، التي طغت على تفكيره وتصرفاته لدرجة أنّه بدأ في توزيع بعض ممتلكاته على الفلاحين والبسطاء، أثار الكنيسة الأرثوذكسيّة عليه "فقامت الكنيسة بإلقاء حرمانها عليه في عام (1901م) على أثر هجماته عليها، فيجيب "تولستوي" بجملة الشهيرة وباعتزاز "الحقّ إيّ لا أشرك المجمع الكنسيّ عقيدته، لكنّي أوّمن بالله، الذي هو في الرّوح والمحبة ومبدأ كلّ شيء"، وإذا به يثير موجة من الحماسة في العالم لدى جميع الذين يسكنهم شعور دينيّ، لكنهم لا يمكن أن يرضوا عن الأجوبة، التي تسوقها الكنائس ردّاً على حاجتهم إلى الجواب"¹

غير أنّ سياسة القمع من الكنيسة لم تُثني "تولستوي" عن مواصلة ما بدأه من رفض وعصيان وأفكار مناقضة لأفكار الكنيسة، وبسبب ذلك الانعطاف الكبير في عقيدة "تولستوي" من تلك الأزمة الروحيّة، التي عانى منها في مطلع ثمانينيات القرن التّاسع عشر، سار في رحلة فكريّة يتدبّر فيها الحياة ومعزاها والهدف منها، لذا بثّ كلّ تساؤلاته وحيرته وعذابه في رواية جديدة أسماها " الاعتراف " (The Confession) نشرت بعد أعوام قليلة من كتابته لرواية "أنا كارينينا".

1 . ليو تولستوي، حكم النبي محمد، دراسة وتقديم د. محمود النجيري، مرجع سابق، ص 10.

المبحث الخامس

اعتراف تولستوي

تحتلّ مؤلفات "تولستوي" الأخيرة معظم أفكاره، التي أراد أن يُطلق العنان لها لتكون مرشداً للآخرين من بعده. وقد كتب "تولستوي" في أواخر أيامه رواية كتب فيها عن نفسه وعن ما ارتكبه من أخطاء وسيئات قام بإرتكابها، كما عبّر عن أكثر آرائه بشكل حادّ وقدم فيها اعترافات وتساؤلات كثيرة تدور في خلدته منذ أن صار يافعاً، فبدأت معه تلك الأزمة الدنيّة. فهو يتساءل دوماً: من أنا؟ وما هو هدف حياتي؟ أين الله؟ من هو الله؟ وكيف أحيا بوجود الله؟ ماهو الوجود؟ ولماذا أنا موجود؟. كلّ هذه التساؤلات ما فتئت تختمر في رأسه. وكتاب "الاعتراف"، الذي له خصوصيّة، التي لا تقارن بأيّ من كتابات "تولستوي" الأخرى على عظمتها، صدر في عام (1879م)، أي بعد صدور "أنا كارينينا" بفترة ليست بالطويلة.

كتب "تولستوي" كتاب "اعتراف" قبل حوالي مائة عام، لكنّه، بحسب تقديم د. محمود النجيري في دراسته لكتاب "حكم النبي محمّد" أنّ كتاب "اعتراف" "لم يأخذ- ضمن كتابات "تولستوي" الدنيّة - ما يستحقّه من شهرة مثل أعماله الأدبيّة، لا لأنّه أقلّ قيمة، بل لأنّه يحوي مفاهيم ومعرفة روحية عالية القيمة، لم يمكن أن تقدر في الوقت الذي كتبها فيه، وهو أواخر القرن التّاسع عشر، ولا على مدى القرن العشرين كلّّه؛

حيث سواد الماديّة لا يعطي الفرصة لفهم هذا الكتاب وتقديره، إلا بين القليلين في عصره
ممن يقدّرون التجربة الروحيّة"¹

ويبدو، حقّاً، أنّ كتاب "اعتراف" من الكتب القيّمة، التي يمكن أن يجد القاريء
فيه مبتغاه من طموحات أخلاقيّة وما تستشعره روحه من معنى حقيقيّ للحياة. فالحياة،
كما يرى "تولستوي"، تكمن في السعادة والرّضا رغم نقصان رفاهيّة الماديّات، التي
يتمتّع بها الأثرياء والمتقّين. وأخلص أخيراً في اعترافاته أنّ الله هو معنى الحياة.

تبدأ قصة "الاعتراف" بوصف الطفولة وما حدث خلالها في مضمون التّربية
الدينيّة والصلوات الكنسيّة، ثمّ التّطور، الذي حدث فيما بعد، ممّا أدّى إلى قناعة
"تولستوي" بأنّ الدّين لا ينقذ الإنسان، خاصّة من الموت، فيتساءل فيما إذا كان ممكناً
تفادي الموت! غير أنّه يبدو استحالة تجاوز الموت بأيّ من الوسائل مهما كان تأثيرها،
فيكابد الكاتب أزمة نفسيّة يشعر خلالها باقتراب الموت دون التمكن من الخلاص منه،
فيسرد ما في نفسه عن ذلك الانقلاب، الذي حدث في تطلّعاته ونظرتّه للعالم، ليعود به
المطاف إلى طبقة الفقراء، الذين أحبّهم النّبّيّ محمّد (صلى الله عليه وسلّم)، الذي كان
"تولستوي" معجباً بحكمته وحبّه للفقراء والمساكين ونظامه المعيشيّ، ودراسة حياة
الفقراء العامّة وعفاندهم ترسخ في أعماق لُبّه وتوكّد له بأنّ الإيمان الحقيقيّ كائن في
قلوب هؤلاء الفقراء.

1. ليو تولستوي، حكم النبي محمد، دراسة وتقديم د. محمود النجيري، مرجع سابق، ص 25.

كان أهمّ ما قدّمه "تولستوي" في اعترافه أنّ "الحياة الروحيّة تُعاش ولا تُلقن، وأنّ كسب الحياة يكون بخدمة النّاس، لا باعتزالهم، وأنّ فهم الكتاب المقدّس هو بحرّيّة العقل ونقاء القلب، لا بالتّرديد الأعمى"¹

شرع "تولستوي" بعد ذلك في كتابة مؤلّفات دينيّة- فلسفيّة، مثل "نقد علم اللاهوت المتزمّت" و"بماذا أوّمن؟" و "ربط وترجمة ودراسة الأناجيل الأربعة" و"ملكوت السموات في أعماقكم"، وقد أخضع وجهات نظره المتطرّفة الرّئيسيّة ومبادئ تعاليم الكنيسة الرّسميّة إلى عمليّة إعادة نظر نقدية².

كتاب "الاعتراف" والنّزعة الإسلاميّة

جاء في "اعتراف" "تولستوي" أنّ "مكسيم غوركي" (Maxim Gorky) كتب في يوميات "تولستوي" المنشورة في صور أدبيّة: "صعقتني قول غريب في اليوميات، التي أعطاني إيّاها "تولستوي"، تلك العبارة هي "الله هو أمّيتي". حينما استوضحته عن معنى هذه الأمنية قال: "فكرة غير مكتملة، لا بدّ أنّي قصدت إلى القول، الله هو أمّيتي كيما أدركه .. لا، ليس هذا ..". كان "تولستوي" حسب تصوّر "غوركي"، ومن أحاديث جانبيّة بينهما، تشغله فكرة الله حتّى تكدرّ صفاء ذهنه. يقول "تولستوي" في بعض أقواله المذكورة في ملاحظات "غوركي": "ماذا نقصد عندما نقول أنّنا نعرف؟ أعرف أنّي "تولستوي"، ولي زوجة، وأولاد، وشائب الشّعر، وقبيح الوجه، ولي لحيّة، وهذا كلّه مدوّن في جواز سفري. ولكنهم لا يذلّفون إلى الرّوح في جوازات السّفرة! كلّ ما أعرفه

1 . حكم النبي محمد، دراسة وتقديم د. محمود النجيري، ص 34.

2 . أورخان محمد علي، حقيقة إسلام الأديب الروسي تولستوي، مدونات مكتوب، الأربعاء 13 أبريل، 2007.

عن روعي أنّها تتوق إلى الاقتراب من الله. لكن ما هو الله؟ هذا الذي روعي هي ذرة منه.

هذا هو كلّ شيء! 1

تطغى على مؤلّفات "تولستوي" أفكار تشير إلى رغبته في معرفة الوجود وذاتية الله والموت والبعث وغيرها من الأفكار التي تشير إلى انعطاف أفكاره إلى منحى آخر، غير ذلك الذي كان عليه في صغره. فهو "يعترف" بأنّ الإيمان المغروس في أعماقه قد زال بشكل كليّ. يقول في "اعترافاته": "سأكشف لك كلّ أسرار حياتي لكي تعلم أنّ رحلتي للبحث عن الله الخالق ليست بالهينة" 2

مرّت فترة من حياة "تولستوي" تقارب الخمسة عشر عاماً نسي خلالها أمنيته مؤقتاً، وذلك عند زواجه من "صوفيا أندريفنا"، وسعادته الزوجية في تلك الفترة. لكن، تلك الفكرة وذلك السؤال عاد بقوة إلى "تولستوي" وأصبح يكرّر تساؤلاته عن ماهية الموت، فيصوّره في رواية "أنا كارنينا"، التي تصل فيها بطلة القصة إلى ذروة اليأس، فتلجأ إلى الله "يا الله"، فتنتهي حياتها بالانتحار وتفضّل الموت، الذي يريحها من شغائها، على تلك الحياة البائسة المليئة بالمرارة والألم.

حاول "تولستوي" الوصول إلى الإجابة عن تساؤلاته، لكنّه فشل في كلّ المراحل: الفنّ والشعر والتّيّار التّقديميّ والفلسفة، فشرع ينشد الإجابة من نفس المكان، من الحياة نفسها!، لكنّه يفكّر في أبناء طبقته النّبيلة البعيدة كل البعد عن إثارة مثل هذه الأسئلة. في "اعترافات" "تولستوي" يرى أنّهم يهربون منها بشعور أو بغير شعور عبر

1 . تولستوي، فن الأدب الروائي، مرجع سابق، ص 212.
2 . اعترافات تولستوي، رحلة البحث عن الله، ج 2، مرجع سابق

أربعة وسائل حسب تصنيفه "الوسيلة الأولى الجهل، الذي يضرب أسس هذه الطبقة، هم لا يرون الوحش الذي ينتظرهم ليفترسهم. وسيلة الهرب الثانية هي التي يلجأ إليها الشّهوانيون وعبّاد أهوائهم الجامحة، على هذه الصّورة يقضى أبناء هذه الطبقة، توضّح لهم الجميل وتحجب عن أعينهم القبيح. الوسيلة الثالثة هي القوّة والعزم، عدم الوجود خير من الوجود، يجب وضع حدّ لهذه الحياة بالانتحار "حبل حول العنق أو ماء يغرقون فيه، أو قطار يقفون في طريقه فيذهب بهم ويريحهم من شقائهم. إنّ عدد الذين يقدّمون على هذا العمل من أبناء هذه الطبقة يتزايد في كلّ يوم". والوسيلة الرابعة هي الضّعف، الاستسلام لهذه الحياة رغم معرفتهم بأنّها عقيمة لا جدوى منها. بمثل هذه الطّرق ينقذ أبناء الطبقة الرّاقية ذواتهم من تناقض مزعج في الحياة"¹.

وأخيراً، يعترف "تولستوي" بوجود قوّة تدير هذا الكون وتدبّر أمره "إنني لا أستطيع أن أتعامي عن رؤية هذه الحقيقة، وهي أنّ كائناً أحبني وكان السّبب في وجودي؟ هو- بلا شك- الله. هو موجود بالحقيقة وفي كل لحظة أعترف بوجوده، أشعر بأنّ حياتي قد تجددت، وإيماني بما في الوجود قد نهض من رمسه. إلا أنّي لا أستطيع الإيمان "بالإله المثلث الأقانيم"، لقد ذاب كالجليد أمام عينيّ. ولكن، من أين لي بالشّعور، الذي يعمل في قلبي ويحملني إلى البحث عن الله! هذا الشّعور يختلج في أعماقي. أنّي لم أعش في ما مضى من عمري إلا عندما كنت أوّمن بالله. كلّما آمنت بالله أشعر بالحياة. كلّما

1. اعترافات تولستوي، رحلة البحث عن الله، ج 4، مرجع سابق.

أعرضت عن هذا الإيمان أشعر بأنني مَيّت بالحقيقة. ما أنشده هو الكائن، الذي لا تستقيم الحياة بدونه! الله هو الحياة"¹

لذا، وبهذا الاعتقاد حارب الكنيسة وجرّد المسيح من السّمة الإلهيّة ، التي تعتقدها المسيحيّة، فتمّ طرده بقرار صادر من المجمع الكنسيّ الأرثوذكسيّ.

¹ . اعترافات تولستوي، رحلة البحث عن الله، ج 5، مرجع سابق

المبحث السادس

تولستوي والمنحى الأخلاقي

تطرق "تولستوي" إلى العديد من القضايا التي تدعو إلى التمسك بالقيم الأخلاقية، وذلك في العديد من مؤلفاته الأدبية، من أبرزها رواية "البعث".

البعث

تأتي رواية "البعث" (Resurrection) (1899) كأعظم أعمال وإنجازات الفترة الأخيرة من حياة "تولستوي"، وهي قصة امرأة أخذت بجريمة لم ترتكبها، ورجل نبيل ينشد التَّكفير عن خطاياها.

ذكر "ف. ع. أدينكوف" (Odenkov) في كتابه "فنّ الأدب الروائي عند "تولستوي" " "كتب "تولستوي" في مذكراته بتاريخ 5 يناير (1891م) ما يلي "كم سأكون سعيداً لو كتبت غداً أنني بدأت عملاً فنيّاً كبيراً. نعم، بكتابة رواية تحمل هذه الفكرة الآن. كانت رواياتي السابقة، الأولى، نتاجات غير واعية، ابتداءً من "أنا كارنينا"، منذ ما يزيد على العشر سنوات على ما أعتقد، وأنا أجزئى وأقسم، وأحلل. أنا أعرف أنّ باستطاعتي الآن أن أخط كلّ هذا ثانية وأن أعمل يدي في هذا الخليط، وكانت نتيجة هذه التجزئة والتقسيم والتحليل- رواية البعث"2

1. نقلاً عن كتاب ن غوسيف "مدونات حياة ونتائج ليوتولستوي، موسكو، 1960، ص 15-16.
2. تولستوي، فنّ الأدب الروائي، مرجع سابق، ص 212.

يذكر "تولستوي" في بداية رواية "البعث" بعض الوصايا والحكم الأخلاقية، التي تدعو إلى التمسك بالقيم الأخلاقية "لماذا ترى القذى في عين أخيك ولا تشعر بالجدع في عينك؟" و"من كان منكم بلا خطيئة، فليرمها بحجر"¹ ، والفكرة هنا واضحة وهي غفران خطايا الناس. يرى "تولستوي" أن الوسيلة الوحيدة للراحة والخلص من الشرور، الاعتراف أمام الرب بذنوبهم لعدم مقدرتهم على معاقبة الآخرين ما داموا مثقلين بالذنوب. ويجب الخروج من محيط أولئك الناس، الذين لا يفعلون ذلك ويتباهون بأعمالهم الدنيئة. وهذا ما فعله "تولستوي" فعلاً في حياته عند تركه لأسرته والجو الأرستقراطي، الذي كان يعيش فيه، ليذهب إلى محيط الفلاحين والبسطاء، الذين يرى "تولستوي" عالمهم الشعبي "ليس مجرد خلفيّة ملوّنة؛ بل هو عامل أساسي في تطوّر المحتوى وفي بناء الشّخص. ويتكشف نفاء هذا العالم إلى أبعد الحدود عن رذيلة عالم الإقطاعيين ، الذين صنعوا للشّعب سجناً كبيراً"²

الأب سيرج

ومن الإنجازات العظيمة في مؤلّفات "تولستوي" أيضاً قصّة "الأب سيرج" (Father Serge) ، التي كتبها في عام (1904م)، وهي أحد أكبر أعمال "تولستوي" أسراً للنّفوس؛ "وقد بدأها في عام (1890م) وانتهى من نصّها النهائي عام (1904م)، ويكمن فيها أخصّ ما في "تولستوي" من مشاعر متضاربة، الخوف من خطيئة الجسد والقلق والحاجة إلى الوحدة والتأمّل والانعزال في منسك والتّخلي عن الأسرة وعن

1 . تولستوي، البعث، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع 1984، ص 5
2. تولستوي، فن الأدب الروائي ، مرجع سابق، ص 244.

النجاح بخاصة وعن المجد؛ لأن الصراع ضد الشهرة- كما كتب لشيرتكوف- ليس سوى حلقة، أو درجة على الأصح، والصراع الأساسي موجّه نحو غرض آخر؛ هو المجد الإنساني¹، وهذا بالطبع ما يرمي إليه الفيلسوف في العديد من مؤلفاته.

الحاج مراد

أما رواية "الحاج مراد" (Haj Murad) فنردّ فيها أسماء عربيّة، مثل: "مراد" و"شامل" و"محمد" و"أحمد" و"سعدو"، ممّا يدلّ على الانطباع الشرقيّ على مؤلفات "تولستوي"، وتعتبر من المؤلفات الرائعة، التي اشتملت على مضمون رمزيّ، بالإضافة إلى المضمون النفسيّ والأخلاقيّ، وتحتوي في نفس الوقت على مضمون عربيّ إسلاميّ.

ترتكز القصة على "حدث واقعيّ إطاره المكانيّ "القوقاز". وقد كان الكاتب يحرص فيها على أدقّ التفاصيل؛ فقد رجع "تولستوي" من أجل ذلك إلى وثائق القصر والمذكرات وسؤال شهود القصة؛ وهو يعترف بذلك إلى "كورغانوف" ابن ذلك العقيد، الذي كان يحرس الحاج مراد، قال: "عندما أكتب عن موضوع تاريخيّ، فأبني أحبّ أن أكون أميناً للواقع، حتّى في أدنى التفاصيل"²

يظهر في هذه الرواية تعاطف "تولستوي" مع الحاج مراد وتفهمه لشخصيته. كما يتّضح أنّ "تولستوي" يعمل على توضيح كلّ ما يرد في كتاباته، ممّا يوضّح حرصه على إتقان ما يكتب، وبالتالي "نضجه" وهيمنته على قلب القاريء.

1. ليو تولستوي، الأعمال الأدبيّة الكاملة ج 16، مرجع سابق، ص 12.
2. أورخان محمد علي، حقيقة إسلام الأديب الروسي تولستوي- مرجع سابق، ص 14.

لقد ظهرت الأصالة المتغيرة للعلاقة الأخلاقية بالحياة في كلّ من تلك الروايات وأضفت على كلّ رواية مسحة جديدة تتجسّد في نتاجات رائعة في هذه المؤلفات. وقد أكد "ف. إي. لينين" أنّ مؤلفات "تولستوي" تعدّ "من بين أفضل مؤلفات الأدب العالميّ وإبداعه"، الذي عبّر عن العصر السابق للثورة في حياة روسيا بقدر من الصدق والقوّة جعله "خطوة إلى الأمام في التطوّر الفني للإنسانية"¹

1. ف. إي. لينين، المؤلفات الكاملة، الطبعة الروسيّة، المجلد 17، ص 209، والمجلد 20، ص 19.

المبحث السابع

وفاة تولستوي وراثؤه

داوم "تولستوي" في السنوات الأخيرة من حياته على التفكير والتأمل في معنى الحياة، باحثاً عن الطرق الموصلة إلى الله، ونسبة لما كان يعمل في صدر الفيلسوف الكبير من شعور، قرّر "تولستوي" في عام (1910م) التوجه إلى بلغاريا عن طريق "أوديسا إسطنبول" تاركاً زوجته وأهله خلفه، لكنه أصيب وهو في الطريق بداء السلّ من جراء برد الشتاء وضعف جسمه. وفي شهر نوفمبر من نفس العام توفي في غرفة بسيطة في محطة قطار "أستابوفو".

وقع نبأ وفاة الفيلسوف "تولستوي" وقعاً مؤلماً في الشرق والغرب، وراثه الفلاسفة والشعراء؛ ومن بين من رثاه أمير الشعراء "أحمد شوقي" في مرثية طويلة يورد البحث مختارات منها، يقول:

رثاء أحمد شوقي لتولستوي

تولستوي تجري آية العلم ودمعها

عليك ويكي بئس وفقير

وشعبٌ ضعيف الركن زال نصيره

وما كلُّ يوم للضعيف نصير

ويندب فلاحون أنت منارهم

وأنت سراج غيّبوه منير

يعانون في الأكواخ ظلماً وظلمة

ولا يملكون البتّ وهو يسير

تطوف كعيسى بالحنان وبالرّضى

عليهم وتغشى دورهم وتزور

ويأسى عليك الدّين إذ لك لبّه

وللخادّمين النّاقمين قشور

أيكفر بالإنجيل من تلك كتبه¹

أناجيلٌ منها منذرٌ وبشير²

يثير الشّاعر "أحمد شوقي" ما كان يصبو إليه "ليو تولستوي" من رغبة في
تعميم المحبّة والخير والإحسان بين النّاس، وكأى به يسائل أمير الشّعراء عن أحوال
النّاس بعده، وهل سلّكوا سبل المحبّة والتّصافي والتّسامح بينهم، كما أمر بذلك الكاتب؟
يقول الشّاعر:

تسألنني: هل غيّر النّاس ما بهمّم؟

1 . ليو تولستوي، حكم النبي محمد، تقديم د. محمود الجبري، مرجع سابق، ص 20.
2. ويشير هنا إلى تكفير الكنيسة لتولستوي، وحرمان البابا له وأن كل كتاب من كتبه يشبه الإنجيل في قدسيته. (عن نافذة على
الغرب، المرجع السابق، ص 120 - 121).

وهل حدتت غير الأمور أمور؟

وهل أثر الإحسان والرفق عالم

دواعي الأذى والشر فيه كثير؟

وهل سلكوا سبل المحبة بينهم

كما يتصافى أسرة وعشير؟

وهل أن من أهل الكتاب تسامح

خاليق بأداب الكتاب جدير؟

وهل عالج الأحياء بؤساً وثقوة

وقل فساد بينهم وشور؟

ثم انظر، وأنت المليء في الأرض حكمة

أجدي نظيم، أم أفاد نثير؟

فحال الحياة والناس يسير كما هو شأنه قبل وبعد موت "تولستوي"، فالحياة تسير

كما كانت عليه من فساد وشور كان يرفضها الفيلسوف، وما اختلف فيها هو فقط فقدان

المفكر والحكيم ولا شيء غير ذلك.

رثاء حافظ إبراهيم لتولستوي

أمّا الشّاعر "حافظ إبراهيم"، شاعر وادي النّيل، فقد نعى الفيلسوف أيضاً

بمرثية طويلة بنفس قافية قصيدة أمير الشعراء، منها:

رثاك أميرُ الشّعْر في الشّرق وانبرى

لمدحك من كتاب مصر كبيرُ

ولست أبالي حين أرثيك بعده

إذا قيل عني قد رثاه صغيرُ

فقد كنتَ عوناً للضعيف وإنني

ضعيفٌ ومالي في الحياة نصيرُ

ولستُ أبالي حين أبكيك للورى

حوّك جنانٌ أو حواك سعيّرُ

فإني أحبّ التّابغيين لعلمهم

وأعشق روضَ الفكر وهو نضيرُ

دعوتَ إلى عيسى فضجت كنائس

وهزّ لها عرشٌ وماد سريّرُ

وقال أناسُ إنه قولٌ ملحدٍ

وقال أناسُ إنه لبشيرُ

ولولا حطامُ ردِّ عنك كيادهم

لضقتَ به ذرعاً وساء مصيرُ

ويقول:

تحاولُ رفعَ الشرِّ والشرُّ واقعٌ

وتطلبُ محضَ الخيرِ وهو عسيرُ

ولولا امتزاجُ الشرِّ بالخيرِ لم يَقمُ

دليلٌ على أنّ الإلهَ قديرُ

ولم يبعثَ اللهَ النبيينَ للهدى

ولم يتطلعُ للسرييرِ أميرُ

ولم يعشق العلياءَ حرُّ، ولم يسُدْ

كريمٌ، ولم يرجُ التّراءَ فقيرُ

1. ليو تولستوي، حكم النبي محمد، دراسة وتقديم د. محمود النجيري، ص 130.

يتناول شاعر النّيل نفس المعاني، التي أشار إليها أمير الشعراء "أحمد شوقي"
عن حبّ "تولستوي" لنشر المحبّة والخير ورفع للشّر والظلم، غير أنّ هذه الصّفات
باقية في النّاس لا محالة، ولا تزول بموت فيلسوف أو بقائه.

رثاء الزّهاوي لتولستوي

شارك كذلك في رثاء "تولستوي" الشاعر العربيّ "جميل صدقي
الزّهاوي"، الذي عاصر كلاً من "أحمد شوقي" و"حافظ إبراهيم"، موضّحاً المعنى نفسه
ومتّخذاً القافية نفسها لقصيدته، يقول:

لقد عشتَ عمراً أنتَ فيه ظهيرُ

لمنْ عاش بين النّاس وهو فقيرُ

بكفك مصباحٌ من العلم ساطعُ

به لعقول النّاشئين تُنيرُ

وقد كنتَ حرّاً في حياتك مصلحاً

تدورُ مع الإنصاف حيث يدورُ

أفدنا بأسرار الحياة درايةً

فأنتَ بأسرار الحياة خبيرُ

وهكذا يتفق جميع الأدباء على مواجهة "تولستوي" للشّر وتصدّيه
للظلم رغبة في نشر الخير وتعميم السلام لفناء هذه الدّنيا ورفاهياتها وبقاء كلّ ما هو
خير، وأنّ الفيلسوف الكبير كان يؤازره الكثير من العلماء والأدباء، الذين يجدون فيه ميلاً
إلى الإسلام ومنهجاً مطابقاً لما يدعو إليه الدّين الإسلاميّ من تعاليم سمحة.

وجدير بالدّكر أنّ "تولستوي" رفض في أواخر حياته مؤسّسات المجتمع بما فيها
الملكيّة الشّخصيّة والدّولة نفسها. وقد اتّصفت كلّ أعمال الكونت "ليو تولستوي" بالجدية
والعمق والزّهد والتّواضع.

الفصل الرَّابِع إيفان بونين

المبحث الأول: الأديب إيفان بونين
المبحث الثاني: الأثر الشرقيّ في أدب بونين
المبحث الثالث: بونين والإسلام

الفصل الخامس

المبحث الأوّل

الأديب إيفان بونين

لا إله إلا الله، أكثر الأسرار بأساً، لا سرّ أكبر.

قصيدة "السرّ" (بونين)

جذوره ونشأته

الأديب "إيفان أليكسييفتش بونين" (Ivan Alekseyevich Bunin) عاش حياة مديدة من (1870م) إلى (1953م)، وتواصل إبداعه ما يقارب الستين عاماً. أبصر النور في مدينة "فوروناج" و"قضى طفولته في إحدى الضياع الإقطاعية؛ حيث ولد في أسرة إقطاعية نبيلة كانت تعاني من ضائقة مادية كادت تؤدي بها إلى حد الإفلاس، الأمر الذي اضطر "بونين" إلى الانقطاع عن الدراسة والسعي في عمر مبكر إلى طلب الرزق¹ فعاش حياة بسيطة مليئة بالمرض والعوز، وتمكّن خلالها من دراسة أدب شكسبير وجوته وبايرون، وقد تمكّن أيضاً من دراسة الأدب والتبحر في اللغة الإنجليزية. حصل "بونين" على جائزة "بوشكين" عام (1903م) لكتابته الشعرية، ثم التقى بالأديب "جوركي" مع مجموعة من العلماء وكتب روايته الأولى "القرية" أتبعها بأربعة كتب صغيرة بأسلوب شيق جعله في الصّف الأوّل بين كتّاب النثر الروس².

1 . د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 246.
2 . موريس حنا شربل، موسوعة الشعراء والأدباء الأجانب، بروس بيس، طرابلس، لبنان 1996، ص 134.

ولج "بونين" الأدب الروسيّ بصفته كاتب وشاعر في نفس الوقت، غير أنّه كان يجد نفسه في الشّعر أكثر من الأدب. وهو أوّل من حاز على جائزة "نوبل" للأدب عام (1933م) عن روايته "حياة أرسينيف". وقد عاصر أدب جيلين من الزّمان فتقاذفته العديد من التيارات التّقدميّة، التي أثّرت تأثيراً مباشراً في أدبه، ذلك إلى جانب "إرهاصات أدب من لون جديد أصبح معروفاً فيما بعد باسم أدب الواقعيّة الاشتراكيّة. وقد تميّز التيار الأدبيّ الروسيّ عند نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي بالتوتّر وجدال التيارات الأدبيّة حول مفهوم الفنّ ودوره في الحياة"¹.

كتب "بونين" عن الاقطاعيّين الرّوس وعبر عمّا كان يدور في تلك الفترة الغنيّة في تاريخ روسيا، وقد تأثّر إنتاجه في تلك الفترة بطبقة النّبلاء الاقطاعيّين، الذين عاش بينهم وتشرب بثقافتهم، فأخرج نتاجاً غنياً تضمّن الشّعر والنثر، "الذي جسّد بجلاء مرحلة غروب شمس الإقطاع الروسيّ؛ حيث كان "بونين" شاهداً لمرحلة الانهيار الاقتصاديّ والتاريخيّ لطبقة النّبلاء الإقطاعيّين في روسيا، وهي المرحلة التي اتخذت مدارها في ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي"²

من أكثر مؤلّفات "بونين" تميّزاً قصص "الدّسكرة" و"في القرية" و"تفّاحات أنطونوفكا" و"كأس الحياة" و"الأشقاء" و"أحلام تشانغ" و"قواعد الحبّ" و"الابن" و"روايته القصيرتين "القرية" و"الوادي القاحل"، إلى جانب ديوان "ظلّ الطّير". كانت مواضيع تلك المؤلّفات تمثّل نموذجاً للنثر الروسيّ، الذي يتطرّق إلى شتّى المواضيع؛ الموت والحبّ وحياة الفلاحين البسيطة الرّائعة والمشاعر المختلفة، التي تعتلج في نفس

1 . د. مكارم الغمري، د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 248.
2 . المرجع نفسه، ص 251.

الكاتب والشاعر. لقد جسّد إنتاج "بونين" سمات الفترة الأدبية الانتقالية من تاريخ الأدب الروسي، الذي شمل وصف الإقطاع والفلاحين والأدب الكلاسيكي ووصف الطبيعة والموضوع الشرقي وغيرها.

المبحث الثاني

الأثر الشرقي في أدب بونين

إيفان بونين من أكثر الروس تأثراً بالشرق العربيّ ، فقد زار الكثير من البلاد العربيّة وكتب العديد من القصص النثرية خلال أسفاره وجمعها في ديوان أطلق على الطبعة الأولى منه اسم "معبد الشمس" وأسماء في طبعته الثانية "ظلّ الطير". يذكر في هذا الصدد أنّ مؤثرات تلك البلدان والعصور والمنحوتات ظهرت في كتابات وأدب وأفكار واهتمامات "بونين"، التي تأصلت في نفسه وأخذت معنى آخر في حياته. والغريب أنّ روايات الأسفار الشرق أوسطية كتبها "بونين" بالتزامن مع الكتابات ذات الطابع الروحيّ الروسيّ الأصيل، مثل "القرية"، التي وضعها إلى جانب بعضها وخصّها باعتبارها الأكثر أهميّة. ففي بعضها كتب "روسيا، الحياة الروسية اليومية"، وفي البعض الآخر كتب "الشرق، الطبيعة الخلابة، العراقة والعاديات". أمّا العناوين العربيّة لقصائده فهي "ليلة القدر" و " محمد في المنفى" و"الهجرة" و"أنين" و "امرؤ القيس" و "البدويّ" و "القاهرة" و "القافلة" و "زينب" و"شفقة النهار". وبعض قصصه عن الشرق الأوسط بعناوين "الدلتا" و "بحر الآلهة" و "اليهودية" و"معبد الشمس" و"صحراء الشيطان" وغيرها.

زار "بونين" أكثر من مرّة كلاً من "تركيا وشواطئ آسيا الوسطى واليونان ومصر، بما في ذلك بلاد النوبة؛ كما تنقل عبر سوريا وفلسطين، وزار الجزائر وتونس وأطراف الصحراء الغربية؛ وسافر بحراً إلى سيلان، ويزرّ عبر كلّ أوروبا، كتب في

عام (1912م): "أنا لا أعرف ما هو أفضل من الترحال"¹. وقد اشتهر "بونين" بشغفه بالشرق ممّا دفعه أكثر من مرّة إلى زيارة بلدانه المختلفة، حيث تعرّف على حياة شعوبها وعلى عادات أبنائها وتقاليدهم. وقد انعكس إعجابه بالشرق وبأهله في أشعاره و في قصصه و مذكراته.

وفي عام (1907م)، وخلال استعداداته للسفر إلى الشرق الأوسط، من أجل القيام برحلة حجّ نوعاً ما إلى "الأراضي المقدّسة قام "بونين" بدراسة وتعلّم الإنجيل والقرآن، وبالاطّلاع على الدّراسات المتعلقة بالشرق القديم بمصر. كما زار "بونين" القدس بفلسطين، وأثناء تنقله لم تكن تفارقه قصائد الشّاعر الصّوفيّ الفارسيّ المفضّل لديه "سعدي"، الذي كانت حياته موضع إعجاب الكاتب الرّوسيّ، وقد عبّر الكاتب عن الغاية من تنقلاته مستعيراً كلمات الشّاعر المسلم، قال: "أنا، كما قال "سعدي"، سعيت لكي أتعرف على الدّنيا، ولكي أترك فيها انسكاباً من روعي"². هنا يتّضح تأثر "بونين" بالشّاعر الفارسيّ المسلم وثقته فيه.

في تلك الزّيارة إلى الشرق الأوسط عام (1907م)، اصطحب "بونين" زوجته "مورمتسيفينا بونينا"، وقد رحلا بالسّفينة إلى أوديسا وسافرا إلى مصر ومنها إلى يافا عبر ميناء بورسعيد ووصلا إلى القدس ثمّ لبنان وسوريا"³

1 . أيغور يرمكوف، سحر الشرق في الأدب الروسي، موقع جهة الشعر، ترجمة د. إبراهيم استنبولي، jehat.com
2 . د . إبراهيم إستنبولي، سحر الشرق في الأدب الروسي، موقع جهة الشعر، jehat.com.
3 . د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي، ص 255 (عن المؤلفات الكاملة لبونين، ج 3، 1965، ص 465).

وجلس يـدخـن.
الرمـل ساخن كما الثـحـاس.
خلف البحر الميـت، يجري السـراب
عبر الضباب الشمسي. وفي الوادي
حيث القيظ والضوء، تنوح حمامة بريّة.
وعلى نبات العتر وأشجار الدفلى
لون قرمزي من الربيع.
وهو يئنّ وسانّ ويمجّد القيظ
وأشجار الدفلى والعتر والأثل¹.
يجلس، كما الصقر. وعباءة رقطاء راحت
تنزاح عن كتفيه...
إنّ شاعر، قاطع طريق.
ها قد دخّن سيجارته فهو سعيد
إذ يقارن شعراً الدرّى خلف سيديم
مع سحاب سيجارته الدقيق².

يصف "بونين" في هذه القصيدة "البدوي"، صورة البدوي المتحضّر، الذي
يدخّن سيجارته في قيظ الصّحراء مرتدياً عباءته الرقطاء، مدمماً بالنشيد ممجّداً لتلك
البيئة، التي حوله وسعيداً بدخانها، رغم بيئته البدائية البسيطة. أمّا تسميته "بالشاعر"،

1. الدفلى والعتر والأثل أنواع من النبات الذي ينمو في الصحراء.
2. د. إبراهيم إستنبولي، سحر الشرق في الأدب الروسي، مرجع سابق.

فذلك لأنّ "العربيّ الذي يسكن الصّحراء ويعيش حياة الفطرة، فهو شاعر بالسليقة رغم المظهر البدائيّ، الذي يحيط به، ذلك لأنّه هو نفسه العربيّ وريث الحضارة القديمة والتّراث الممتدّ عبر قرون، ولذا فهو يتغنّى بالطّبيعة والنباتات التي تحيط به: القبط، الدّفلي، العتري. كذلك يبرز "بونين" في وصفه للعربي صورة العربيّ الفارسيّ، الذي يعتني بفرسه، فالعربيّ يحبّ فرسه ويحافظ عليه".¹

وقد ظلّ "بونين" حتى نهاية عمره يحلم بذلك التّمازج السّاحر بين الحكاية الشّرقية والحياة المنفتحة، التي كانت تدعوه باستمرار إلى السّفر، يقول في قصيدة ليس لها عنوان²:

الصّحراء في ضوء خافت، ملتهب.
وخلفها ظلمة وردية.
هناك مآذن ومساجد،
وقببها المزخرفة.
هناك صخب النّهر، السّوق المسقوفة،
حلم الأزقة، ظلال الحدائق
وهي تغفو، تفوح بالعسل
على الأسطح أوراق الزهور.

¹ . د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي، ص 276.
² . د . إبراهيم إستنبولي، سحر الشرق في الأدب الروسي.

كان رسم "بونين" لهذه المناظر وتصويره لها بالكلمة لتلك الخلفية ذات أهمية قصوى للأوروبيين؛ فهي ترسم صورة واضحة عن العرب وبيئتهم، التي لا يعرف عنها الأوروبيون الكثير.

وقد قال أيضاً في وصفه للبيئة البدوية والعادات والكرم العربيّ الأصيل عند زيارته لدمشق: "وفي البعيد شبح العربيّ في عباءة سوداء، وفي المنخفضات حيث توجد الآبار، تشاهد آثار توقفات البدو، رماد المواقد وأحجار موضوعة على شكل دائرة أو مربع، حيث يتمّ فيها تثبيت أعمدة الخيم .. وعندما جئت في المرّة التالية بمفردي إلى حيث نصب البدو خيامهم، استقبلوني كصديق. كانت خيمة "الشيخ عيد" هي الأكبر والأوسع، وعندما دخلت وجدت هناك عدداً كبيراً من المشايخ العجزة، الذين كانوا يجلسون حول الحيطان اللبادية السوداء للخيمة، وقد رفعت جوانب المدخل. خرج "الشيخ عيد" لاستقبالي. قام بالانحناء وبوضع اليد اليمنى على الشفاه وعلى الجبين... وفي هذا الوقت كانوا يحضرون وراء الخيمة الطّعام لي وللضيوف... ثمّ تابعتنا رحلتنا. كادت الجبال أن تصبح الآن من حولنا مرعبة. يضجّ نهر مياحه عكرة وخضراء. نسير راكبين والنّهر يمشي وراءنا. يقولون هذه "دمشق" الآن، وهدة واسعة وسط الجبال، بحر من الحدائق، و فيها المدينة الصّفراء وفيها نهر ضعيف مليء بالغبار تتخلّله أماكن كبريتيّة، يجري بسرعة "نهر بردى" العكر مع بعض الاخضرار، الذي يخفي في الأرض بالقرب من المحطّة.. نزلنا في فندق "الشّرق" على مسافة ساعة من السّير ركباً في عربة، ينكشّف منظر رائع على "دمشق". صعدت عالياً إحدى التلال فرأيت

الشّمس منخفضة وجبل "حرمون". وفي الصّباح صعدت إلى المئذنة، تحتنا الوهدة الهائلة بأكملها والمدينة كذلك، وفي البعيد "حرمون" تغطّيهِ التّلوج"¹.

كانت تلك كلمات "إيفان بونين" في قصّته "الدرجة الثالثة" التي كتبها عام (1921م) وأبدى فيها امتعاضه وانطباعاته عن كلّ ما يدور حوله في ذلك الوقت، وتلك المناطق، التي تختلف كثيراً عن بيئته التي ترعرع فيها وتشربّ بعاداتها وتقاليدها دون أن ينساها. فكما نرى، يصرّو "بونين" بكلماته الأجواء العربيّة، التي تختلف عن صورة حياته وعادات قومه؛ فصورة الخيمة والشّيخ والاستقبال والتّحيّة الحارّة وتقبيل اليد والجبين، إضافة إلى تقديم الطّعام بالطريقة الشّرقية المليئة بالترحاب، كلّها صور أجاد وصفها "إيفان بونين" مؤكّداً بذلك معرفته الوطيدة بالشرق، وتنقله في مناطقه المختلفة، ويظهر ذلك في تصويره للطّبيعة العربيّة والوهاد والأنهار والجبال ثم المئذنة العالية، التي تصوّر المدينة بأكملها. يتّضح هنا انعكاس ثقافة البلاد العربيّة بجغرافيتها وطبيعتها على "بونين" نتيجة لترحاله الطّويل في تلك البلاد واستطلاعاته في هذا الشّأن. وذلك ينعكس أيضاً في مختلف مؤلّفاته وقصائده بتصوير واقعيّ حيّ لتلك البلاد العربيّة، التي زارها (نهر بردى، دمشق، جبل حرمون، المئذنة) وغيرها.

كتب "بونين" أيضاً ملاحظات تخصّ أتباع الإمبراطوريّة البريطانيّة في تلك المناطق؛ فوصف حال الإنجليز، الذين يستيقظون في الصّباح الباكر دون عجلة من أمرهم وزيارتهم للأماكن المقدّسة. ثمّ تصويره لمعاملتهم القاسية للعرب في مصر والتّأميل في كولومبو، يقول: "في "أورشليم" وفي "الناصرية" وفي "أريحا" كان

1. د . إبراهيم إستنبولي، سحر الشرق في الأدب الروسي، موقع جهة الشرق، jehat.com.

المواطنون الإنكليز، الذين نزلوا معي في نفس الفندق، يستيقظون في الصّباح الباكر جداً، وكانوا يقومون بالتزيّن الصّبّاحي دون استعجال، يتناولون فطوراً دسماً، ثمّ تحت إشراف دليل من قبل الوكالة الإنكليزيّة للسياحة، كانوا يخرجون لزيارة الأماكن المقدّسة مع إنشادهم المستمرّ للتّراتيل. إلهي، كم كان الأمر يبدو كريهاً بكلّ ما للمعنى من كلمة! وفي مصر، بالقرب من الأهرامات والمعابد، كنت من الصّبّاح حتّى المساء أسمع أصوات العصي على رؤوس العرب، كان العرب يحيطون بالسّيّاح مع صرخات مسعورة، وهم يعرضون عليهم خدماتهم وحميرهم، بينما رجال الشّرطة الإنكليز راحوا يضربونهم بصمت عن اليمين وعن الشّمّال، وبكلّ قسوة ومهارة، بحيث أنّ العصيّ كانت تتراقص فقط .. أما في "كولومبو"، فلم أصدّق ما رأته عينايا؛ كيف أنّ الإنكليز يسيرون في الشّوارع بحذر وترقّب. كانوا يخافون أن يتنجّسوا من مجرد لمسة عابرة من التّاميل، أو من أيّ شخص "ملون"، أو من ملامسة أيّ "متوحّش حقير" حسب تعبيرهم. وكم كانت كثيرة المشاكل، التي سبّبتها لي محاولاتي السّفري في قطارات الدّرجة الثّالثة!¹

كتب "يونين" قصيدة "معبد الشّمس" عام (1907م) من وحي زيارته للبنان،

وصف فيها طبيعة لبنان الخلابة وتضاريسها فيصفها بدقّة فائقة قائلاً:

معبد الشّمس

ست أعمدة ذهبيّة مرمريّة،

واد أخضر بلا شاطيء،

1. د . إبراهيم إستنبولي، سحر الشرق في الأدب الروسي، موقع جهة الشعر، jehat.com.

لبنان في التَّلج ومنحدر السَّماء الأزرق.

شاهدت النَّيل وأبا الهول الجبَّار،

شاهدت الأهرامات: أنتِ أكثرُ قوَّة،

وأكثرُ روعة، يا أطلال العهد العتيق.

هناك كتل الأحجار الصَّفراء الرَّماديَّة،

المقابر المنسيَّة في محيط

الرَّمال العارية، هنا بهجة الأيام الشَّابة.

الأنسجة التَّقليديَّة الجليَّة:

شرائح طوليَّة من الجليد والصَّخور:

ترقد مثل "تاليس" 1 مجزع في لبنان.

في أسفلها مروج حدائق خضراء

وعذبة، مثل برودة الجبل،

صخب الماء المتدفِّق في لون حجر "الملخيت"

1 . كلمة "تاليس" تعني غطاء "طرحة" منقوشة بخطوط طولية سوداء أو سماوية يرتديها اليهودي في الصلاة عند التقعيد.

أسفلها موقع أول معبد،

وحتى لو كان منسياً ومهجوراً:

فالأرواق تضيء بشمس أبدية،

أبوابه تفضي إلى عالم النعيم¹

يصف "بونين" معبد بعلبك "معبد الشمس" ذا الأعمدة الذهبية المرمرية الستة، بأطلال العهد العتيق، كما ويصف المروج الخضراء والمياه الجارية والجبال والوديان وعموم الطبيعة الخلابة في لبنان، التي يفارنها بالنيل وأبي الهول الجبار والأهرامات، فيرى أنها "أكثر قوة وأكثر روعة" لشدة إعجابه بها. ويصف "بونين" الشمس، التي تضيء رواق المعبد "بالشمس الأبدية" وأبوابه "تفضي إلى عالم النعيم"، لما يستشعره من راحة نفسية ومنتعة للنظر تقود إلى جنات النعيم، ولا يفوت هنا معرفة "بونين" "بجنات النعيم"، التي تقود أيضاً إلى معرفته بالمصطلحات الإسلامية ودين الإسلام..

وقد كتب "بونين" الكثير من القصائد في هذا المجال ، منها قصيدة "شقشقة النهار"، التي كتبها عند زيارته للمغرب، حيث "يصف مدينة "مراكش" المغربية ممّا يعكس اهتمامه بتاريخ المغرب خلال العامين الخامس والسادس من الهجرة، عندما جرى فيهما تشييد "مراكش" وازدهارها السياسي كعاصمة للمغرب"². كما كتب "بونين" عن "القاهرة" عاصمة مصر قصيدة بنفس اسم العاصمة "القاهرة"، التي تبهر "بونين" فيكتب

1. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 281.
2. المرجع نفسه، ص 284.

عنها الكثير من القصائد، مضمناً بعض المصطلحات الإسلامية أيضاً، إلى جانب ذكره المتكرّر للأهرامات وأبي الهول في تلك القصائد، ووصفه المفصّل للسمات الخاصة بتاريخ مصر القديمة وحضارتها وثقافتها. ويورد وصفاً لمختلف مناطق القاهرة، مثل أهرامات الجيزة والأهرامات عامّة وجامع الأزهر وغيرها.

تقول أبيات قصيدة "القاهرة":

القاهرة

الجنود الإنجليز في القلعة
يحملقون فيما وراء النيل. إلى الغرب من القلعة
حتى الأهرامات، وسط الأودية في العفار،
ترقد القاهرة، جافة ورطوبة في أبريل.
قرعت الدفوف، وانتحب "المؤذن".
وفي عتمة رمادية الزرقة زعفرانية، خلف الصحراء،
خفت الغروب، وخانق اعتم الزرقة
هواء المساء، تقترب الخماسين.
وبأضواء مرحة لا تحصي

تضاء القاهرة، وأبو الهول عند الأهرامات

يحملق في هـوّة الليل

وظلام القرون، الإله "رع" في المقبرة، في تجويف¹

يسود القصيدة جوّ قاتم حزين، ويصف "بونين" الجنود الإنجليز وهم يحملقون من القلعة في الأودية فيما وراء النيل في القاهرة. ويذكر الجوّ، الخانق الذي يسود المكان ورياح "الخماسين" المعروفة في مصر ذات الهواء الجافّ الرّطب، ثمّ يذكر "أبا الهول والأهرامات والإله "رع"، تلك الأسماء المعروفة في تاريخ مصر، ممّا يدلّ على معرفته بذلك التاريخ العريق، كما ويدلّ على حبّه العميق لتلك الحضارة القديمة. "وقد أكّد الشّاعر الرّوسيّ "بريوسوف" (Bryoussov) المكانة، التي كان يشغلها التاريخ المصريّ القديم في فكر "بونين"، وذلك حين كتب: "لقد تقابلت مع "بونين" ثلاث مرات، وهو يبدو أكثر عمقاً ممّا يظهر، فتأمّلاته في الإنسانيّة وفي المصريّين القدماء، وفي عيوب الحياة المعاصرة هي تأمّلات قويّة وتترك انطباعاتاً في النّفس"².

1. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، ص 286 (عن المؤلفات الكاملة لبونين، ج 2، ص 366).
2. المرجع نفسه، ص 297 (عن ف. بريوسوف "مذكرات يومية"، موسكو 1927، ص 80).

المبحث الثالث

بونين والإسلام

كان "بونين" يهتمّ بالإسلام كثيراً، وكان يداوم وبشكل دائم على البحث عن أجوبة للأسئلة، التي تهتمّ البشريّة جمعاء "حول معنى الحياة، وحول الغاية من خلق الإنسان وعن العلاقة المتبادلة والارتباط المتبادل بين أشكال الوجود ككلّ، وحول المغزى من التاريخ وأسباب نهوض وموت الحضارات، وكذلك الأفكار حول الاعتقاد والإيمان، وسعي الشعوب إلى الحقيقة والخير والجمال، وفي ذات الوقت التّعطش الدائم لأن يرى بنفسه العالم الشّدِيد التّنوّع؛ كلّ هذا كان يغذي الخيال الجامح للفنّان ويوقد فكره وكلمته.

وحيث إنّ "بونين" كان قد درس الإسلام وقرأ القرآن، إلى جانب زيارته لبعض البلاد العربيّة الإسلاميّة، فقد كان يستلهم الإسلام في العديد من قصائده ونثره الأدبيّ؛ حيث تدور أعمال "بونين"، التي تتناول مواضيع إسلاميّة ويبدو تأثير الإسلام واضحاً فيها معظم أعماله، فهو يتناول سيرة النبي محمّد (صلى الله عليه وسلم) و يذكر في مؤلفاته العديد من البلاد العربيّة المذكورة في القرآن الكريم والمساجد ودور العبادة الخاصّة بالمسلمين، إلى جانب تناوله للمواضيع، التي تتعلّق بالشّعائر الإسلاميّة كالصلاة والحجّ وغيرها.

أمّا القصائد، التي يستلهم فيها "بونين" الإسلام فكثيرة جداً، وتدور حول محاور متعدّدة تدخل في خضم المجال الإسلاميّ. وجدير بالذكر أنّ "بونين" كان يحمل طوال الوقت نسخة من القرآن الكريم بترجمة "أ. نيكولايف" (A. Nikolaev)،

تمّ التثبّت من أنّها نسخة صادرة في موسكو عام (1901م) ، إذ إنّ القرآن كان بالنسبة لـ"بونين" بمثابة أحد أهمّ وأكثر الكتب المقروءة لديه¹.

وكثير من قصائد "بونين" مليئة بنفحة الشرق الإسلاميّ، حيث كان الشاعر الروسيّ يتبع القرآن بشكل مباشر، وأحياناً كان يكرّر آيات الكتاب المقدّس للمسلمين. عدا ذلك، فقد تابع "بونين" تقاليد "بوشكين" و"محاكاته للقرآن" بإحساس الوارث الشرعيّ الخاص، "كما أننا نلمس في أشعاره وقصائده الشّرقيّة الافتتان بالزّخرفة. لقد سافر "بونين" كثيراً في أرجاء الدّنيا، ولكنّه كان دائماً يلبيّ النداء القاهر ويعود إلى بلاد الإسلام، لكن القصائد التي نظمها أثناء رحلاته أو في ذكرياته كانت تخرج قبل كلّ شيء من إحساسه المباشر بالأرض و الهواء والمدن والبلدان والحدائق والصّحارى التي أغرم بها"².

يقول "بونين" في قصيدة بعنوان "الكوثر" عام (1903م)، التي يظهر فيها إحساسه بالطبيعة وتأثير القرآن على كلماته، بما في ذلك عنوان القصيدة، الذي يشير إلى "نهر الكوثر" وهو نهر من أنهار الجنّة، يقول:

الكوثر

"إنّا أعطيناك الكوثر" - (القرآن)

1. د. إبراهيم إستنبولي، سحر الشرق في الأدب الروسي، موقع جهة الشعر، jehat.com.
2. المرجع نفسه.

هنا مملكة الأحلام
عند آلاف الأميال غير مأهولة
مالحة شطئانها العاريفة.
لكن المياه بها: زمردية سماوية،
أما حرير الرمال فأنصع بياضاً من الثلج.
وفي حرير الرمال فقط شيخ رمادي الزرقة
ينميه الله للقطعان الرحل.
لكنّ السماوات هنا زرقاء فوق العادة،
والشمس بها: كلهب نار جهنم، سقر.
وفي ساعة الوهج، وحين السراب البلوري
سيمزج العالم كله في حلم واحد عظيم،
في بهاء لا نهائي، وراء حدّ الأرض الحزينة،
يحمل الروح إلى حدائق الجنة.
وهنا ينساب، هناك ينهمر خلف الضباب
نهرُ الأنهار كلها، الكوثر السماوي اللون،
والأرض كلها، والعشائر كلها، والبلدان
سيغمرها السكون. اصبر، صلّ وآمن.

يحاول "بونين" في القصيدة السابقة وصف "نهر الكوثر"، وهو مذكور في
سورة "الكوثر": (تَا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ (2) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ
(3))، وقد أعطاها نفس مسمى القرآن، مستلهماً صورته الشعريّة منه. نلاحظ اقتباس

"إيفان بونين" لكلمات تدلّ على معرفته بالدين الإسلامي والألفاظ العربيّة، التي تتعلّق بالقرآن وألفاظه، كقوله "نار جهنم"، "سقر"، "حدائق الجنّة"، "الكوثر"، فهذه المصطلحات جميعها لا صلة لها بمصطلحات بيئته الروسيّة، إنّما اقتبسها الشاعر من كلمات القرآن، ممّا يدلّ على فهمه وتصويره للمصطلح الإسلاميّ تصويراً جيداً. "وكما ثبت في "الصحيح" أنّ الكوثر (نهر في الجنّة، حاقتاه من ذهب ومجراه على الدرّ والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً"¹

ومن جهة أخرى استطاع "بونين" أن يتقمّص بالكامل شخصيّة المسلم، الدرويش المتجوّل، وأحياناً أخرى إلى شاهد على خلق العالم من قبل الله، وشاهد عيان على يوم الحساب العظيم. ففي بعض القصائد، مثل "ليلة القدر" و"تسبيح" و"الحجر الأسود للكعبة" و"المقام المقدّس" و"إبليس والإله" و"الطير" و"محمد في المنفى" و"الفقير" و"عرش سليمان" و"الحجيج" و"يوم الحساب" ومجموعة أخرى من القصائد المكتوبة في أعوام مختلفة، يتّضح فيها فهم الكاتب الواضح للمصطلح الإسلاميّ ومعرفته للإسلام، كما يتّضح ذلك من مسمّيات مؤلفاته. وتعتبر قصيدة "السرّ" من عيون الكنوز الشعريّة عند "بونين"، تلك القصيدة المرفقة باقتباس من القرآن "آلم .."، يقول الشاعر2:

1. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، ص 214.
2. د. إبراهيم إستنبولي، سحر الشرق في الأدب الروسي، موقع جهة الشعر، jehat.com.

السّرّ

و في الدّخان لمعت بوضوح أكبر
على الفولاذ رسوم ذهبيّة
محفورة بزخرفة من ذهب.
" باسم اللّٰه والنّبِيّ،
اقرأ، يا عبد السّماء والقدر،
نداءك المهين: قل، بأيّ
شعار قد زُيّن خنجرك؟ "
قال هو: " شعاري رهيب.
إنّه سرّ الأسرار؛ ألف. لام. ميم ".
" ألف لام ميم؟ ولكنّها إشارات مبهمّة
كما الطريق في ظلمة الحياة الآخرة
أخفى سرّها محمّد... "
" اصمت، اصمت! قال بحدّة
" لا إله إلا اللّٰه،
أكثر الأسرار بأساً، لا سرّ أكبر "1

1. د. إبراهيم إستنبولي، سحر الشرق في الأدب الروسي، موقع جهة الشعر، jehat.com.

فكما يتضح من الأبيات، أنّ كلمات الشّاعر يظهر فيها بوضوح إمامه بمعلومات واضحة عن دين الإسلام وسور القرآن الكريم ومصطلحاته وكلمة الحقّ "لا إله إلا الله" في قوله:

"لا إله إلا اللّهُ،
أكثر الأسرار بأساً، لا سرّاً أكبر".

كما يلاحظ أيضاً اقتباسه للمصطلح القرآني "آلم" ومعرفة أنّها "إشارات مبهمة"، كما يعلم المسلمون ذلك، أي أنّها عبارات مبهمة تدلّ على إعجاز القرآن الكريم. إضافة إلى ذكره لنبيّ الإسلام "محمدّ" (صلى الله عليه وسلّم).

ومن الصّور، التي تدلّ على اهتمام "بونين" بالموضوع الإسلاميّ أيضاً قصيدة "محمدّ مطارداً" عام (1906م)، التي يصف فيها الشّاعر مدى المعاناة والمكابدة التي تحمّلها الرّسول (صلى الله عليه وسلّم) في سبيل الدّعوة الإسلاميّة، تقول أبيات القصيدة:

محمدّ مطارداً

حلّقت الأرواح فوق الصّحراء

في الغسق، فوق الوادي الحجري.

ودوت كلماته ... الجزعة،

مثل ينبوع نسيه الله.

وعلي الرّمل، حافٍ، بصدر مكشوف،

كان يجلس، ويتكلّم في حزن:

ولّيت وجه الصّحراء والفقير.

عُزلت عن الجميع، من أحبّهم!

قالت الأرواح: لا يجدر

لرسول أن يكون ضعيفاً متعباً.

والرّسول في حزن وسكينه

أجاب: كنت أشكو للحجر.¹

يحاول الشّاعر في الأبيات أن يصرّو للقارئ بيئة الصّحراء فيعبّر عن ذلك بكلمات من تلك البيئة، مثل كلمة "الحجر" و "الرّمل" و "الوادي الحجري"، وفي خضم ذلك يرسم الشّاعر لوحة شعريّة تصف محنة الرّسول (صلّى الله عليه وسلّم) وخروجه من مكّة مهاجراً إلى المدينة، نشدّ من أزره الملائكة وتحرسه في رحلته الشّاقة الحزينة، مصوراً قلق الرّسول على مصير الدعوة. وكما تذكر الأديبة د. مكارم الغمري، يبدو أنّ الشّاعر استلهم القصيدة من الآيات (٤٠ - ٤١) من سورة التّوبة " إِنْ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ

1 . د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، مرجع سابق، ص 207.

مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ
اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) " 1.

وهذا بالفعل ما تدلّ عليه كلمات القصيدة، التي تصوّر حزن النَّبِيِّ (صلى الله
عليه وسلم) في ذلك الوقت من نبذ أهله وعشيرته له وكيدهم له ولمن تبعه في طريق
دعوته المليء بالمكاره، ممّا اضطرّه للهجرة لنشر دعوته في المدينة بعيداً عن أذاهم.

أمّا ما يستلهمه الشّاعر "يونين" من سيرة الأنبياء، ما كتبه في قصيدة باسم
"إبراهيم" عام (١٩٠٣م)، عن قصّة إيمان سيّدنا إبراهيم الخليل (عليه السلام)، يقول:

إبراهيم

كان إبراهيم في الصّحراء في ليلة مظلمة
فرأى في السّماء كوكباً
«ها هو ربّي» ! صاح هو، لكن
عند منتصف الليل
أفل الكوكب، وخمد نوره.
كان إبراهيم في الصّحراء قبيل الفجر

فرأى القمر بازغاً .

«هاهو ربّي» ! صاح هو .

لكن القمر

خمد وأفل مثل الكوكب .

كان إبراهيم في الصحراء في الصباح الباكر .

ومدّ يديه في سعادة نحو الشمس .

«هاهو ربّي» ! صاح هو، لكن الشمس

قضت اليوم وغربت في الليل .

وقاد الله إبراهيم إلى الطريق الحق¹

تُستلهم الأبيات السابقة من الآيات الكريمة (75 – 79) من سورة

"الأنعام" "وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75)

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى

الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77)

فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا

1. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، ص 208.

تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ
الْمُشْرِكِينَ (79) ¹.

والأبيات تصف ما كان عليه قوم سيدنا إبراهيم من ضلال وما كان يحاول أن
يهتدي إليه إبراهيم من آيات كونية تدله على وجود الخالق العظيم، فيرى في كل آية من
تلك الآيات الإلهية دليلاً إلى الله، ولكنه في كل مرة يهتدي إلى ما هو أكبر وأعظم ممّا
سبقه. وبذلك يبيّن لقومه بطلان ما كانوا عليه من عبادة للأصنام والكواكب.

ومن الصّور الإسلاميّة أيضاً في أشعار "بونين" أنه يحكي عن زوجة الرّسول
"صفية"² اليهوديّة في قصيدة يقول فيها:

صفية، وقد استيقظت، راحت تجدل بيد
زرقاء ماهرة خصلات الجداول السّود:
" الكلّ يعيرني، يا محمّد، باليهوديّة "

تتكلم عبر الدّموع، ودون أن تمسح الدّموع.
محمّد، وهو ينظر مع ابتسامة ساحرة وبحبّ،
يجيب بوداعة: " قولي لهم، يا صديقتي
أبراهام أبي وموسى عمّي ومحمّد زوجي "

¹. الآيات 75 – 79 من سورة الأنعام.
². د. إبراهيم إستنبولي، سحر الشرق في الأدب الروسي، موقع جهة الشعر، jehat.com (ترجمة د. إبراهيم إستنبولي).

يتضح هنا أيضاً معرفة "بونين" بالأنبياء وزوجات النبي (صلى الله عليه وسلم)،
ويظهر حب النبي لزوجته ومعاملته الطيبة لها، كما يوضح معرفته بتأكيد النبي لصلته
بالتوراة "والتعاقبية في رسالته، وإنّ "الديانات السماوية" الثلاث كانت بالنسبة له ديانة
واحدة، غير إنّ "بونين" استطاع أن يشعر بخصوصية الإسلام، حيث يقول في قصيدته
"الراية الخضراء"، التي تبدو كما لو أنها دعوة غير متوقعة نهائياً من فم مسيحيّ
أرثوذكسيّ إلى الجهاد المقدّس"1، يقول الشاعر:

و لكنّك تنامين بسلام، يا مجد الشرق!
وقد فتنت القلب
إلى الأبد. ألسنت أنت التي شيّدك جبرائيل
فـ فوق رأس التبـيـي؟
وألسنت أنت تسبحين فوق الشرق إلى اليوم؟
استديري، انهضي
وسينهض الإسلام، كما لو "سموم" الصحراء،
إلى الجهاد المقدّس!

إنّ القرن العشرين المليء بالكوارث البشريّة قد غير بشكل جذريّ حياة الشعوب
الإسلاميّة. فقد انعكست عميقاً في شعر "بونين" الأمواج العاتية للعصر الحديث؛ وكانت
بعض قصائده مثل "أمواج" و"أحفاد النبي"، عبارة عن صدى مباشر لما يحدث في

1. د. إبراهيم إستنبولي، سحر الشرق في الأدب الروسي، موقع جبهة الشعر، jehat.com.

السّياسة العالميّة. لقد كانت عزيزة على قلب الشّاعر الرّوسيّ مشاعر الاعتزاز
والكرامة لدى المسلم في وجه المحتلّين والمستعمرين الأوروبيّين.

وفي إطار ما تعرّف عليه الأديب "بونين" ما لـ "ليلة القدر" من مكانة سامية في
القرآن الكريم، صوّر الشّاعر ما استلهمه في هذا المجال في قصيدة بنفس المسمّى
الإسلاميّ "ليلة القدر" يقول فيها:

ليلة القدر

ليلة القدر. تألفت القمم و تمازجت

ونصبت عمائمها أعلى نحو السّماء

أذن المؤدّن، وما تزال قطع الجليد

تدخل فتى الأرجوانيّ

ويتنسّم برد الظلام من المضايق، والوديان

ليلة القدر. بالمنحدرات الجبلية المظلمة

ما تزال تهبط السّحب في طبقات

أذن المؤدّن. وأمام العرش العظيم

ينساب النّهر الماسيّ، مدخناً

وجبريل، غير مسموع وغير مرئي

يطوف العالم النَّائم . ربّي .بارك

الطّريق غير المرئي للحاجّ الطاهر

وامنح أرضك ليلة السّلام والحبّ.

ويبدو أنّ القصيدة السّابقة مستلهمة من معاني الآيات (١ - ٥) من سورة "القدر"
"إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ
(3) تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ
(5)"¹.

وتعقيباً على ما ذكرته الأديبة د. مكارم الغمري بأنّ الصّورة الشّعريّة عن "ليلة
القدر" هنا "تعكس حرص "بونين" على توضيح فضل هذه الليلة "ليلة السّلام والحب"،
التي ينزل فيها جبريل إلى الأرض، وذلك في إطار من الرّؤية الذاتيّة للطّبيعة المتأهّبة
لاستقبال هذه الليلة العظيمة. إنّها ساعة الغروب، التي يضيفي فيها الغروب لونا أرجوانيّاً
على كلّ شيء، حتّى على قطع الجليد النّاصعة البياض، وتتحدر السّحب في طبقات،
وفي هذه الليلة الرّوحانيّة الجليّة تتألف قمم المساجد ترقباً لمشهد نزول الملائكة إلى
الأرض، وأمام العرش السّماوي ينساب النّهر الماسيّ (على ما يبدو يقصد نهر الكوثر).
إنّها ليلة رائعة من الصّفاء والانسياب في حركة الطّبيعة والملائكة في عالم الأرض
والسّماء. ويبدو تأثّر "بونين" في صورته الشّعريّة عن "ليلة القدر" ليس فقط بمعاني

1. الآيات 1 - 5 من سورة القدر.

سورة "القدر" الكريمة، بل وأيضاً ببلاغتها، إذ ينكرّر في القصيدة ذكر "ليلة القدر"، وذلك لتأكيد أهميّة الليلة ومكانتها¹. ويبدو أنّ "بونين" قد امتزجت روحه ومشاعره مع تلك الأجواء الربّانية لينظم تلك الأبيات، التي تعكس بوضوح تأثره بالبيئة الإسلاميّة. وقد لقي استلهاً "بونين" للعناصر الإسلاميّة تجاوباً كبيراً من ظروفه، التي كان يمرّ بها في ذلك الوقت ممّا ساعد في إنتاجه الثرّ الذي تميّز بخصائص فريدة ومميّزة.

تعقيب

غادر "بونين" وطنه إلى فرنسا عام (1920م) ليقضي بقية حياته فيها ويعيش وحدة ومعاناة وحنين طاغ إلى الوطن. وفي السنوات من (1937م) إلى (1945م) عكف "بونين" على تأليف قصص كتابه "الدروب الظليلة"، الذي كان مصدر بهجة رئيسة له. "يورد" "بونين" أقوال "ليو تولستوي" من روايته "الحرب والسلام"، التي يقول فيها "إنّ الحبّ لا يفهم الموت، الحبّ هو الحياة"، ويمكن اعتماد هذه الكلمات لتكون العبارات، التي تتصدّر قصص "بونين" "الدروب الظليلة"².

لقد تعلّق "بونين" بالحياة وبمن يفعل الخير على الأرض، كان يبغض كل ما ينتهك الانسجام الطّبيعي، الذي كان يؤمن به إيماناً راسخاً، ولعلّ ذلك الشّعور كان يقارب مشاعر الفيلسوف والروائيّ الكبير الكونت "ليو تولستوي" في زمانه؛ حيث واكب الأديب "بونين"، عصر "تولستوي" لفترة من الزّمان حتّى عام (1910)، العام الذي توفّي فيه الفيلسوف "تولستوي". وقد كان موقف "بونين" من العالم المصدر

1. د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، ص 219.
2. إيفان بونين، أعلام الأدب الروسي، الدروب الظليلة، دار رادوغا، موسكو، 1987، ص 10.

الشاعري لإبداعه؛ إذ إنّ جميع أعماله مترعة به. كتب "بونين" عن نفسه يقول: "إنّ حياتي اندماج مختلج وجذل مع كلّ ما هو خالد وعابر، وقريب وبعيد، مع جميع الأزمان والأمصار، وحياة كلّ ما وجد ويوجد على هذه الأرض الأثيرة إلى نفسي بكلّ القدر".¹

لقد كان للعناصر الإسلاميّة في أدب "بونين" أثر كبير بدا واضحاً في مختلف سمات أدبه، نثراً وشعراً، فانعكس في إنتاجه مصوراً للشرق العربيّ ومستلهماً للطابع الإسلاميّ في مختلف صورته ليظهر المكانة السامية، التي كان يحتلّها الشرق في الأدب الروسيّ في مطلع القرن العشرين. ذلك هو "بونين" الذي يبدو وقد نمت في روحه المشاعر الشّرقيّة وحبّ الإسلام.

1. إيفان بونين، أعلام الأدب الروسي، الدروب الظليلة، دار رادوغا، موسكو، 1987، ص 7.

الخاتمة

تفاعل الأدباء الروس بصورة جلية مع الأدب الشرقي والإسلام فتأثروا وأثروا في غيرهم من الأدباء والشعراء في المجتمع الروسي والعالمي ككل. وقد كان تأثير الشرق، بخاصة، جلياً بسبب ازدهار حركة الاستشراق، التي حدثت في بداية القرن التاسع عشر.

من العوامل، التي ساعدت في تأثير الشرق العربي على الأدب الروسي قرب الشرق من الأراضي الروسية، بالإضافة إلى الموقع الجغرافي لروسيا واحتكاك أدبائها المباشر بالشرق وتأثرهم بالبيئة والثقافة والحضارة العربية الإسلامية، التي ترتبط عناصرها ببعضها البعض. كما أنّ وجود الوسائط، من رحلات وبعثات دبلوماسية وترجمات أدبية ساعدت في ذلك التأثير من خلال تمازج الأدباء بالأدب والثقافة الشرقية.

كان التعبير عن الروح العربية والطابع العربي الشرقي وعاداته وتقاليده واضحاً جلياً في كتابات الأدباء الروس، وكذلك تأثير نمط الحياة العربية المتضمنة في التراث والفلكلور العربي والطبيعة الشرقية بسماتها المميزة ومزج البناء الواقعي والخيالي والأسطوري، الذي يتمتع به الأدب الشرقي. كما يتضح أنّ تأثير القصة الشعرية الرومانتيكية في الأدب الروسي يتمثل في تأثير "ألف ليلة وليلة" في أدب عدد من الأدباء الروس، على رأسهم الأديب والكاتب والشاعر الروسي العظيم "بوشكين".

وقد ارتبط تأثير الترجمة، التي ظهرت في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، في الإنتاج الأدبي الروسي، ومثالاً لذلك ترجمة "غالان" الفرنسية،

والترجمات الروسيّة للشّعر العربيّ والإيرانيّ من اللغات الوسيطة الإنجليزيّة والألمانيّة والفرنسيّة. ثمّ إنّ ازدهار الأدب المترجم والمقلّد في فترة العشرينيات والثلاثينيات من القرن التّاسع عشر أتاحت ظهور ترجمات عديدة في ذلك الوقت أثرت تأثيراً مباشراً في الأدب الروسيّ. أمّا ترجمة القرآن الكريم عن الأصل العربيّ بواسطة المترجمين الرّوس الدّارسين للغة العربيّة، فقد كان لها أكبر الأثر في ظهور العديد من المؤلّفات الأدبيّة، التي تستلهم معاني القرآن الكريم وآدابه وقيمه. تلت ذلك الأبحاث المخصّصة للإسلام والقرآن، حيث ازدهرت المطبوعات الإسلاميّة، التي تستخدم الحروف العربيّة وانتشرت في العديد من المدن الروسيّة.

ونتيجة لذلك التّمازج، فقد أثار البديع الشّرقيّ في الشّعراء الرّوس، فتناول عناصر الغريب، الذي لم يكن يمتّ للشّعر الروسيّ بصِلّة، فدخلت العناصر الشّرقية والأسلوب الإبداعيّ، الذي يتضمّن المقارنات والمجاز والاستعارة والغزل والتّشبيه المقترن بمفردات الحياة الشّرقية، فساعد في انتشاره في الأدب الروسيّ واستيعابه في المجتمع وتأثيره فيه، ممّا أشعل القرائح وأثرى الموضوعات والأفكار الأدبيّة، إلى جانب إثرائه للمفردات القوميّة، التي ساعدت في تطوّر الأدب القوميّ الروسيّ. وقد ظهر تصوير الحضارة العربيّة الإسلاميّة بوضوح في تأثير الشّرق على إنتاج الأدباء الرّوس، فازدهر إنتاجهم الفنّي وامتزج بالأفكار والمفردات والأنماط الأدبيّة الشّرقية بشكل جليّ، رغم انتماهم القوميّ وارتباطهم بأدبهم وتراثهم الوطنيّ.

وقد أثار تصوّر الشّرق العربيّ في إنتاج الرّومانتيكيين الرّوس، الذي تغلب عليه الدّقة التاريخيّة وتمييز حضارة الشّرق الإسلاميّ، الذي يتجلّى فيه امتزاج التّقاليد الأدبيّة الشّرقية والتّقاليد الأوربيّة، فيبدو تأثير الأدب العربيّ جليّاً في تطوّر الأدب

الرّوسيّ. ويظهر ذلك التّأثير في إنتاج "ليو تولستوي"، الذي تأتّر بالشرّق الإسلاميّ وتجاوب مع القيم الإسلاميّة، فظهر نتاج ذلك في أدبه وأشعاره فاصطبغ بالصّبغة الشرقيّة الإسلاميّة وتشربّ بأسلوبها الدّقيق الحيّ.

إنّ التّأثير العربيّ الشرقيّ الإسلاميّ على الأدباء الرّوس، من بينهم الأدباء ذوي المكانة العالية، الذين تناولتهم الدّراسة، واستلهمهم لثقافته وحضارته، يحتلّ مكانة كبيرة لدى كلّ من أولئك الأدباء الرّوس ومعرفتهم للحضارة والثّقافة العربيّة والقيم الإسلاميّة، كلّ على طريقته الخاصّة وبدرجات متفاوتة من التّأثير والتأتّر والتفهم للمفردات والمعاني العربيّة الإسلاميّة، فتجلّى ذلك في ثقافة راقية ذات تمازج حضاريّ فريد في أسلوبه وخصائصه أدّى إلى انتشار أدب مميّز تخطّت سمعته المجتمع الرّوسيّ لتصل إلى شتّى أنحاء العالم.

نتائج الدراسة

أسفرت الدراسة الحاليّة عن النتائج التّالية :-

1- ضعف تناول موضوع تأثير الشّرق العربيّ الإسلاميّ لدى الكتاب العرب على الأدباء الرّوس، حيث لم تتوفر المادّة المطلوبة للدراسة إلاّ بجهد وبحث متواصل في المكتبات العامّة والإنترنت، ورغم ذلك فإنّ المادّة المتلقّاة لا تشفي الغليل، لما تتطلبه الدراسة من مختلف البحوث لتأتي بالثمرة المطلوبة، وليتمكّن الباحثون في هذا المجال من الحصول على مادّة غنيّة تمدّهم بالمادّة اللازمة، التي قد تفي بغرض الدراسة.

2- قلّة المصادر؛ حيث لم يتحصّل البحث على المصادر العربيّة في مكتبات شتّى، وقد اعتمد البحث بصورة كبيرة على أكثر الكتب تناولاً للموضوع، وهو كتاب الأدبية المعروفة د. مكارم الغمري "مؤثرات عربيّة وإسلاميّة في الأدب الرّوسيّ"، الذي تناول تأثير الشّرق العربيّ والقرآن والحديث النّبوي في الكتاب الرّوس، الذين تناولهم البحث بالدراسة، يليه كتاب "بوشكين والقرآن" للدكتور مالك صقور، الذي تناول تأثير القرآن الكريم في أشعار الاسكندر بوشكين تماماً كما تناولت نفس المادّة د. مكارم الغمري. ويأتي كتاب "حكّم النّبي محمّد" أيضاً من ضمن المراجع، التي تناولتها الدراسة للحصول على المزيد من المعلومات لإثراء مادّة البحث علّها تفي الغرض المطلوب. أمّا كتاب د. مازن مطبّقاتي "الاستشراق"، فقد كان مرجعاً آخر ساعد في الاستزادة وإضافة معلومات في هذا المجال. وأخيراً كتاب د. عبد الرحيم العطاوي "الاستشراق الرّوسيّ"، الذي تزوّد البحث منه بمعلومات في مجال الاستعراب الرّوسيّ وبعض الحقائق الهامّة في الدراسة.

علماً بأنّ بعض هذه المراجع تمّ الحصول عليها من خارج البلاد لإثراء مادّة البحث، فقلّة المصادر كانت من أكبر المعوّقات، التي واجهها هذا البحث ليخرج في صورة مرضية.

3- قلّة التّرجمات الصّادقة من الرّوسيّة إلى العربيّة، وعليه فقد اعتمدت الدّراسة على ترجمات د. مكارم الغمري، د. تجاني إسماعيل الجزولي ود. إبراهيم استنبولي من الأصول الرّوسيّة للقصائد والمواد المختلفة في هذه الدّراسة.

4- جاء تناول الكتب للمادّة المطروحة قليل جداً وبدرجة ملحوظة، حيث لم تجد المادّة إلا عدداً قليلاً من الباحثين العرب، رغم أهميّتها.

4. اتّضح أنّ هناك مؤلّفات أجنبيّة بلغات أخرى تتناول هذه المادّة بإسهاب، ولكن لم يتناولها الباحثون، وذلك سبب آخر لقلّة المصادر والبحوث في هذا المجال.

5. اتّضح عدم توقّر التّرجمات اللازمة لهذه الدّراسة في اللغات الأجنبيّة الأخرى، ممّا كان سيوفّر مادّة أكبر للبحث والتّبحر فيه.

6. اتّضح أنّ الكثير من الأدباء الرّوس، إلى جانب المذكورين في الدّراسة، تأثّروا وأثّروا في المجتمع الرّوسيّ والعالميّ، غير أنّ الباحثين لم يتناولوهم أيضاً بالدّراسة.

7. قد يستعين الباحثون بما قدّمته الدّراسة من قيم وحقائق تضمّنتها تلك الرّحلة في تاريخ روسيا.

8. فتح المجال لباحثين آخرين في مجال تأثير الشّرق والإسلام على بلاد أجنبيّة بصفة عامّة، والرّوس بصفة خاصّة.

التوصيات

1. السّعي للحصول على مؤلفات من مصادر أجنبيّة بلغات أخرى تتطرّق لنفس المادّة واللجوء إلى مصدر البحث في البلد الأم، ما أمكن ذلك.
2. إعادة ترجمة مراجع أجنبيّة أكثر ثراءً بالمادّة لمساعدة الباحثين في هذا المجال.
3. التّركيز على النّصوص النّثريّة في البحوث الأخرى لقلّة تناولها في هذه الدّراسة، بسبب أهميّة المادّة.
4. تناول مادّة هذه الدّراسة مع غيرها من البحوث في هذا المجال من قبل باحثين آخرين والتّوسع فيها بشموليّة أكبر.
5. تناول مؤلّفات كتّاب آخرين من الأدب الرّوسيّ تأثّروا وأثّروا في غيرهم لتغطية المادّة في جوانب أخرى.
6. ضرورة التّوسّع المبرمج في ترجمة الأدب الرّوسيّ إلى اللغة العربيّة، بحيث تشمل تلك التّرجمة الشّعروالرواية والمسرح والنّقد الأدبيّ.

فهرس الآيات القرآنية الواردة في الرسالة

الصفحة	رقم الآية	الآية	السورة
87	264-262	(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (262) قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَىٰ وَاللَّهُ عَنِّي حَلِيمٌ (263) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (264))	البقرة
82	258	(أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258))	البقرة
87	259	(أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَىٰ الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259))	البقرة
110	34	(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34))	البقرة
152	45	(وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصًا (45))	المائدة
197	79 - 75	(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْإِفْلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79))	الأنعام

115	16 - 15	(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ (15) وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدْ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُنْحَرِفًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا وَاهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (16))	الأنفال
196-195	٤٠ - ٤١	(إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السَّقْلَىٰ وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (41))	التوبة
79- 78	40	(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السَّقْلَىٰ وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40))	التوبة
151	32	(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَاءَ أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (32))	التوبة
112	96	(فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَنَا اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (96))	يوسف
119	26 - 24	(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْمَثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (26))	إبراهيم
60	82	(وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (82))	الأنبياء
	7 - 6	(ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (7))	الحج

83	35	(لَللّٰهِ نُورُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ مِثْلُ نُوْرِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيْهَا مِصْبٰحٌ الْمِصْبٰحُ فِيْ زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبٰرَكَةٍ (35))	النور
83	10	(خَلَقَ السَّمٰوٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَّرَوْنَہَا وَاَلْقٰی فِي الْاَرْضِ رَوٰسِيًّۙ اَنْ تَمِيْدَ بِكُمْ وَبَتَّ فِيْہَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَاَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَاَنْبَتْنَا فِيْہَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيْمٍ (10))	لقمان
80	33	(وَقُرْنِ فِيْ بُيُوْتِكُمْ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجٰہِلِيَّةِ الْاُولٰٓئِ (33))	الأحزاب
81	53	(يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا لَا تَدْخُلُوْا بُيُوْتِ النَّبِيِّ اِلَّا اَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ اِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نٰظِرِيْنَ اِلَیْہَا وَاَنْتُمْ طَعْمُكُمْ فَاَنْتَشِرُوْا وَلَا مُسْتَأْنِسِيْنَ لِحَدِيْثِہٖ اِنَّ ذٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِيْ مِنْكُمْ وَاللّٰهُ لَا يَسْتَحْيِيْ مِنَ الْحَقِّ (53))	الأحزاب
76	1	(الْحَمْدُ لِلّٰهِ فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ جَاعِلِ الْمَلٰٓئِكَةِ رُسُلًا اُولٰٓئِ اُجْنِحَةً مِّنۢ ثَلٰثٍ وَرَبّٰعٍ يَزِيْدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَآءُ اِنَّ اللّٰهَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ (1))	فاطر
84	10 - 12	(يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا هَلْ اَدْرٰكُمْ عَلٰى تِجَارَةٍ تُنْحِيْكُمْ مِنْ عَذَابِ اَلِيْمٍ (10) تُؤْمِنُوْنَ بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِہٖ وَتُجٰہِدُوْنَ فِيْ سَبِيْلِ اللّٰهِ بِاَمْوَالِكُمْ وَاَنْفُسِكُمْ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ اِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ (11) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوْبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِہَا الْاَنْهٰرُ وَمَسٰكِنٍ طَيِّبَةٍ فِيْ جَنَّٰتٍ عَدْنٍ ذٰلِكَ الْقَوْزُ الْعَظِيْمُ (12))	الصف
85	10 - 1	(يٰۤاَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) فَمِ اللَّيْلِ اِلَّا قَلِيْلًا (2) نِصْفُهُ اَوْ اَنْقُصُ مِنْہُ قَلِيْلًا (3) اَوْ زِدْ عَلَیْہِ وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيْلًا (4) اِنَّا سَنُلْقِيْ عَلَیْكَ قَوْلًا ثَقِيْلًا (5) اِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ اَشَدُّ وَطْءًا وَاَقْوَمُ قِيْلًا (6) اِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيْلًا (7) وَاذْكُرْ اِسْمَ رَبِّكَ الَّذِي تَبَتَّلْنَا بِہٖ (8) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْہُ وِكِيْلًا (9) وَاصْبِرْ عَلٰى مَا يَقُوْلُوْنَ وَاھْجُرْہُمْ هَجْرًا جَمِيْلًا (10))	المزمل
82	10 - 1	(عَبَسَ وَتَوَلّٰی (1) اَنْ جَآءَہُ الْاَعْمٰی (2) وَمَا يَدْرِيْكَ لَعَلَّہُ يَرْکَبِي (3) اَوْ يَدَّكُرُ فَيَنْفَعُہُ الذِّكْرٰی (4) اَمَّا مَنْ اَسْتَعْتٰی (5) فَاَنْتَ لَہٗ تَصَدّٰی (6) وَمَا عَلَیْكَ اِلَّا يَرْکَبِي (7) وَاَمَّا مَنْ جَآءَكَ يَسْعٰی (8) وَهُوَ یَخْشٰی (9) فَاَنْتَ عَنْہُ تَلْہٰی (10))	عبس

79	9	(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9))	الضحي
78	11 - 1	(وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3))	الضحي
200	5 - 1	(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5))	القدر
228	3 - 1	(يَا أَعْظِيكَ الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرُ (2) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3))	الكوثر
94	6 - 1	(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6))	الناس

أ- المصادر والمراجع العربيّة

- .1984 •
-
- .1984
- .1960 •
- " "
-
- .1984
- .1987 •
- .1970 •
- .5 1984 •
- " "
-
- .1987
- 1 •
- .2003
- " "
-
- .1987

" " •
.1986 •
.1987 •
.1994 •
.1994 •
16 •
.1993 •
.2007 •
1 •
. 2002 •
.1894 •
.2000 •

() . •

1966

142 - 81

1973

•

•

1963

.1

"

"

•

.216 1987

•

1987 2

.59 -56

1950

•

13

" "

•

. 1902

.1993 3

•

()

. . •

2008

	1		•
		.1993	
		...	•
		.1986	
1930			•
			•
		. 1991	
.2006	126		•
24	" "		•
		.2005	
			•
		2008 9	
			•
		.1980 114	
.2005	414		•
			•
		.2002 20	

5297

.2008 11

.2000

.2008 23

.1990

.1974

.2004

. 63

.1989

. 2006 4

•

.1985

.2004 563

•

.2007 2

•

" . •

39 1999

.1910 " . . "

•

63

2004

•

www.Islamonline.net

•

:

www.alecso.org.

•

.2007

•

2008

" "

•

.1981

.2008 25

•

•

•

.www.madinacenter.com .2005

.2003

•

ب- المراجع الأجنبية

.1970 3 1

•

"

"

•

.1930 5

"

"

•

•

"

"

"

•

.1979

"

"

.1974 " " . •
•

.1818 22

- ar.wasallive.com/ar or
yousef83.wordpress.com/2008/12/16.
- **Bonin Full Works, c 2, c 3, (1965).**
- **Bryouso P., (1927), "Daily Diary", Moscow.**
- **Dstoevski. F.M., Full works in thirty volumes, Moscow, 1978, volume 18.**
- **Gusev N., the codes of life and Production of Lev Tolstoy, Moscow 1960.**
- **Joseph Frank, Prophet coat, Princeton University Publications, 2003.**
- **Lenin, P. E., full works, Fifth Edition, Volumes 17 & 20 .**
- **Maurice Charbel Hanna, (1996), Encyclopedia of Foreign Poets and Writers, Tripoli, Lebanon, Bruce Press.**
- **Mikhail Irmentov, full works – ed. 1, 1975.**
- **Pushkin, A. S., full works. c2, c4, Moscow, 1977, 1978.**
- **Tolstoy, The Confession, The Search for God, c 1-6.**

ПРОРОК

Духовной жаждою томим,
В пустыне мрачной я влачился, —
И шестикрылый серафим
На перепутье мне явился.
Перстами легкими как сон
Моих зениц коснулся он.
Отверзлись вещие зеницы,
Как у испуганной орлицы.
Моих ушей коснулся он, —
И их наполнил шум и звон:
И внял я неба содроганье,
И горний ангелов полет,
И гад морских подводный ход,
И дольней лозы прозябанье.
И он к устам моим приник,
И вырвал грешный мой язык,
И празднословный и лукавый,
И жало мудрыя змеи
В уста замершие мои
Вложил десницею кровавой.

И он мне грудь рассек мечом,

И сердце трепетное вынул,

И уголь, пылающий огнем,

Во грудь отверстую водвинул.

Как труп в пустыне я лежал,

И бога глас ко мне воззвал:

«Восстань, пророк, и виждь, и внемли,

Исполнишь волею моей,

И, обходя моря и земли,

Глаголом жги сердца людей».

*** Интернет-библиотека Алексея Комарова**

التَّرْجَمَةُ الْإِنْجَلِيزِيَّةُ لِقَصِيدَةِ الْإِسْكَندَرِ بُوْشْكِينَ (النَّبِي) مِنَ الْأَصْلِ الرَّوسِيّ

The Prophet- Pushkin:

Longing for spiritual springs,
I dragged myself through desert sands ...
An angel with three pairs of wings
Arrived to me at cross of lands;
With fingers so light and slim
He touched my eyes as in a dream:
And opened my prophetic eyes
Like eyes of eagle in surprise.
He touched my ears in movement, single,
And they were filled with noise and jingle:
I heard a shuddering of heavens,
And angels' flight on azure heights
And creatures' crawl in long sea nights,
And rustle of vines in distant valleys.
And he bent down to my chin,
And he tore off my tongue of sin,
In cheat and idle talks aroused,
And with his hand in bloody specks
He put the sting of wizard snakes
Into my deadly stoned mouth.

**With his sharp sword he cleaved my breast,
And plucked my quivering heart out,
And coals flamed with God's behest,
Into my gaping breast were ground.
Like dead I lay on desert sands,
And listened to the God's commands:
'Arise, O prophet, hark and see,
Be filled with utter My demands,
And, going over Land and Sea,
Burn with your Word the humane hearts.**

*** © Copyright, 1996**

Translated by: Yevgeny Bonver Jan.1996

July1996: Dmitry KarshtedtEdited

ملحمة الاسكندر بوشكين (محاكاة القرآن) الأصل الرّوسيّ

ПОДРАЖАНИЯ КОРАНУ {1}

ПОСВЯЩЕНО П. А. ОСИПОВОЙ.

I

Клянусь четой и нечетой,

Клянусь мечом и правой битвой,

Клянуся утренней звездой,

Клянусь вечернею молитвой:{2}

Нет, не покинул я тебя.

Кого же в сень успокоенья

Я ввел, главу его любя,

И скрыл от зоркого гоненья?

Не я ль в день жажды напоил

Тебя пустынными водами?

Не я ль язык твой одарил

Могучей властью над умами?

Мужайся ж, презирай обман,

Стезею правды бодро следуй,

Люби сирот, и мой Коран

Дрожащей твари проповедуй.

II

О, жены чистые пророка,

От всех вы жен отличены:

Страшна для вас и тень порока.

Под сладкой сенью тишины

Живите скромно: вам пристало

Безбрачной девы покрывало.

Храните верные сердца

Для нег законных и стыдливых,

Да взор лукавый нечестивых

Не узрит вашего лица!

А вы, о гости Магомета,

Стекаясь к вечери его,

Брегитесь суетами света

Смутить пророка моего.

В паренье дум благочестивых,

Не любит он велеречивых

И слов нескромных и пустых:

Почтите пир его смиреньем,

И целомудренным склоненьем

Его невольниц молодых {3}.

III

Смутясь, нахмурился пророк,
Слепца послышав приближенье:{4}
Бежит, да не дерзнет порок
Ему являть недоуменье.

С небесной книги список дан
Тебе, пророк, не для строптивых;
Спокойно возвещай Коран,
Не понуждая нечестивых!

Почто ж кичится человек?
За то ль, что наг на свет явился,
Что дышит он недолгий век,
Что слаб умрет, как слаб родился?

За то ль, что бог и умертвит
И воскресит его - по воле?
Что с неба дни его хранит
И в радостях и в горькой доле?

За то ль, что дал ему плоды,
И хлеб, и финик, и оливу,
Благословив его труды,
И вертоград, и холм, и ниву?

Но дважды ангел вострубит;
На землю гром небесный грянет:
И брат от брата побежит,
И сын от матери отпрянет.

И все пред бога притекут,
Обезображенные страхом;
И нечестивые падут,
Покрыты пламенем и прахом.

IV

С тобою древле, о всеильный,
Могучий состязаться мнил,
Безумной гордостью обильный;
Но ты, господь, его смирил.
Ты рек: я миру жизнь дарую,
Я смертью землю наказую,
На все подъята длань моя.
Я также, рек он, жизнь дарую,
И также смертью наказую:
С тобою, боже, равен я.
Но смолкла похвальба порока
От слова гнева твоего:
Подъемлю солнце я с востока;

С заката подыми его!

V

Земля недвижна - неба своды,

Творец, поддержаны тобой,

Да не падут на сушь и воды

И не подавят нас собой5.

Зажег ты солнце во вселенной,

Да светит небу и земле,

Как лен, елеем напоенный,

В лампадном светит хрустале.

Творцу молитесь; он могучий:

Он правит ветром; в знойный день

На небо насылает тучи;

Дает земле древесну сень.

Он милосерд: он Магомету

Открыл сияющий Коран,

Да притечем и мы ко свету,

И да падет с очей туман.

VI

Не даром вы приснились мне

В бою с обритыми главами,

С окровавленными мечами,
Во рвах, на башне, на стене.

Внемлите радостному кличу,
О дети пламенных пустынь!
Ведите в плен молодых рабынь,
Делите бранную добычу!

Вы победили: слава вам,
А малодушным посмеянье!
Они на бранное призыванье
Не шли, не веря дивным снам.

Прельстись добычей боевою,
Теперь в раскаянье своем
Рекут: возьмите нас с собою;
Но вы скажите: не возьмем.

Блаженны падшие в сраженьи:
Теперь они вошли в эдем
И потонули в наслажденьи,
Не отравляемом ничем.

VII

Восстань, боязливый:

**В пещере твоей
Святая лампада
До утра горит.
Сердечной молитвой,
Пророк, удали
Печальные мысли,
Лукавые сны!
До утра молитву
Смиренно твори;
Небесную книгу
До утра читай!**

VIII

**Торгуя совестью пред бледной нищетою,
Не сыпь своих даров расчетливой рукою:
Щедрота полная угодна небесам.
В день грозного суда, подобно ниве тучной,
О сеятель благополучный!
Сторицею воздаст она твоим трудам.**

**Но если, пожалев трудов земных стяжанья,
Вручая нищему скупое подаянье,
Сжимаешь ты свою завистливую длань, -
Знай: все твои дары, подобно горсти пыльной,
Что с камня моет дождь обильный,**

Исчезнут - господом отверженная дань.

IX

И путник усталый на бога роптал:

Он жаждой томился и тени алкал.

В пустыне блуждая три дня и три ночи,

И зноем и пылью тягчимые очи

С тоской безнадежной водил он вокруг,

И кладез под пальмою видит он вдруг.

И к пальме пустынной он бег устремил,

И жадно холодной струей освежил

Горевшие тяжко язык и зеницы,

И лег, и заснул он близ верной ослицы -

И многие годы над ним протекли

По воле владыки небес и земли.

Настал пробужденья для путника час;

Встает он и слышит неведомый глас:

"Давно ли в пустыне заснул ты глубоко?"

И он отвечает: уж солнце высоко

На утреннем небе сияло вчера;

С утра я глубоко проспал до утра.

Но голос: "О путник, ты долее спал;

**Взгляни: лег ты молод, а старцем восстал;
Уж пальма истлела, а кладез холодный
Иссяк и засохнул в пустыне безводной,
Давно занесенный песками степей;
И кости белеют ослицы твоей".**

**И горем объятый мгновенный старик,
Рыдая, дрожащей главою поник...
И чудо в пустыне тогда совершилось:
Минувшее в новой красе оживилось;
Вновь зыблется пальма тенистой главой;
Вновь кладез наполнен прохладой и мглой.
И ветхие кости ослицы встают
И телом оделись, и рев издают;
И чувствует путник и силу, и радость;
В крови заиграла воскресшая младость;
Святые восторги наполнили грудь:
И с богом он дале пускается в путь**

قصيدة ميخائيل ليرمنتوف (النبي) الأصل الروسي

Михаил Лермонтов

Пророк

С тех пор, как Вечный Судия
Мне дал нсведенье пророка,
В очах людей читаю я
Страницы злобы и порока.
Провозглашать я стал любви
И правды чистые ученья, -
В меня все ближние мои
Бросали бешенно камня.
Посыпал пеплом я главу,
Из городов бежал я нищий,
И вот в пустыне я живу,
Как птицы, даром Божьей пищи.
Завет Предвечнаго храня,
Мне тварь покорна там земная,
И звезды слушают меня,
Лучами радостно играя.
Когда ж чрез шумный град
Я пробираюсь торопливо,
То старцы детям говорят
С улыбкою самолюбивой:
"Смотрите, вот пример для вас!"

Он горд был, не ужился с нами;

Глупец - хотел уверить нас,

Что Бог гласит его устами!

Смотрите ж, дети, на него,

Как он угрюм, и худ, и бледен!

Смотрите, как он наг и беден,

Как презирают все его!"

1841

جزء من قصيدة "ليرمنتوف" "الشيطان" الأصل الروسيّ (لطول القصيدة)

Часть II

I

"Отец, отец, оставь угрозы,
Свою Тамару не брани;
Я плачу: видишь эти слезы,
Уже не первые они.
Напрасно женихи толпою
Спешат сюда из дальних мест...
Немало в Грузии невест;
А мне не быть ничьей женою!..
О, не брани, отец, меня.
Ты сам заметил: день от дня
Я вяну, жертва злой отравы!
Меня терзает дух лукавый
Неотразимую мечтой;
Я гибну, сжался надо мной!
Отдай в священную обитель
Дочь безрассудную свою;
Там защитит меня спаситель,
Пред ним тоску мою пролью.
На свете нет уж мне веселья...

Святыни миром осеня,
Пусть примет сумрачная келья,
Как гроб, заранее меня..."

II

И в монастырь уединенный
Ее родные отвезли,
И власяницею смиренной
Грудь молодую облекли.
Но и в монашеской одежде,
Как под узорною парчой,
Все беззаконною мечтой
В ней сердце билось, как прежде.
Пред алтарем, при блеске свеч,
В часы торжественного пенья,
Знакомая, среди моления,
Ей часто слышалася речь.
Под сводом сумрачного храма
Знакомый образ иногда
Скользил без звука и следа
В тумане легком фимиама;
Сиял он тихо, как звезда;
Манил и звал он... но - куда?..

III

В прохладе меж двумя холмами

Таился монастырь святой.
Чинар и тополей рядами
Он окружен был - и порой,
Когда ложилась ночь в ущелье,
Сквозь них мелькала, в окнах кельи,
Лампада грешницы молодой.
Кругом, в тени деревьев миндальных,
Где ряд стоит крестов печальных,
Безмолвных сторожей гробниц;
Спевались хоры легких птиц.
По камням прыгали, шумели
Ключи студеною волной,
И под нависшею скалой,
Сливаясь дружески в ущелье,
Катились дальше, меж кустов,
Покрытых инеем цветов.

IV

На север видны были горы.
При блеске утренней Авроры,
Когда синеющий дымок
Куруется в глубине долины,
И, обращаясь на восток,
Зовут к молитве муэцины,
И звучный колокола глас

Дрожит, обитель пробуждая;
В торжественный и мирный час,
Когда грузинка молодая
С кувшином длинным за водой
С горы спускается крутой,
Вершины цепи снеговой
Светло-лиловою стеной
На чистом небе рисовались
И в час заката одевались
Они румяной пеленой;
И между них, прорезав тучи,
Стоял, всех выше головой,
Казбек, Кавказа царь могучий,
В чалме и ризе парчевой.

V

Но, полно думою преступной,
Тамары сердце недоступно
Восторгам чистым. Перед ней
Весь мир одет угрюмой тенью;
И все ей в нем предлог мученью -
И утра луч и мрак ночей.
Бывало, только ночи сонной
Прохлада землю обоймет,
Перед божественной иконой

Она в безумье упадет
И плачет; и в ночном молчанье
Ее тяжелое рыданье
Тревожит путника вниманье;
И мыслит он: "То горный дух
Прикованный в пещере стонет!"
И чуткий напрягая слух,
Коня измученного гонит.

VI

Тоской и трепетом полна,
Тамара часто у окна
Сидит в раздумье одиноком
И смотрит вдаль прилежным оком,
И целый день, вздыхая, ждет...
Ей кто-то шепчет: он придет!
Недаром сны ее ласкали.
Недаром он являлся ей.
С глазами, полными печали,
И чудной нежностью речей.
Уж много дней она томится,
Сама не зная почему;
Святым захочет ли молиться -
А сердце молится ему;
Утомлена борьбой всегдашней,

Склонится ли на ложе сна:

Подушка жжет, ей душно, страшно,

И вся, вскочив, дрожит она;

Пылают грудь ее и плечи,

Нет сил дышать, туман в очах,

Объятья жадно ищут встречи,

Лобзанья тают на устах...

www.lermontov.Info

فهرس المحتويات

1.....	الإهداء
2.....	شكر وتقدير
3.....	مستخلص
4.....	Abstract
5.....	مقدمة
8.....	أهمية الدراسة
8.....	أهداف الدراسة
9.....	منهج الدراسة
9.....	الدراسات السابقة
11.....	مشكلة الدراسة
12.....	هيكل الدراسة
15.....	تاريخ الإسلام في روسيا
16.....	الفصل الأول
16.....	المبحث الأول
16.....	تاريخ الإسلام في روسيا
16.....	البعد التاريخي للإسلام في روسيا
18.....	التتار
21.....	شعوب إسلامية تحالفت مع روسيا
23.....	رحلة ابن فضلان
28.....	المبحث الثاني
28.....	نماذج من المستشرقين
28.....	ماهية الاستشراق
29.....	محمد عبيد الطنطاوي
34.....	فاسيلي بارتولد
35.....	الاستشراق الفارسي
42.....	إغناطيوس كراتشكوفسكي
51.....	كريمسكي
54.....	تاريخ الأدب العربي الحديث
58.....	المبحث الثالث
58.....	الحوار العربي الروسي
61.....	المبحث الرابع
61.....	مؤثرات ثقافية عربية إسلامية على روسيا
65.....	ميثاق الجامعات
67.....	المبحث الخامس
67.....	نشأة الترجمة الروسية
67.....	(أ) الترجمة داخل روسيا من وإلى الروسية
71.....	(ب) الترجمة من الروسية إلى العربية
72.....	ترجمة القرآن الكريم
77.....	المبحث السادس
77.....	مكتبات الاستشراق والمخطوطات العربية
81.....	المبحث السابع
81.....	الإسلام في روسيا اليوم
84.....	الفصل الثاني
84.....	المبحث الأول

84	الاسكندر سيرجيفتش بوشكين
85	جذور الاسكندر بوشكين
87	نشأة بوشكين
90	المبحث الثاني
90	عظمة أدب بوشكين
90	يفجيني أونيجين
91	بوشكين والشرق
93	روسلان ولودميلا
98	نافورة باختشي سراي
102	المبحث الثالث
102	أدب بوشكين الاجتماعي
103	ملحمة الفارس النحاسي
106	ابنة القبطان
111	المبحث الرابع
111	بوشكين والطابع الإسلامي
114	النبي
115	المبحث الخامس
115	بوشكين والقرآن
115	ملحمة محاكاة القرآن
137	الشيطان
142	الفصل الثالث
142	المبحث الأول
142	ميخائيل ليرمنتوف
142	جذوره ونشأته
147	المبحث الثاني
147	إنتاج ليرمنتوف الأدبي
147	بطل من هذا الزمان
150	شعر ليرمنتوف
154	المبحث الثالث
154	الإسلام في إنتاج ليرمنتوف
154	الرسول
157	تعقيب
160	الشيطان
162	إيماءة
162	العاشق الغريب
164	الهارب
165	الهارب
171	فاليريك
173	التخلات الثلاث
176	المبحث الرابع
176	طابع ليرمنتوف الحزين
176	أخرج مهاجراً
178	مقتل الشاعر
182	المبحث الخامس
182	الشاعر والشرق
185	غصن فلسطين
190	الفصل الرابع

190	المبحث الأول
190	الأديب الروسي ليو تولستوي
190	جذوره ونشأته
194	المبحث الثاني
194	الطابع الشرقي في إنتاج تولستوي
197	المبحث الثالث
197	إنتاج تولستوي الأدبي
199	الحرب والسلام
200	أنا كارنينا
203	أسير القوقاز
206	المبحث الرابع
206	تولستوي والإسلام
210	تولستوي والفلسفة الدينية
212	هل أسلم تولستوي
218	من نفحات الروح
219	أزمة تولستوي الدينية
221	المبحث الخامس
221	اعتراف تولستوي
223	كتاب "الاعتراف" والزرعة الإسلامية
227	المبحث السادس
227	تولستوي والمنحى الأخلاقي
227	البعث
228	الأب سيرج
229	الحاج مراد
231	المبحث السابع
231	وفاة تولستوي ورثاؤه
231	رثاء أحمد شوقي لتولستوي
234	رثاء حافظ إبراهيم لتولستوي
236	رثاء الزهاوي لتولستوي
239	الفصل الخامس
239	المبحث الأول
239	الأديب إيفان بونين
239	جذوره ونشأته
242	المبحث الثاني
242	الأثر الشرقي في أدب بونين
244	البدوي
249	معبد الشمس
252	القاهرة
254	المبحث الثالث
254	بونين والإسلام
255	الكوثر
258	السر
259	محمد مطاردا
261	إبراهيم
269	الخاتمة
272	نتائج الدراسة
274	التوصيات

275	فهرس الآيات القرآنية الواردة في الرّسالة
279	أ- المصادر والمراجع العربيّة
285	ب- المراجع الأجنبيّة
308	فهرس المحتويات

